مكتبة

أدب أسترالي حديث

ميشيل دي كريتسير

ترجمة: إيناس التركي

وحوش مخيفة

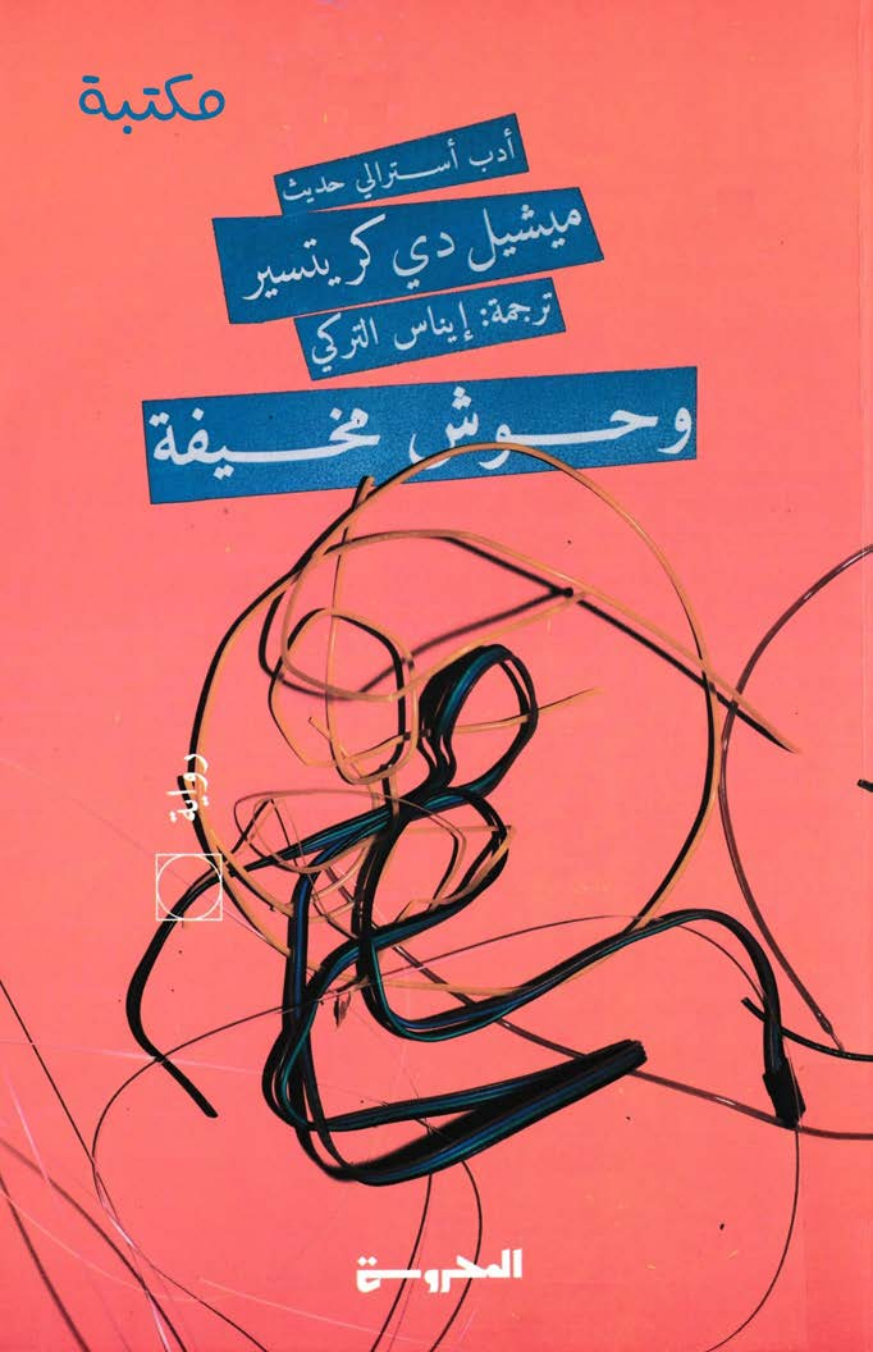

رواية

المحروسة

مكتبة
t.me/soramnqraa

وحوش مخيفة

ميشيل دي كريتسير

ترجمة
إيناس التركي

الطبعة الأولى 2023

عنوان الكتاب: وحوش مخيفة Scary Monsters
المؤلف: ميشيل دي كريتسير Michelle de Kretser
ترجمة: إيناس التركي
مراجعة لغوية: شيرين يونس
إخراج داخلي: رشا عبدالله

المحروسة

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٦٢٥٣/ ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-313-983-4

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة

2023

"This project has been assisted by the Australian Government through the Australia Council for the Arts, its arts funding and advisory body."

Copyright © Michelle de Kretser 2022
First published in Great Britain in 2022 by Allen & Unwin

مكتبة
t.me/soramnqraa

2 10 2024

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

دي كريتسير، ميشيل
وحوش مخيفة: رواية/ ميشيل دي كريتسير؛ ترجمة: إيناس التركي.-ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2023
280 ص؛ 21.5×14.5 سم
تدمك 978-977-313-983-4
1 - القصص الإسترالية
أ-التركي، إيناس (مترجم)
ب- العنوان
899.153
رقم الإيداع 2023/16253

إن الحكومة هي الأكثر برودًا من بين كل الوحوش الباردة.

نيتشه

كيف يكون شعورك، حينما تمثِّل مشكلة؟

و. إ. ب. دو بويز

وحوش مخيفة بقلم ميشيل دي كريتسير تستكشف الرواية ثلاثة من الوحوش التي ابتُلي بها عالمنا: العنصرية، وكراهية النساء، والتحيُّز ضد المسنين. وتتألَّف الرواية من حكايتين منفصلتين، يروي كلًّا منهما مهاجرٌ من أصول آسيوية إلى أستراليا. وتمامًا كما انقلبت حياة شخوص الرواية وانقلب عالمهم رأسًا على عقب بسبب الهجرة، قلبت ميشيل دي كريتسير شكل روايتها، بحيث التصقت الحكايتان ببعضهما على نحوٍ مقلوبٍ، ويمكن للقارئ البدء بأي جهة يشاؤها.

" *توضيح من مكتبة* "حين تمسك بيديك هذا الكتاب ستجد شيئا غريبا .. أن وجهي الغلاف لهما الشكل نفسه .. صورة واحدة متطابقة لصورة غلاف أمامي عادي لأي كتاب (انظر الصورة ١ في الصفحة التالية)..

كما جاء في نبذة الكتاب يتكون من حكايتين .. وإن فتحت الكتاب من أي جهة سيبدأ بصفحة رقم 1 والجهة الأخرى كذلك رقم ١ في الحكاية الأخرى .. والصفحتين الأخيرتين من الحكايتين تلتقيان في منتصف الكتاب (انظر الصورة 2 في الصفحة التالية)

في النسخة الرقمية التى بين يديك ستجد :

حكاية ليلى بداية من صفحة ٨

حكاية لايل بداية من صفحة ١٣٩

الملحقات صفحة ٢٧٢

وكما جاء أعلاه يمكنك البداية بأى حكاية قبل الأخرى ..

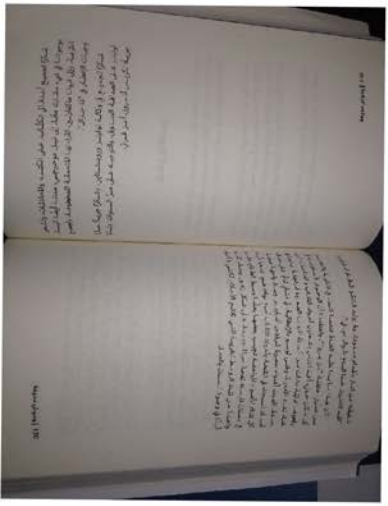

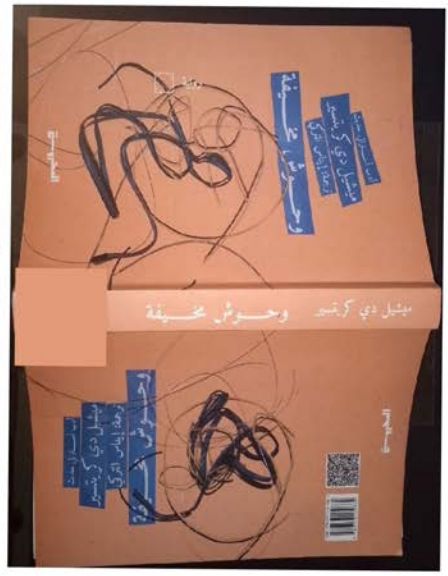

في حكاية ليلي، هاجرت أسرتها من آسيا إلى أستراليا وهي في سن المراهقة، حتى صارت تعمل بالتدريس في فرنسا في الثمانينيات، حيث كوَّنت صداقات، ولاحظت المعاملة التي يتعرَّض لها المهاجرون من شمال إفريقيا، بينما يثير جارها الخوف في نفسها بسبب غرابة طباعه. وطوال الوقت، تسعى ليلي جاهدة لتكون امرأة جريئة وذكية مثل سيمون دي بوفوار.

أما لايل، فيعمل لصالح إدارة حكومية خبيثة في أستراليا في المستقبل القريب. وبوصفه مهاجرًا آسيويًّا، فهو يخشى العودة القسرية لوطنه الأم التي تهدد كل معارض للحكومة، ويحاول لايل الاندماج وتبني «القيم الأسترالية»، بينما تشغله زوجته الطموحة وولداه صعبا المراس ووالدته المسنَّة العنيدة.

تدور كل هذه الأحداث على خلفية من التغيُّر المناخي والأوبئة المنتشرة والحرائق المستمرة، في ظل حكومة شمولية جرَّمت الإسلام في البلاد وفرضت سيطرتها بالقوة، حتى صارت أستراليا منبوذة على الصعيد الدولي وخاضعة للعقوبات الاقتصادية.

ليلي

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان ذلك هو العام الذي ذهبنا فيه إلى سردينيا لمقابلة عشيقة جون بيرجر، وكان القطار الليلي الذي يسافر عبر كوت دازور مكتظًّا، والتدفئة عالية في مقصورتنا، لذا تناوبنا أنا ومينا على الوقوف في الممر؛ حيث تنفتح النوافذ، وتدخل كتل من الهواء الربيعي البارد. تمدَّد الناس هناك، ومعظمهم من الجنود المراهقين ذوي الرؤوس الحليقة حديثًا. اضطررنا إلى السير فوق حقائبهم، وعلا تذمُّرهم بشأن ذلك. تحدَّث الجنود بصوتٍ أعلى مما هو مطلوب، وتدافعوا فيما بينهم. أذكر نفاد الصبر البادي على وجوههم، وكان أحدهم كورسيكيًّا ممتلئ الجسم، أطلق عليه الآخرون اسم بونابارت بسخرية لطيفة.

كان القطار متأخرًا عن موعده، وظلَّ يتوقف فترات طويلة وغامضة بين المحطات. عندما عدنا إلى مقاعدنا، تشاركنا أنا ومينا عبوة من البسكويت الهش المغطَّى بالشوكولاتة، ومِلنا إلى الأمام كي نمرِّرها بيننا جيئة وذهابًا. لاحقًا، عندما كان النعاس يغمرني، تعثَّرت في ساقيْ أحدهم وخرجت إلى الممر، حيث وجدت الجنود يلعبون النرد مثل الجنود من الكتاب المقدس، والمرحاض ينضح بالقذارة.

سألني الكورسيكي عمَّا إذا كنت أعرف بيرة الكستناء الحمراء المخمرة في قريته، وعرض عليَّ سيجارة، عندما تباطأ القطار حتى توقف. ظهرت من النافذة مدينة بدت كما لو أنها مبنية من الميكانو،

وأبراجها ومكعباتها مضاءة بنجومٍ ذهبية كبيرة، فأوضح جندي آخر أنها مصفاة لتكرير النفط. قال نابليون إنه حتى تتمكَّن من فهم رجلٍ، عليك معرفة كيف كان شكل العالم عندما كان في العشرين من عمره. كنتُ في الثانية والعشرين من عمري، وكانت مينا في العشرين، وكان العام هو 1981.

***

في وقت تلك الرحلة، كنتُ قد أمضيت سبعة أشهر وأنا أعمل بالتدريس في مدرسة ثانوية في مونبلييه. كان هناك ثلاثة مساعدين في مدرسة جان مولان الثانوية: أنا وفيليبي وديتر. ومثل مئات الأجانب الآخرين، وظَّفتنا الحكومة الفرنسية للمساعدة في تدريس لغاتنا الأم. كان لديَّ أنا وديتر عقود سارية من سبتمبر 1980 حتى نهاية مايو التالي، لكن فيليبي أمضى في العمل كمساعدٍ فترة أطول من عمري بأكمله. في الأسابيع الأخيرة من الحرب الأهلية الإسبانية، عندما كان يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، هرب عبر جبال البرانس إلى فرنسا، وعندما اكتشف الفاشيون هربه، ألقوا بشقيقته داخل بئرٍ. كان يمكن ملاحظة فيليبي في غرفة الموظفين وهو يشرب القهوة المُرَّة من ماكينة صنع القهوة مع الرجال الآخرين الكبار في السن. قيل لي إن لديه سبعة أطفال، بينما قال شخص آخر خمسة، وكان يمكن أن تكون الحقيقة وجود طفل واحد، أو عدم وجود أطفال على الإطلاق. كان التكاثر بإسرافٍ متوقعًا من الإسبان، الذين ترسخ في الرأي الفرنسي كونهم عرقًا متخلفًا يسيطر عليه الكهنة.

أنزلتني المدرسة الثانوية في النُّزُل التابع لها خلال الأسابيع القليلة الأولى التي بدأت فيها التدريس، بينما كنت أبحث عن مكان لأعيش فيه. وفقًا للتعليمات التي تلقيتها في سيدني، وصلت إلى مونبلييه بعد

مرور أسبوع من شهر سبتمبر، وكان الطلاب الفرنسيون قد اقتنصوا جميع الأماكن المفروشة الرخيصة بحلول ذلك الوقت. في مكتب السياحة، لم يصدق الموظف المسؤول عن الإيجارات الأمر: الحضور بعد استئناف الدراسة، وتوقُّع العثور على سكن! وضع راحتيه على المنضدة وانحنى إلى الأمام ليقيِّمني، وهو يحاول أن يقرر ما إذا كان سيحتقر أجنبية، أم يشفق على حمقاء.

أقام ديتر حفلة بعد وقتٍ قصيرٍ من لقائنا. كان يعيش في مبنى هادئ على طراز هوسمان بسقفٍ من الأردواز، وبه مصعد في قفصٍ حديدي، وسلَّم رخامي له درجات سفلية واسعة. صعدت الدرج إلى الطابق الثاني، حيث كان أحد الأبواب المزدوجة للشقة مفتوحًا. كانت والدة ديتر فرنسية، والشقة مملوكة لإحدى القريبات البعيدات، وقد تزوجت هذه القريبة من دبلوماسي يعمل حاليًّا في عمان. كان المدخل مؤثثًا بخزانات مقفلة ذات واجهات زجاجية تحتوي على آثار شرق أوسطية: ألواح طينية وتماثيل غير مزججة وأوعية صغيرة. وقفت فتاة ذات شعر نحاسي مصفَّف على شكل غديرتين وترتدي بدلة من قماش الترتان وهي تتأمَّلهم. كان أول شيء قالته لي مينا هو: "من الواضح أنها منهوبة، أراهن أنهم أخرجوها في حقيبة دبلوماسية". بدت نبرة صوتها الإنجليزية منخفضة وعنيفة. قالت: "هل رأيت اللوحات؟ من هنا". في غرفة المعيشة كانت هناك كراسٍ مذهبة بالية، وأعضاء فريق "سيكس بيستلس". أدارت مينا ظهرها لثلاث لوحات، وقالت: "تخيَّلي امتلاك المال اللازم لشراء أعمال أرسيمبولدو، وشراءها بالفعل". أشعلت سيجارة، ولاحظت أنها تقضم أظافرها.

صاح جوني روتين قائلًا إنه لا يعرف ما يريد، ولكنه يعرف كيف يحصل عليه. أرسل إليَّ ديتر قبلة، واستمر في التحدث إلى صبي له رأس صغير أملس الشعر كراقصٍ. أخبرتني مينا بأنها فنانة، وقالت إن هناك العديد من مدرسي اللغة المساعدين في الحفلة، وقادتني إلى

أحدهم، صديقها نيك. كان يتحدث إلى ديب، مساعدة أخرى، تدرِّس في مدرسة مختلفة. كانت ديب تبحث مثلي عن مكان للسكن، لكن مينا ونيك كان لديهما شقة في البلدة القديمة، في القلب التاريخي. وقَّعا عقد الإيجار في يونيو، وقضيا الصيف في العمل في تولون. بدا نيك مسمر البشرة، ولديه عينان زرقاوان فاتحتان للغاية، وهو مزيجٌ وجدْتُه مخيفًا ومثيرًا في نفس الوقت. تحدث بلطفٍ معي أنا وديب وقال: "انظرا، لا يمكنكما تأجيل البحث عن سكن حتى شهر سبتمبر، يجب أن تعرفا كيفية إدارة مثل هذه الأمور".

كان لدى مدام بيسيه، رئيسة قسم اللغة الإنجليزية في مدرستي، غرفة للإيجار في منزلها، عرضتها عليَّ في أحد الأيام. بدت دافئة ومشرقة، وبها رأس غزال يطلُّ من أحد الجدران،كان ابن آل بيسيه قد اصطادها احتفالًا بطلاقه. لفتت مدام بيسيه انتباهي إلى الموقد الكهربائي، وقالت: "كما ترين، هذا مثالي لإعداد العجة". كان منزلها على مسافة قصيرة من المدرسة، مما يعني أنه بعيدٌ عن وسط المدينة، وكانت الحافلات تتوقف عن العمل في الساعة الثامنة.

في الساعات التي قضيتها في باريس وأنا أعاني إرهاق السفر قبل أن أستقل القطار المتجه نحو الجنوب، ابتعتُ بطاقة بريدية تصور إحدى الصور الفوتوغرافية التي التقطها ويلي رونيس. أظهرت البطاقة امرأة عارية تغتسل عند طست، وبجانبها أبريق فوق الأرض الحجرية. كانت هناك نافذة عميقة مفتوحة في الجدار، من دون أي لوح زجاجي، بل مصراع فقط مصنوع من ألواح خشبية رأسية. كنت أعاني من النسخة المملَّة من مشكلة جوني روتين: كنت أعرف ما أريده، ولكني لا أعرف كيف أحصل عليه. أردت السكن في القلب التاريخي للمدينة. فما معنى مغادرة أستراليا إلى فرنسا، إن لم تكن تتمنى العيش في قلب المدينة التاريخي؟ في حفلة ديتر، عبَّرت عن مخاوفي: "قد أضطر إلى قبول الغرفة لدى آل بيسيه".

أخذنا نأكل البسكويت المملح ونشرب النبيذ، وكان الآخرون، نظرًا إلى كونهم إنجليزًا، قد أتوا إلى فرنسا من قبل لقضاء العطلات وللتبادل المدرسي. سمعت أنه من المستحيل العثور على رقائق بطاطس جيدة إلا في ماركس اند سبنسر في باريس. أشارت ديب إلى أن كلمة "رقائق" كلمة رائعة حقًّا، لأن الفرنسيين يواجهون صعوبة في نطقها. "تدورين بينهم في الفصل، فتنعقد ألسنتهم، الأمر رائع حقًّا، يمكنك قضاء خمس عشرة دقيقة على هذا النحو".

قال نيك: "كما أن الجيلي أيضًا مفيد. تسألينهم من ذهب إلى إنجلترا، وكيف أعجبهم الطعام، حينها يتحدثون لفترة طويلة عن مدى بشاعة الجيلي، وكيف شعروا حياله، وإذا أسعدك الحظ، قد يقف أحدهم ويبدأ في هز جسده".

ارتدت مينا مسبحة طوَّلتها عند مؤخرة رقبتها بحلقات إضافية، وأخذت تمصُّ الصليب، وعندما أخرجته من فمها، بات ملطخًا ببقعة من أحمر شفاه. تعالى صوت موسيقى مختلفة، "وحوش مخيفة"... لم أكن أعرف الأغنية، لكنني تعرَّفت على صوت بوي. قلت إنه وحش مُخيف بكل تأكيدٍ، مشيرة إلى إعجاب الدوق الأبيض النحيف بهتلر. قالت ديب إن بوي لم يقصد الأمر على هذا النحو. كان جميع معجبي بوي الذين أعرفهم من البيض قد قالوا لي نفس الشيء. بدت بشرة ديب كما لو أنها بلون أزرق باهت، مثل الحليب المقشود، وكان لديها وجه كالدمية، جميل وقاسٍ.

تقدم ديتر نحونا وهو يلوي طرف سيجارة ماريجوانا، قائلًا: "هل يشعر الجميع بالسعادة؟ سوف نبدأ الرقص قريبًا. سيشارك الألمان في الرقص، لا تقلقوا". سأل عمَّا إذا كنَّا قد قابلنا أدالبرت: "ها هو هناك، بالقرب من الموسيقى الدائرة، كنزي الثمين". كان عشيقه رجلًا طويل القامة فائق الجمال، نُحِت من الثلج، وكان كبيرًا في السن، ربما

في الثلاثين! قال ديتر: "أعرف، فأنتم تفكرون أنه يبدو كما لو أنه نازي". أخبرنا أن أدالبرت لعب ذات مرة دور ضابط من قوات الأمن الخاصة النازية في أحد الأفلام. كان المخرج نجمًا صاعدًا، وعُرض الفيلم في كان. شعر أدالبرت أن مسيرته المهنية مضمونة، فلن يسأم العالم أبدًا من الأفلام التي تدور حول الرايخ الثالث. ذهب إلى باريس واستأجر جناحًا في فندق جورج الخامس، "كان يتدرب على أن يكون نجمًا، حتى يعرف تمامًا كيف يتصرف عندما يتحقق ذلك". بعد نهاية أسبوعين، أنفق أدالبرت كل أمواله، وبعد أربع سنوات، كان أفضل دور جديد له هو إعلان لماكينة حلاقة كهربائية.

وحينما لم يكن منشغلًا بلعب دور النازي، كان أدالبرت يحتفظ بصورة لنباتٍ منزلي في محفظته. أخرجها ليريني إياها، وكانت لغته الإنجليزية، مثل لغتي الألمانية، توضح حسن النوايا بدلًا من نقل المعنى، لذا تولَّى ديتر الترجمة: "يُدعى هذا النبات قدم الفيل، وهو نبات أدالبرت المفضل، وقد أسماه رامون". قلت إن هناك نباتًا له أوراق بحجم الصحون ينمو في سيدني، يُعرَف باسم أذن الفيل، لكن أدالبرت لم يكن يكترث بالفيلة، ومرَّر إبهامه بحبٍّ فوق البلاستيك الذي يحمي كنزه الثمين.

اتخذ جو الحفل عدة مناحٍ مختلفة، وقالت مينا: "في اللحظة التي يتحوَّلون فيها إلى موسيقى الديسكو، سوف أرحل"، ثم تحوَّلوا إلى موسيقى الديسكو. أخذ نيك يدندن أغنية بوي على نحوٍ خفيضٍ بينما كنَّا نغادر. أصدر باب المصعد قعقعة وهو يستقر في مكانه، وقالت مينا: "أدالبرت، يا له من اسمٍ! لديه على الأرجح شقيقة تُدعى والتراوت. هناك سؤال واحد فقط يجب طرحه بشأن مثل ذلك النوع من الناس: ماذا فعلوا خلال الحرب؟".

قال نيك: "إنه ليس كبيرًا في السن إلى ذلك الحد".

"إن والده نمساوي، وهم الأسوأ على الإطلاق، إنهم يخفون الصلبان المعقوفة أسفل ياقاتهم. أما بالنسبة إلى الفرنسيين، فقد رأيت ما تستطيع القيام به تلك اللصة، مالكة شقة ديتر. أنت تعلم أن ديتر لم يعلن عن مثليته الجنسية لأسرته، أليس كذلك؟ لا يُسمَح لأدالبرت بالرد على الهاتف، فهم لا يعرفون بوجوده".

في الشارع، أغلقت مينا سحاب سترتها، التي كانت مصنوعة من الفراء الصناعي بدرجة مبهجة من اللون الأخضر. اضطررتُ إلى ركوب سيارة أجرة للعودة إلى المدرسة، وأنفقتُ من مدخراتي التي أخذت تتلاشى. أوصلتني مينا ونيك إلى صف السيارات الأجرة المنتظرة. وعندما قاما بوداعي، قبّلا وجنتي مرة، مرتين، ثلاث مرات، كما هي العادة في الجنوب. قالت مينا: "هذه غاية الحماقة، إذ يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لمغادرة أي مكان". فركتْ أحمر الشفاه الذي خلَّفته على وجهي قائلة: "لا تأخذي تلك الغرفة".

***

عُرضت شقة مفروشة للإيجار في القلب التاريخي للمدينة، في شارعٍ قريبٍ من الكاتدرائية تفوح منه رائحة الأحجار الباردة. زيَّنت المصاريع الخشبية الزرقاء نوافذ المبنى، الذي كان الأصغر في الشارع ويبدو أنه الأقدم أيضًا، ونُقش تاريخ فوق المدخل: 1703. التقيت بمالك العقار السيد لافال هناك، وتبعته صاعديْن على درج ملتوٍ. التفَّ الدرج حول عمودٍ ضخمٍ مكسو بالحجارة الخشنة، يرتفع من الردهة. ما الغرض منه؟ عندما سألت، قال السيد لافال إنه مبنى قديم جدًّا، لا يشبه أي مبنى آخر، وقد خضع للتغييرات بمرور الزمن.

كانت الشقة في الطابق العلوي، وبدت الحجرتان بجدرانهما السميكة أشبه بالغرف التي زرتها في الأحلام. احتوت على بعض

الأشياء الأساسية: كراسٍ وطاولة وفراشٍ كبيرٍ مرتفع برز من تجويفٍ في الغرفة الرئيسية. علَّمني بحثي عن مكان للسكن أن كلمة "مفروش" في فرنسا هي مجرد مسمى يُستخدَم لطرد المستأجرين من دون إثارة ضجة. زيَّنت أرضية المطبخ بلاطات لها شكل سداسي، باتت غير مستوية من أثر الاستخدام، ولها لون أحمر باهت. كما كانت هناك كابينة للاستحمام في أحد الأركان، وثلاجة مستديرة الحواف. أما دورة المياه، فكانت عبارة عن حجرة عند قمة الدرج الذي ارتفع ملتويًا من الردهة بالأسفل، وبها نافذة صغيرة فوق مستوى ارتفاع الرأس، ومقعد خشبي، ولافتة مطلية بالمينا على الباب توضح أنه مرحاض. لا بد أنه كان يخدم المبنى بأكمله منذ زمن ليس بالبعيد، لكن السيد لافال قال إنه سيكون لاستخدامي الخاص، وإن الشقق الأخرى بها مراحيض خاصة في الداخل.

كما أخبرني أيضًا أنه ورث المبنى، ويعمل على تجديده بالتدريج. ضم المبنى أربع شققٍ فقط، واحدة في كل طابق، وكان "هادئًا جدًّا، هادئًا للغاية". أجرى السيد لافال جميع التجديدات بنفسه، ولا يزال لديه شقة واحدة ليعمل عليها، في الطابق السفلي. كان قد انتهى من هذه للتوِّ، ووصلت رائحة الطلاء الحديث إلى أسفل الدرج.

بدا السيد لافال مبتهجًا مغضن البشرة، مثل مزارع في كتاب للأطفال، وعيناه شقَّان زرقاوان لامعان. أخبرني أنه يعيش على بضعة أفدنة لا تبعد كثيرًا عن مونبلييه، وسألني من أين أتيت. يصيبني ذلك السؤال بالتوتر. قبل سبع سنوات، هاجرت عائلتي من آسيا إلى أستراليا. من أين أتيت؟ اتسعت عينا السيد لافال الصغيرتان عندما قلت أستراليا. صاح قائلًا: "هذا بعيد للغاية!". هذا ما قاله كل فرنسي عند ذكر أستراليا. وافقته القول إنها بعيدة جدًّا بالفعل. لم أخبره أن بُعد المسافة سهَّل عليَّ القول بأنني أتيت من أستراليا، أما بالنسبة

إلى القول "بأنني أسترالية"، فلم يكن امتداد الكوكب شاسعًا بما يكفي لأدعي ذلك.

كلَّفتني الشقة سبعمائة فرنك شهريًّا، وهو أكثر مما كنت أتمنى أن أدفعه، لكن السيد لافال أوضح أن تكلفة المرافق مشمولة في الإيجار. قال بالفرنسية: C'est intéressant""، أي هذا مثير للاهتمام، وكررها على فترات بلكنته الجنوبية المنغمة، "مو-ثير للاهتي-مام"، بينما هو يريني المكان. كانت ""intéressant كلمة لم أفهمها تمامًا في البداية. إذ إنها قد تعني "مثير للاهتمام" كما تعلمت، لكنها كانت تحمل أيضًا المعنى الفرنسي الذكي "في صالح المرء". كان السيد لافال يخبرني أن هذه صفقة رابحة، بينما ظننت أنه يشير إلى الطابع الرومانسي للمكان. بعد يومين، وضعت بطاقة رونيس البريدية بجانب الحوض الخزفي العميق في المطبخ. صرَّت الثلاجة أسنانها على سبيل الترحيب، وبدا مفتاح الباب الأمامي ثقيلًا وباردًا في يدي.

***

كانت البائعة المفضَّلة لديَّ في السوق المفتوح المتخصص في بيع الطعام ترتدي دائمًا سترة جلدية متشققة وحذاء لركوب الدراجة النارية. صبغت ساندرين شعرها بلون أسود صريح داكن، وصفَّفته في شكل ذيل حصان طويل إلى جانب واحد. أبدت ميلها إليَّ من خلال لفت انتباهي إلى هذا الصنف من الخضراوات أو ذاك: هذا "مو-ثير للاهتي-مام". ما هو الشيء المثير للاهتمام في البطاطس والكرنب؟ لفتت هذه النقطة البسيطة الغامضة انتباهي مثل هيئة داكنة وسط حقل ثلجي. كان هناك شيء وحشي في الأمر حينما يُلقى بالمرء وسط لغة أجنبية، وشيء مثير أيضًا. في تلك الأسابيع الأولى، كنتُ أحيانًا أضع مسافة بيني وبين نفسي، وأراقب تقدُّمي كما لو أنني أتابع شخصية

في رواية. عند السؤال عن كيفية فتح حساب مصرفي، كنت أستمع إلى نفسي وأنا أعيد تكرار الجمل الواردة في كتب القواعد. استمتعت بغرابة ذلك، مثلما استمتعت بالدفتر ذي المربعات الذي اشتريته، والحلقة الجيرية التي خلَّفها الماء العسر في القدور، وكان كل شيء دليلًا على أنني أعيش حياة مختلفة.

كان للساحة الرئيسية التي تتوسَّط المكان اسمٌ رسمي، لكن أطلق عليها الجميع اسم البيضة نظرًا إلى أنها تتخذ هذا الشكل. امتدَّ من أحد أطراف الساحة ممشى تصطف على جانبيه أشجار الكستناء الهندي. كانت الأشجار قد أينعت وتغيَّر لونها، وبدت الحدة المذهلة لفصل الخريف في الشمال أمرًا جديدًا أيضًا. في عطلات نهاية الأسبوع، جلس كبار السن على مقاعد تحت الأشجار المدهشة، وركب الأطفال الصغار دراجاتهم ثلاثية العجلات بحرصٍ واصطدم بعضهم ببعض. ذات يوم أحد، كانت هناك عروض جانبية، وشاهدتُ رجلًا يصوب حلقات الحبال المعقودة نحو أعناق الإوز الذاهل المربوط. بدا لي المشهد كما لو أنه من قرن آخر، شيء يشبه ما كان يراه فلوبير.

***

تقع نيم على بُعد نصف ساعة فقط بالقطار. ذهبت إلى هناك في يومٍ أحدٍ غائم، بينما تهب ريحٌ شديدة. كانت هناك فسيفساء رومانية يمكن مشاهدتها، ومدرج روماني حيث تقام الآن مصارعة الثيران. ارتفع الجدار في المدرج بما يكفي لمنع أي شخص من القفز فوقه للفرار، لكنني لم ألاحظ ذلك حينها. انشغل عقلي بالحسابات، بينما كنت أتجوَّل في المدينة تحت سحبٍ من أوراق الشجر الصفراء. لم يكن راتبي سخيًّا، ولم أعتد إعداد الميزانية كل شهر. كانت تذاكر القطارات أرخص إذا تم شراؤها مقدمًا، لذا علاوة على تذكرتي إلى

نيم، اشتريتُ تذكرتين للعودة إلى باريس. كان لديَّ أصدقاء أستراليون هناك، وخططنا لقضاء عيد الميلاد معًا، بالإضافة إلى العطلة القادمة التي تبلغ ثلاثة أيام بمناسبة عيد جميع القديسين. كانت هناك عبارة صادفتها في الروايات، "un fin de mois difficile"، تشير إلى نقص المال في نهاية الشهر. كنت أعرف ذلك، لكنني شعرت بقوة التعبير للمرة الأولى عندما جمعت حساب تذاكر القطار، ورسوم دخول المزارات في نيم، وتكلفة شطيرة الجبن الطويلة التي اشتريتها على الغداء.

تناثرت فتاتٌ مقرمشة من الشطيرة على معطفي، بينما كنتُ أسير في الممرات الكالحة المفروشة بالحصى في إحدى الحدائق. إذا جلست على مقعدٍ، سيجلس رجل بجانبي في غضون دقائق ويسأل عن اسمي. وإذا لم أجِب، فسيسأل سؤالًا مختلفًا أو يدعوني إلى تناول شراب. سيرحل بعد فترة، وسيحل محله رجل آخر في الحال. كان الرجال من ذلك النوع مألوفين بالنسبة إليَّ، إذ كانوا يتجوَّلون في أرجاء مونبلييه أيضًا، تحت بقايا الأشجار ذات الألوان المشتعلة في الطرقات العامة. كانوا من شمال إفريقيا، يرتدون ملابس رسمية من سراويل وسترات مكوية لا تتماشى مع بعضها، وتظهر على أحذيتهم ثنيات عند مشط القدم، لكنهم عملوا على تلميعها حتى صارت تبرق. في أيام الأحد، اعتاد الفرنسيون الانسحاب إلى فيلاتهم وعائلاتهم، تاركين الشوارع للأجانب الذين لم يكن لديهم مكان يذهبون إليه. وإذا أجبت بأدبٍ على أحد هؤلاء الرجال، فسوف يقترب في جلسته حتى يلامس فخذه فخذي.

في مونبلييه، كان يُقام سوقٌ للسلع المستعمَلة كل يوم أحد، تحت قنطرة المياه التي تعود إلى القرن الثامن عشر، والتي لا تزال تزوِّد نوافير المدينة بالمياه. تفحَّصت هناك بعض الملابس المبقعة بالصدأ، واللوحات الزيتية المعتمة من أثر الورنيش، والأطباق الخزفية المشروخة. سُعِّرَت معظم هذه النفايات كما لو أنها كنوز، لكنني ظللت أعود إلى المكان. كانت مدام بيسيه قد أعارتني ملاءات سرير

ورثتها عن جدتها، لتوفر عليَّ تكلفة شراء ملاءات جديدة. وكانت الملاءات ثقيلة مطرزة بأحرف الاسم الأولى، وتصلح أن تكون كفنًا. استغرق الأمر ساعتين حتى تجف. كنت أضع العملة المعدنية تلو الأخرى في الآلة في المغسلة، ثم أتوجه إلى السوق على الجهة المقابلة من الطريق.

في بعض الأحيان كان موكب من الشاحنات ذات اللون الأزرق الداكن يعبر مسرعًا نحو قنطرة المياه. كان رجال الشرطة يحتشدون، ويتمركزون حول السوق ويشرعون في فحص أوراق الناس. ودائمًا ما كانوا يطلبون رؤية بطاقة هويتي، لكن بمجرد إظهار جواز سفري، كانوا يلوحون لي بالانصراف. لم يكن الأستراليون "مو-ثيرين للاهتي-مام". دائمًا كان الأمر ينتهي بنفس الطريقة، وهم يقتادون في الشاحنات مجموعة من الرجال من شمال إفريقيا. بدأت أفهم السبب في كونهم يبذلون هذا الجهد للظهور بمظهرٍ محترم، إذ يمكن أن يتغاضى الفرنسيون عن الكثير من الأشياء إذا كنت قد أوليت حذاءك ما يكفي من الاهتمام.

في مقهى بالقرب من شقتي، هناك صورة لميناء ملونة باليد معلقة على الحائط، كُتِب عليها "الجزائر، 1938". لاحظني المالك وأنا أتأمَّلها، وقال: "كان الخليج فائق الزرقة"، ثم أضاف: "أولئك العرب الملاعين!"، وواصل تلميع الزجاج. فكرت فيه في الحديقة في نيم، وفكرت في الشاحنات. ثم سَبَبْتُ الرجل الذي أصدر صفيرًا عندما توقفت لألقي نظرة على تمثال. كان لنا نفس لون البشرة، أنا وأولئك القادمين من شمال إفريقيا، وكان لهذا أهمية كبيرة، لكنها لم تكن كبيرة بما يكفي.

قالت لي ديب: "أحتفظ بدبوس قبعة كبير في متناول يدي، وإذا حاول أحدهم الإقدام على أي شيء، أوخزه به". عرضت ديب شراء دبوس لي، إذ كانت مدينة لي، لأنها استأجرت غرفة مدام بيسيه. عندما سألتها كيف تنتوي التحرك بعد توقف الحافلات عن العمل، قالت

ديب إنها استأجرت دراجة بخارية. فاجأتني كفاءتها وحسن تقديرها. تخيلتها وهي تسير بها مسرعة عبر الطرقات، والهواء يلفح وجهها الجميل المائل إلى الزرقة. لم أكن أجيد التعامل مع هذه الأشياء. عندما هاجرت أسرتي بدا الأمر كما لو أننا انقلبنا رأسًا على عقب، وبات للأحداث ومعانيها منظورٌ جديدٌ بالنسبة إلينا. مرَّت سبع سنوات، لكن ثلاثتنا كنا لا نزال نحاول التعامل مع ذلك.

***

ظلَّت الدراسة بمنزلة الدعامة التي استندت إليها لأطول فترة من الوقت يمكنني أن أتذكرها، والآن بعد تخرجي، كان لا بد من إزالة تلك الدعامة، وبدا كل شيء كما لو أنه ترتيب مؤقت. شعرت بطنين في أذني. نظرًا إلى كوني شابة وذكية ومفعمة بالطموح الذي يفتقر إلى التركيز، كنت أميل إلى الشعور بالهلع. كانت حياتي عبارة عن جسرٍ معلَّق فوق وادٍ، وأنا أتحرك فوقه بسرعة، بينما ينهار من خلفي مثل مشهدٍ في فيلمٍ قديمٍ. يكمن الأمان في إبقاء عيني مثبتة على وجهتي، ولكن أين تكون هذه الوجهة؟ حاولت الإيمان بأنني أطالع منظورًا غير منقطعٍ من الاحتمالات. أردت الشعور بالاسترخاء، وأن أَثِب وأتلوَّى، رغبتُ في خوض المغامرة، وأن أزهر، لكن دائمًا ما كان يعود لي صوتٌ هامسٌ يسأل: ماذا سيحل بك؟ تعطَّلتُ عند إشارة المرور، أنتظر علامة ما، أو أنتظر رسالة. قد تزودني الرسالة بتوجيهاتٍ، أو قد لا تفعل. بدت أيامي معلقة فحسب، مجرد وقتٍ خارج حدود الزمن، من دون ماضٍ ولا مستقبل، بل حاضر متواصل فقط.

وقد زاد كل هذا تعقيدًا لسببين، أولهما الشعور بالوحدة. كنت أمسك بيدي في الفراش ليلًا، لأبعث في نفسي الارتياح عند الخلود إلى النوم. إن العيش بمفردي يعني بلوغ سن الرشد، لكنني افتقدت

الأصوات التي تتعالى في المنزل الذي نتشارك فيه مع آخرين: الأصوات والموسيقى، والعطسات الهائلة، والأقدام التي تطرق درجات السلم خلال نزولها. كانت الوحدة أمرًا مخزيًا، وما يجب القيام به هو تحويلها إلى عزلة، لكن كيف؟ بدت العزلة شيئًا ساميًا له طابعٌ أدبي، مملكة الرجال والنساء الاستثنائيات. كتبت رسالتي الجامعية عن إحدى هؤلاء النساء. كانت سيمون دي بوفوار تمثِّل الفلسفة، وباريس، والسياسة، والتقدُّم. أردت أن أكون هي، وأردت حياتها. كانت امرأة جريئة وذكية، وعندما كانت في سنٍّ لا يكبرني بكثيرٍ، قبلت دي بوفوار وظيفة للتدريس في مارسيليا. لم يكن لديها أصدقاء هناك، وقضت عطلات نهاية الأسبوع تتجوَّل في التلال الصخرية وراء المدينة. عندما قال زملاؤها إنها تعرِّض نفسها لخطر الاغتصاب، رفضت تحذيراتهم ووصفَتْها بأنها "مجرد هواجس عوانس". كتبت: "هناك أشياء معينة، مثل الحوادث أو الأمراض الخطيرة أو الاغتصاب، لا يمكن ببساطة أن تحدث لي".

كان ممشى دو بيرو يمتد من أحد أطراف القلب التاريخي للمدينة. كثيرًا ما عدت إلى تلك الساحة، حيث ذكَّرتني بسماء أستراليا الشاسعة، وكانت هناك مناظر مطلَّة على المدينة والتلال المنحدرة في الأفق. حملني السير لمسافاتٍ طويلة، خطوة بخطوة، إلى ضواحي مونبلييه، لكن التلال ظلَّت بعيدة. مررتُ بفيلات يلفُّها الصمت، وقاومت الرغبة في التحدث إلى شخص ما. عاد أدالبرت إلى متجر التسجيلات في برلين الغربية حيث كان يعمل، مما ترك ديتر أيضًا بمفرده، لكن ديتر كان يدرس اللغويات في الجامعة، وكان لديه أصدقاء من زملائه الطلاب، كما ذكر ناديًا للمثليين أيضًا. لم يكن في حاجة إلى أي رفقة، ومنعني الخجل الزائد من طلب رفقته. كانت مينا قد أعطتني عنوانها، لكن ساورني القلق بشأن التطفل على حياة الأزواج. فكرت في تلك العلاقة بوصفها شيئًا رسميًا وثابتًا وجليلًا. لم تكن التجربة التي خضتها تشبه

أي شيء من ذلك القبيل، لكنني اعتقدت أن الآخرين يتمتعون بموهبة أكثر، أو شكوك أقل.

أما الشيء الآخر الذي شغل بالي فهو اكتشاف طرأ عليَّ: كانت شقتي باردة، إذ إن الشارع الذي أسكن به ضيقٌ مرصوفٌ بالأحجار، والمبنى المقابل لي أعلى من بنايتي، بحيث تصير نوافذي مظلمة ما بين الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الساعة السابعة والنصف من الصباح التالي. تصرَّفت الشمس كزائرٍ خجولٍ، يدخل غرفتي بترددٍ ويهرب بسرعة. كانت هناك مدفأة، تعمل بواسطة أسطوانة غاز زرقاء ضخمة وَعَدَ السيد لافال باستبدالها عندما تنفد. نصب المدفأة في المدخل بين الغرفتين، قائلًا إنها ستدفئ الشقة كلها. بعد عشرة أيام من تدفئة الشقة بأكملها، فرغت الأسطوانة، وحاولت الاتصال بالسيد لافال. عاودتُ الذهاب مرارًا وتكرارًا إلى كابينة الهاتف، حتى أجاب أخيرًا قائلًا إنه سيستبدل الأسطوانة في نهاية الشهر.

"قلتَ إنك سوف تستبدلها عندما تنفد".

"من المفترض أن تدوم لمدة شهر".

"لم يحدث ذلك".

"فلتشتري واحدة أخرى".

"من أين؟ وكيف سأوصلها إلى شقتي؟ وعلى أي حال، اتفقنا على أنك...".

أصدر أحد تلك الأصوات الفرنسية المعبِّرة كما لو أنه يهز كتفيه لفظيًّا، ثم أنهى المكالمة.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

عندما كان التعب يصيبني من كثرة التجوال، كنت أذهب إلى أحد المقاهي المتواضعة كي أنعم بالدفء. كان من ذلك النوع من الأماكن الذي ينحني فيه شيوخ عجائز فوق مشروباتهم عند طاولة يغطيها سطحٌ من الزنك. انسابت المآسي الصغيرة المزمنة من الزبائن: لم تكن مآسٍ ملحمية، بل ذلك التآكل اليومي الذي يتسبَّب فيه التقدُّم في السن، وعدم امتلاك ما يكفي من المال أبدًا. كانت هناك امرأة ذات نظرٍ ضعيفٍ موجودة هناك على الدوام، تجلس في ركنٍ وهي تحتضن إلى صدرها كلبَها الذي التفَّ كقطعة من الكرواسون تكسوها الفراء. تعلَّمتُ في ذلك المقهى شرب الشاي من دون حليب، إذ كان الحليب يُقدَّم في أبريق من الفولاذ المقاوم للصدأ يكفي كوبًا واحدًا فحسب، في حين كان الماء الساخن مجانيًّا وغير محدودٍ. كان المرحاض الذي يتطلَّب من المرء جلوس القرفصاء بشعًا، لكن مقابل ثمن كوب من الشاي، كنت أجلس وحدي عدة ساعات لوضع خطط الدروس وكتابة الرسائل المفعمة بالحنين إلى الوطن والقراءة. لم أتعرض هناك أبدًا لتلك النظرة الخاطفة: النظرة العاجلة من قمة الرأس إلى أخمص القدمين التي يستوعب بها الفرنسيون كل تفصيلة في هيئة الشخص من حذائه حتى شعره. في المقاهي الراقية في ساحة البيضة، كانت تلك النظرة الخاطفة تقيِّمني وتصنفني وترفضني في الوقت الذي تستغرقه طرفة عين.

مع امتداد شهر أكتوبر، احتلَّ البرد شقتي كقوة خبيثة. كانت الجدران باردة كالثلج، وقرون بأكملها من الشتاء حبيسة داخل الحجر. لتمضية الأمسيات الطويلة، كنت أخلد إلى الفراش بكامل ملابسي، وأقرأ. ضغط البرد على محجري عيني وأصابهما بالألم، وبدت ملاءاتي الرائعة رطبة على الدوام. كنت أخلد إلى النوم داخل كيس النوم خاصتي، وأستيقظ لأجد أنفاسي متكثفة في الهواء كالضباب. وعندما فكرت في الطقس القادم، أدركت أنه سيتعيَّن عليَّ الانتقال

إلى سكن آخر، لكن إلى أين سأذهب؟ فلن يخلي أحدٌ شقة مع قدوم الشتاء. علقت في ذهني صورة غرفة مدام بيسيه ذات التدفئة المركزية. سيكون الأمر أشبه بالعيش داخل قفاز. في كل مرة كنت أنظف فيها أسناني في الحوض حيث أغسل أطباقي -وهي وظيفة مزدوجة أثارت اشمئزازي- كنتُ أواجه امرأة رونيس العارية ونافذتها المفتوحة. كانت الصورة لفصل الصيف، لماذا لم ألحظ ذلك؟

كان هناك زوجان يحملان لقب بيرتي يعيشان في الطابق الأرضي من بنايتي. كلما مررت ببابهما، سمعت صوت ضحكاتهما، وإذا حدث وأن صادفتهما في الردهة، كانا يرحبان بي بابتهاجٍ، صائحين "بونجور!" بابتساماتٍ رائعة، وهما يهرعان إلى الخارج أو يغلقان بابهما في وجهي. أما الشقة الواقعة أسفل مني فلم تكن مأهولة، في انتظار أن يوليها السيد لافال العناية، وكان المستأجر في الطابق الكائن أسفلها يعيش بمفرده، وقد عرفت اسمه أيضًا من صندوق البريد: رينالدي.

ذات مساء بينما كنت أصعد الدرج، كان بابه مفتوحًا، ورينالدي يقف في الداخل. علَّقنا على الطقس العاصف، وسألني من أين أتيت. قال: "أستراليا! هذا بعيدٌ للغاية!"، فأخبرته أن رحلتي من سيدني إلى باريس استغرقت ثماني وعشرين ساعة. لوَّح رينالدي بيده التي بلون لحم العجل، وبدت عليه الصدمة على نحو مُرضٍ. لا بد أنني أردت إبلاغه بأنني معتادة مثل هذا السفر البطولي، لأنني وجدت نفسي أخبره أين وُلدت، وسمعت صوتي الجاد يضيف قائلًا بنبرة المعلمة: "هناك أشخاص من جميع أنحاء العالم في أستراليا".

قال رينالدي: "بلد القمامة"، وبدت نبرته لطيفة، إذ كان يسجل في ذهنه فحسب حقيقة أن أستراليا بمنزلة سلة قمامة للبشر. ابتسم وهو يتحدث، وقال إن علينا تناول شراب معًا في وقتٍ ما، ثم صعدت أنا الدرج.

بعد ذلك، بدا أنني أجد باب رينالدي مفتوحًا كلما مررت به في نهاية اليوم، والهواء الدافئ يتدفق خارجًا منه كدعوة إلى الدخول. تسلل ضوء من أسفل باب غرفة جلوسه، لكن الردهة بدت مظلمة دائمًا. وكان هناك معطفٌ طويلٌ معلقٌ وسط الظلال، كنت أنساه وبعد ذلك، عندما أراه من طرف عيني، أعتقد أن شخصًا ما يقف هناك.

***

بعد أيامٍ، أفسح المطر المجال لسماء حادة الزرقة. كانت الريح تصفر عند نوافذي عندما استيقظت، لكن السماء والشمس صاحتا معلنتين أن هذا يوم من تلك الأيام الرائعة التي يفوز فيها المرء بكل شيء. نزلت الدرج مبتهجة وخطوت إلى الشارع، فصفعتني ريح الميسترال. انسالت الدموع من عيني على وجهي وأنا أسرع عبر الساحات، وخلال الشوارع الضيقة التي تعصف بها الريح. خطر ببالي تمثالٌ صغيرٌ في مشهدٍ للميلاد من القرن الثامن عشر في المتحف المحلي: راعي غنم يترنَّح في عباءة طيَّرتها الرياح، ويده تقبض على قبعته.

في السوق، تخلَّت ساندرين عن مظهر فتاة الروك أند رول، وارتدت معطفًا مبطنًا ووشاحًا غطَّت به فمها، وقبعة صغيرة من الصوف. أخبرتني أن رياح الميسترال سوف تستمر ثلاثة أيام، أو ربما ستة أو تسعة، إذ كان العدد دائمًا من مضاعفات الرقم ثلاثة. كما كانت هناك توقعات بتساقط الثلوج في الأسبوع التالي، خلال عيد جميع القديسين. قلت إنني سأقضي عطلة نهاية الأسبوع في باريس، فكان رأي ساندرين أن باريس مكان قذر. أشارت بإصبعها المكسوَّة بالصوف إلى ذيل حصانها، وقالت: "علقت هناك ذات مرة لمدة شهر

كامل، وكان التلوث سيئًا للغاية، حتى إنني اضطررت إلى غسل شعري كل أسبوع". مكتبة سُر مَن قرأ

اكتفى رينالدي بارتداء معطفٍ واقٍ من المطر فحسب، ووقف متربصًا بالقرب من صناديق البريد عند عودتي. قدمت له التحية، وكنت سأواصل طريقي وأصعد الدرج، لكنه وقف أمامي. تعالت ضحكات مرحة صاخبة خلف باب آل بيرتي، كما لو أن في وسعهما رؤيتي هناك، مثقلة بما اشتريته من السوق، ورينالدي يعترض طريقي.

كانت هناك خزانة في قاعدة العمود الذي يعلو مرتفعًا من الردهة، وكان ذلك هو المكان الذي تُحفَظ فيه صناديق القمامة، ويخرجها آل بيرتي لتُجمَع ليلًا. وضع رينالدي كيسًا بلاستيكيًّا منتفخًا في أحد الصناديق، وأشار إلى الصخور المرتفعة التي تكسو العمود في الأعلى: "يمكن للمرء أن يتخيَّل امرأة دُفنت في العمود هناك وهي لا تزال على قيد الحياة، على سبيل العقاب، أو أُلقي بها من فوق الدرج، وبُني هذا العمود لإخفاء الجثة. كانت الأشياء التي من هذا القبيل تحدث بالفعل، ولا تزال القلة المختارة يستشعرون أصداء ذلك".

ابتسمَ حينها، مظهرًا أسنانًا صغيرة بلون الأوراق القديمة، وقال: "أنت تفهمين علم التنجيم، بالطبع". بتنا الآن على أرضٍ مألوفة، إذ كان علم التنجيم من الموضوعات التي ثارت حولي في أستراليا، ضمن موضوعات أخرى مثل الكريكيت والبوذية واليوجا والعدس. أعلن رينالدي: "أنا من برج الحمل، أما أنت، يا آنسة، فمن برج العذراء بكل تأكيدٍ، النار والأرض: قد يبدو أن هناك القليل من القواسم المشتركة بيننا، لكن هناك الكثير مما يمكن استكشافه".

تقدَّمتُ نحو الدرج، وتنحَّى جانبًا ليسمح لي بالمرور، لكنه تبعني وهو يهذر بالهراء عن القدر: "ذلك الذي يكتنفه الغموض، لكنه مؤكد، قد تعتقدين أنكِ أفلتِ من قدرك، لكنه سيكون في انتظارك". على

بسطة الدرج أمام شقته، قال إنه لم ينسَ أننا اتفقنا على تناول شراب معًا، وأضاف: "مساء الثلاثاء، إذن". كان هذا أسلوب حديثه، بعبارات التوكيد. أجبته قائلة إنه ليس لديَّ وقت فراغ خلال أي أمسية ذلك الأسبوع، ولإحباط أي اقتراح للقاء خلال عطلة نهاية الأسبوع الطويلة، أضفت أنني سوف أسافر خلال عيد جميع القديسين.

قال رينالدي: "جميعنا في رحلة، لكن ما هي الوجهة؟ كما يقول هاملت..."، ثم تحوَّل إلى اللغة الإنجليزية وهو يكمل قائلًا: "تلك هي المسألة".

***

عند عودتي من باريس، وعندما دخل القطار مونبلييه، فكرت في الرحلة التي قطعتها في الاتجاه المعاكس، عندما أنزلني القطار في مدينة من الضوء الفضي، والضباب، والسماء البيضاء المتجمدة: بدا الأمر كما لو أنني وصلت داخل لؤلؤة، في حين بدت مونبلييه أشبه بحجر زفير أزرق لامع وبارد. ما إن فتحت المتاجر أبوابها حتى اشتريت مدفأة كهربائية ذات قضيبين. ستتكلف الكثير لتشغيلها، لكن ماذا يهمني في الأمر؟ ستذهب الفاتورة إلى السيد لافال، وقد بدا ذلك منصفًا بما فيه الكفاية. تلك الليلة، ضبطتُ المدفأة على حرارة منخفضة، ووصلتها بالكهرباء، ونمتُ في هناء ودفء، حتى أيقظتني رائحة بلاستيكية خفيفة قرب الفجر. كان قابس سلك المدفأة ينصهر في المقبس الكهربائي في الحائط. تذكرت بعد أن فات الأوان أن السيد لافال أخبرني بكل فخرٍ أنه تولَّى بنفسه عمل جميع التوصيلات الكهربائية في المبنى.

في صباح أحد الأيام بعد ذلك بقليلٍ، لمست الجدار المكسو بالبلاط في أثناء الاستحمام، وسرت صدمة كهربائية في ذراعي. ذهبت

هـذه المـرة إلى مقهـى للاتصـال بـه، كي أنعـم بالـدفء في أثنـاء انتظـاري. أجـاب السـيد لافـال الهاتـف أخـيرًا، وكان صـوتي مشـوبًا بنـبرة الانتصـار، إذ إن الشـقة غـير آمنـة، وسـيضطر إلى التـصرف! كـررت قائلـة: "الـدش غـير آمـن".

تحـدَّث بصـبرٍ وتـأني رجـلٍ فرنـسي طُلِـب منـه توضيـح أمـر منطقـي لشـخصٍ أجنبـي: "في هـذه الحالـة، يـا آنسـة، لا تسـتحمي".

في طريـق عـودتي إلى المنـزل، مـررتُ بصالـة للشـاي، فنقـر شـخصٌ مـا عـلى النافـذة، ولاحظـت أن إحـدى غدائـر مينـا مربوطـة بجـورب. جلسـتُ إلى طاولتهـا، وبدأنـا نخـبر بعضنـا عـلى الفـور عـن حياتنـا، كـما لـو كنَّـا قـد خططنـا لذلـك. كان والـد مينـا يهوديًّـا مـن هامبـورج، رفـض والـده مغـادرة ألمانيـا، حتـى بعـد ليلـة البلـور، وصمَّـم عـلى أن هتلـر يبـدو تمامًـا مثـل عامـل إسـطبل متبلـد العقـل وظَّفـه والـداه، ولا يمكـن أن يشـكِّل أي تهديـدٍ حقيقـي. لـذا تولَّـت جـدة مينـا ترتيـب أمـر تأشـيرات دخـول بريطانيـا لنفسـها ولأطفالهـا، بينـما اختنـق جـد مينـا في عربـة للمـواشي في طريقـه إلى إحـدى معسـكرات الاعتقـال.

عندمـا علمـت مينـا أن والـدة والـدتي كانـت أرمنيـة، قالـت: "لقـد عانينـا نحـن الاثنـان إذن الإبـادة الجماعيـة في تاريخنـا". لم أقـل إن أجـدادي الأرمـن غـادروا تركيـا قبـل عـام 1915، لأن مـا أدهشـني لم يكـن كلمـة "إبـادة جماعيـة" بـل كلمـة "تاريـخ". لـو أن مينـا سـألت عـن سـبب مغـادرة أسـلاف والـدتي لموطنهـم حتـى انتهـى بهـم المطـاف في آسـيا، لأجبتهـا قائلـة "الأمنيـات والحـظ". عـلى نفـس المنـوال، لم أفكـر في القـوى التـي أخـذت عائلتـي إلى أسـتراليا بوصفهـا متعلقـة بالتاريـخ ولا حتـى السياسـة، بـل كان هـذا مسـار حياتنـا فحسـب. ربمـا كان السـبب وراء ذلـك هـو أن أيًّـا منَّـا لم يمـت في تلـك الاضطرابـات، لكـن السـبب الأرجـح هـو أننـي لم أقـرأ عنهـا في الروايـات، عـلى عكـس الهولوكوسـت

والحرب الأهلية الإسبانية. مثَّلت هذه النقطة البداية التي دفعتني إلى التفكير في السبب الذي يجعل بعض الناس لديهم تاريخ، والبعض الآخر لديهم حياة.

علمت شيئًا آخر في ذلك اليوم، وهو أن مينا أصيبت بكسرٍ في ذراعها في لندن، قبل ذلك بأشهرٍ. كانت تفكر في أخذ إجازة من مدرسة الفنون لمدة عام للعيش مع نيك في فرنسا، وساعدها الحادث على حسم القرار. أتيا بالسيارة في بداية شهر يونيو، وعرجا نحو الجنوب. قالت مينا بالفرنسية: "كان ذلك موسم الفواكه الحمراء". لم تكن تتحدث الفرنسية كثيرًا، لكنها كانت فجأة تتفوَّه بمثل تلك العبارة، "les fruits rouges". "إِقْتَتْنَا على الفراولة والتوت والكرز. كانت ثمار الفراولة ضخمة، إلى درجة أننا تناوبنا قضمها". حياة الأزواج... تسرَّب الشعور بالوحدة داخل كل الشقوق، كما لو أنني ابتلعت حليبًا أسود. كانت عينا مينا صغيرتين مثل اللوز، وبلون اللوز أيضًا. تفحَّصتني بنظرتها، وسألتني بصوتها الناعم المخيف: "لماذا أنت حزينة؟"، لم أكن سأعترف بأنني أشعر بالوحدة، لذا أخبرتها عن شقتي بدلًا من ذلك.

قالت مينا: "مالك شقتك فلاح، والفلاحون جشعون، هذه حقيقة عالمية، لم يكن ماركس يكنُّ لهم الاحترام". قالت إن القانون الفرنسي يتطلَّب توفير التدفئة في العقارات المؤجرة، مما شكَّل اكتشافًا جديدًا بالنسبة إليَّ، بعد أن اعتدت ترتيبات الإيجار الرديئة في بلد القمامة. وعندما سمعت أنني دفعت الإيجار نقدًا، قالت مينا: "ليلي، سوف تتصلين بذلك الوغد قبل نهاية اليوم، وستخبرينه أنه مدانٌ بالتهرب من الضرائب، كمجرد بداية. أخبريه أنه يخالف قوانين متعددة، وأنك تنوين إبلاغ السلطات عنه. قولي "السلطات"، فلا شيء يثير إعجاب الفرنسيين مثل السلطة، تذكري كم كانوا متعاونين رائعين مع النازيين".

أبدى السيد لافال مقاومة في بادئ الأمر، لذلك استعرت صوت مينا الهادئ والمخيف، وقلت: "لقد دُعيت إلى هذا البلد، وأعرف أشخاصًا في مناصب سلطة". اتفقنا بعد فترة أن السيد لافال سيزوِّدني بثلاث أسطوانات من الغاز في الشهر. أوصلها في اليوم التالي، وحملها لاهثًا إلى أعلى الدرج، الواحدة تلو الأخرى. بعد الأسطوانة الثالثة، كان في حاجة إلى الجلوس. صوَّب نظره إلى زجاجة النبيذ على مائدتي، لكنه قبِل كأسًا من الماء. قال: "هذا ليس أمرًا طبيعيًّا"، وكرَّرها عدة مرات. لم يكن من الواضح ما إذا كان يشير إلى المياه أو الصفقة التي عقدناها. على أي حالٍ، لم يعُد مرحًا، وأسفت لذلك. كانت مينا مخطئة: لم يكن السيد لافال وغدًا، بل مجرد محتالٍ قديمٍ تمَّ التغلُّب عليه بذكاء. كان المسؤولون في السلطة سيدهسوننا بسعادة، وعلى الرغم من أن تلك النقطة كانت ذات أهمية إلى حدٍّ ما، لكنها لم تكن كافية.

أحضر لي السيد لافال شيئًا آخر في ذلك اليوم: بساطًا مطاطيًّا. أكد لي أنه لن تكون هناك مشكلة إذا وقفت عليه في أثناء الاستحمام، لذا فعلت ذلك، كما حرصتُ جيدًا على عدم لمس البلاط، وبهذا تجنَّبت التعرُّض للصعق بالكهرباء في فرنسا.

***

خلال الليل، كانت المصابيح الكهربائية المعلقة على سلاسل تضيء شارع مينا ونيك. في ذلك الجزء من القلب التاريخي، أنشأ مهندسو عصر التنوير، الذين يحملون في أذهانهم صورًا رسمية جميلة، قصورًا من الأحجار الشبيهة بالبسكويت، كانت في السابق منازل للأرستقراطيين، وأصبحت الآن بمنزلة مكاتب للمحامين والأطباء المتخصصين، أو شققًا فخمة للأثرياء، لكن أبوابها المطلة على الشارع، والتي يسمح ارتفاعها وعرضها بدخول العربات، بقيت مغلقة. أبلغني

كتيبٌ من مكتب السياحة أنه يمكن العثور خلف تلك الأبواب المهيبة على سلالم وساحات مصنَّفة بوصفها كنوزًا وطنية. وفي بعض الأحيان، كان أحدها ينفتح، مما يسمح بإلقاء نظرة خاطفة على درابزين مزخرف أو شجرة مزروعة في أصيص. أخبرت نفسي باكتئاب أنني لن أصل أبدًا في فرنسا إلى ما هو أكثر من مجرد واجهتها الرائعة.

لم يكن منزل مينا ونيك قصرًا، ولكنه كان مرتفعًا ومتين البنيان، وله سلَّمٌ مرتفعٌ ذو درجات ضيقة. لا بد أن شقتهما، التي تحتل مساحة على السلم بين طابقين، كانت مستغلة في السابق للتخزين أو إيواء الخدم. بدا الباب الأمامي، المثبت على نفس مستوى سطح جدار السلم، كما لو أنه ينفتح على خزانة، لكنه كان ينفتح كاشفًا عن سلسلة من أربع غرف. ساعدت أصداء عالم نارنيا هذه على رفع الشقة في الحال إلى مستوى أعلى من مستوى الحياة اليومية وما هو مألوف، لكنها لم تكلفهم أكثر مما كلَّفتني شقتي. وعندما ناولتني مينا كأسًا من النبيذ في زيارتي الأولى، وجدت نفسي أتجرعُ الحسد أيضًا مع النبيذ. أمعنت النظر إلى كل شيء: البطاقات البريدية ذات الطابع الفني المسنودة فوق رفٍّ، وماكينة الخياطة المحمولة، ومنفضة سجائر جيتان من القصدير الأزرق. بدت منفضة السجائر نظيفة تمامًا، وبينما كنَّا نتحدث، نفضت مينا سيجارتها على حافة مزهرية مليئة بالورود.

عند حلول الظلام وإغلاق المصاريع، ملأت المصابيح الغرف بالرقة والغموض. اصطفت الغرف بحيث يمرُّ الناس من خلالها في خطٍّ مستقيمٍ، مما جعل أي حركة عارضة تبدو كما لو أنها رسمية. وكانت الأسقف منخفضة، مما اضطرَّ نيك إلى أن يحني رأسه عند مروره من أحد الأبواب، أو تحت العارضة التي تمرُّ عبر غرفة المعيشة. كان لديه شعرٌ بني كثيف، من ذلك النوع الذي يوصف بأنه مشعث. تكدَّست كتبه بجوار المقاعد، ومعظمها ذات أغلفة ورقية من القطع الكبير، وأخبرني أنه لا يقرأ إلَّا لكتَّاب فرنسيين في أثناء وجوده في

فرنسا. كنت قد استعرت رواية "غرفة النساء" من المكتبة الأمريكية، وشعرت بالخجل.

كانت هناك مطرقة باب حديدية تزين الباب المطل على الشارع، على شكل يد امرأة ترتدي خاتم زواج. وكان الباب يُبقى مغلقًا، ولم يكن هناك جرسٌ للشقة السرية، لذا كان يتعيَّن على الزوار الوقوف في الشارع والصياح. طلبت مني مينا أن أصفر لحنَ نشيد الأممية في زيارتي القادمة حتى تعرف أنه أنا. لم أكن أعرف اللحن، لذا وقفت هي وأدَّته، وكذلك فعل نيك. ارتدت مينا تنورة قصيرة من الفينيل الأزرق، وقميصًا ضيقًا بنقشة جلد الفهد، بينما لم يبدِّل نيك البدلة المستعملة التي يرتديها للذهاب إلى العمل. وقفا جنبًا إلى جنبٍ، وفردا أكتافهما، وعلا صوتهما بالغناء:

هذا هو النضال الأخير

دعونا نجتمع معًا، وغدًا

ستصير الأممية

هي الجنس البشري!

***

كان عقل مينا يعمل من خلال الاستعارات، ويكتشف الروابط الخفية بين الأشياء. في سوق السلع المستعملة، أشارت إلى سلة مهملات ذات حافة، وقالت: "هذه قبعة صيفية مثالية". انقضَّت على فستان بناتي طويل، أزرق اللون وبه أغصان صفراء، مع كشكشة من الأمام. في المرة التالية التي رأيت فيها الفستان، كانت مينا قد شقَّت الكشكشة، وزادت من حجم فتحة العنق كاشفة عن القميص الأخضر الليموني الذي ترتديه أسفل الفستان. أعلنت قائلة: "هدفي هو تقبيح

الملابس". إذا حدث وأن أخطأتُ وظهرتُ مرتدية المخمل أو شيئًا بنقشة البيزلي، كانت مينا تتظاهر بالتقيؤ. "لقد ولَّت الستينيات! لا يمكن إلَّا لمن يتمتع بجمالك فحسب، ارتداء مثل هذه الملابس الرثة والإفلات بالأمر". أبدت إعجابها بسترة ضخمة تتدلى أكمامها فوق يدي، لكنها قالت إنه سيكون من الأفضل لو كان بها ثقوب.

كان أصحاب النظرات الخاطفة يصابون بالجنون حول مينا، إذ كانت تثير مزيجًا خاصًّا من الرعب والشفقة في صدور الفرنسيين. أرادوا إنقاذها، لكن كيف؟ بدا الأمر كما لو أنهم يشاهدون متسلقَ جبالٍ وهو يخطو عن عمدٍ من فوق قمة أحد جبال الألب: كان الأمر مأساويًّا، لكن لم يكن هناك ما يمكن القيام به. كلما تسبَّب مرأى مينا في إثارة تلك النظرة المشوبة بالحيرة والرعب، كنَّا نصيح: "جول!"، ونلعق إصبعًا ثم نرسم علامة في الهواء.

كنَّا في سوق السلع المستعملة ذات يومٍ، عندما انقضَّ رجال الشرطة. في البداية، اعتقلوا امرأة من الغجر وطفلتيها، وجميعهن يرتدين تنانير طويلة. بعد ذلك، انتقلوا إلى أولئك الذين من شمال إفريقيا، وكما هو معتاد، طلبوا مني أوراقي بينما كنت أغادر المكان، في حين لم يطلبوا ذلك من مينا، التي حدقت بغضبٍ إلى الشرطي الذي أوقفني ودفعت جواز سفرها في وجهه.

قالت مينا إن مونبلييه ليس بها أي صناعات، لذلك انتهى الأمر بالرجال القادمين من شمال إفريقيا إلى العمل في البناء أو الطرق. كان الكثير منهم من الحركيين، الجزائريين الذين خدموا كمساعدين في الجيش الفرنسي في أثناء الكفاح من أجل الاستقلال، وفرُّوا بعد ذلك من الجزائر لتجنُّب الأعمال الانتقامية، لكن فرنسا لم يعُد لها حاجة بهم الآن. وكان برنامج لم الشمل، الذي أُنشئ بعد تأخيرات طويلة، قد أتاح لعائلاتهم الانضمام إليهم أخيرًا، لكن تنفيذه كان بطيئًا.

لقد حصلتُ على ليسانس في اللغة الفرنسية مع مرتبة الشرف، لكن تلك المعلومة كانت من ذلك النوع من الأشياء الذي تعرفه مينا. ذات مرة، عندما كنت أطلُّ على المدينة من ممشى دو بيرو، لفتت انتباهي إلى مجموعة من المباني المنيعة لها نوافذ صغيرة ذات قضبان، وكان ذلك هو السجن حيث يُحتجز السجناء في الحبس الاحتياطي، وكان معروفًا لدى السكان المحليين باسم "القلعة".

أخبرت مينا أن شهادتي تضمنت مقررًا إلزاميًا في التاريخ الفرنسي. "كان اسم المادة هو الحضارة، بدأت الحضارة مع ملك الشمس، وانتهت في مايو عام 1968. لم يرد ذكر حرب الجزائر في المقرر، إذ كان يمكن العثور على كل ما نحتاج إلى معرفته عن الجزائر في أعمال كامو".

توقفنا أمام محل حلويات لتفحص معروضاته. مدَّت مينا يدها، ورفعت غرَّتي إلى الأعلى. عبستْ وهي تنظر إلى انعكاسي في النافذة الزجاجية، وقالت: " لماذا تخافين من إظهار وجهك؟". أضفى الانعكاس المشوَّش في الزجاج على سترتها الخضراء المشعثة مظهرًا من الترف والفخامة.

***

أحيانًا كان نيك ومينا يتظاهران أنهما زوجان فرنسيان، جاستون وكلوتيلد. كان جاستون يعمل مديرًا للبنك الذي تمتلكه عائلته، ويجد أنه من المزعج الاختلاط بأي شخصٍ لا تتضمن ممتلكات عائلته بنكًا. ولم يكن يحول بين جاستون وامتلاك قصر ملحق به مزرعة كروم وقبو للتعذيب سوى موت ثلاثة أشخاص فحسب. أما كلوتيلد، فكانت هواياتها حضور القداس في الكنيسة، والمظاهرات المعارضة لحق الإجهاض. وبعد أن طُردت ابنتهما ماري فرانس من المدرسة الخاصة

التي كانت ملتحقة بها، انضمَّت إلى مجموعة منشقَّة من الانفصاليين في الباسك، بمهاراتها التي صقلتها من خلال تشويه الحيوانات الصغيرة. أوضحت كلوتيلد قائلة: "من المعتاد أن تمرَّ الفتيات الصغيرات بمرحلة إرهابية. أذكر أنني أنا نفسي كنت أخرج في الأماكن العامة من دون ارتداء اللآلئ في ذلك العمر. كما ترين، كنت قد التقيت بجاستون، الذي بدا وسيمًا بشكلٍ لا يُصدَّق في زيه العسكري. وصل حديثًا من المستعمرات، يلفُّه عبق من الدماء الهندوصينية، حتى إنني فقدت عقلي تمامًا".

"لن أنسى أبدًا أول مرة رأيتك فيها، يا عزيزتي، بدوتِ رائعة، تمامًا مثل حصاني".

كنَّا ثلاثتنا نتناول العشاء مرة أسبوعيًّا في مطعم للكريب، أو ندلِّل أنفسنا بتناول الكسكس في مطعم مغربي اسمه "المغرب". عادة ما كانت ديب تنضم إلينا، وديتر أيضًا. كانت عينا ديتر واسعتين، وشعره الكستنائي المجعد اللامع يعلو جبينه المرتفع الصافي، حتى بدا كملاكٍ مندهشٍ. قالت له مينا: "يجب أن يكون مكانك في الركن السفلي الأيسر من إحدى اللوحات، وأنت تعزف العود". أمالت إبريق النبيذ فوق كأسه وصبَّت أكثر من اللازم، محدثة فيضانًا. مسح نيك ما انسكب، قائلًا: "الأمر هكذا على الدوام. عليك رؤية ما يحدث عندما تملأ البانيو للاستحمام".

كثيرًا ما كان يأتي الصبي الأنيق كالراقص الذي كان في حفلة ديتر لحضور العشاء. كان اسمه باسكال، يدرس القانون، ووالداه صديقان لمالكة شقة ديتر. على ما يبدو، يمتلك كلُّ رجل فرنسي سترة بدرجة محافظة من اللون الأصفر أو الأزرق، ودومًا ما كان يرتدي باسكال سترة صفراء شاحبة وجوارب تتماشى معها بنقشة الأرجيل. لم يكن يتحدث تقريبًا، وتساءلت لماذا يكترث بنا على الإطلاق. اعتقدت مينا

أن الإجابة واضحة: "إنه يتجسس، ويبلِّغ قريبة ديتر المثيرة للاشمئزاز عن أصدقائه".

كان ديتر يعيش في برلين الغربية نظرًا إلى إعفاء سكان برلين من الخدمة العسكرية، لكنه نشأ في بامبرج. قالت مينا إنها قضت أسبوعين في بامبرج في أثناء تبادل مدرسي. "كان أقسى شتاء منذ سنوات، ودرجة الحرارة ثلاثون تحت الصفر. اضطررنا إلى تناول الخضراوات المجمَّدة، إذ كانت الخضراوات الطازجة تتحوَّل إلى اللون الأسود بفعل البرد بمجرد إخراجها من السوبر ماركت. أرادت عائلتي المضيفة أن تريني المنطقة، لذلك طلبت زيارة نورمبرج، فابتسموا وقالوا إن القلعة والبلدة القديمة التي تعود إلى القرون الوسطى جميلة. أخبرتهم أنني أريد رؤية المحكمة التي جرت فيها المحاكمات، فبدت عليهم الحيرة: "أي محاكمات؟"".

ضحك ديتر على غضب مينا. وصل ذات مرة حاملًا هدية لها: كانت صورة له ولإخوته. "أعلم أنك ستعتزين بها، يا مينا. انظري، نحن الأربعة نرتدي السراويل البافارية الجلدية القصيرة، في الشارع". كانت مشاكساته لطيفة، إذ كان من هؤلاء الأشخاص النادرين الذين يتمتعون بقدرة كبيرة على التسلية من دون السخرية من الغير. في غرفة طعام الموظفين في المدرسة الثانوية، كان يلكزني مبتهجًا كلما تصرف الفرنسيون بطريقة نمطية فرنسية: يقلِّبون السكر في الزبادي، أو يتذمرون من أن شريحة اللحم التي ينزُّ منها اللون الوردي قد طُهيت أكثر من اللازم.

***

كانت هناك صحيفة موضوعة على طاولة في غرفة الموظفين. قرأتُ إن لويس ألتوسير قتل زوجته، وهي عالمة اجتماع تُدعى هيلين ريتمان.

كما كان هناك مقالٌ عن سفاح يوركشاير، الذي قتل امرأة ثالثة عشرة، طالبة جامعية تُدعى جاكلين هيل. في البداية كان يُطلق عليه قاتل البغايا، واستمرَّت هذه التسمية، على الرغم من أنه قتل جميع أنواع النساء. ذكرت الصحيفة أن الناس يعيشون في رعبٍ الآن في شمال إنجلترا، حيث لا أحد ينعم بالأمان. فهمت أن كلمة "الناس" تعني "النساء"، و"الآن" تعني "منذ مقتل أنثى أخرى لا يمكن الاستغناء عنها"، و"لا أحد" تعني "حتى الطبقة الوسطى".

لم يكن جنوب فرنسا هو شمال إنجلترا، لكن أمسيات نوفمبر كانت مظلمة مثلها تمامًا. في الشوارع الخانقة والمضاءة على نحو سيئ بالقرب من الكاتدرائية، كان من السهل تصديق أن شخصًا ما ينتظر مختفيًا في أحد المداخل. وفي بعض الأحيان يكون هناك أشخاص بالفعل: عشاق من المراهقين، منغمسين في ذواتهم كالتماثيل، أو شخص يشعل سيجارة بعيدًا عن مهب الريح. لم يكن في المبنى الذي أسكن فيه نظامًا أمنيًا، لذلك كان الباب المطل على الشارع يُغلَق، لكن من دون مفتاحٍ. قلت لنفسي إنه في حال ما إذا أقدم رينالدي على قتلي، فسوف يُلقى اللوم على أحد المتسللين، وسيضج آل بيرتي ضحكًا لما آلت إليه الأحداث.

لمحت رينالدي في المتجر المحلي الصغير، حاملًا حقيبة تحت ذراعه، وهو يشتري عبوة من البازلاء المجمدة. كان يبلغ الأربعين من عمره على الأقل، لكن شعره المجعد كان لا يزال كثيفًا وداكنًا: حتى شعره كان يحسن الظن بنفسه. برزت نصف ياقة قميصه خارج سترته، بينما اندسَّ النصف الآخر بالداخل. بدا الأمر من ذلك النوع التفاصيل التي ستظهر في صفحات الصحف عندما يُلقى القبض عليه أخيرًا. ولن يحتوي الفريزر الخاص به إلا على البازلاء، ومجموعة متنوعة من الأعضاء البشرية. كنت أثير الخوف في نفسي أحيانًا على نحوٍ مشوبٍ بالمتعة، وفي أحيان أخرى كنت أشعر بالخوف فحسب.

كان الخوف ينتابني عند الذهاب إلى المرحاض بعد حلول الظلام. ومع وجود الأحجار على كلا الجانبين، بدا الدرج في بنايتي السكنية باردًا على الدوام، كما كان معتمًا أيضًا، حتى في وقت الظهيرة في أكثر الأيام سطوعًا، لكنه كان مضاءً في الليل بوهجٍ أبيض قاسٍ. وكلما انطفأ أحد الأنوار، بدا الظلام الذي يعقب ذلك حالكًا أكثر من السواد. كان هناك مفتاح بمؤقت عند بسطة السلم أمام شقتي، لكن ليس عند قمة الدرج المؤدي إلى دورة المياه بالأعلى. وعندما أنتهي من المرحاض، دومًا ما أجد الضوء قد انطفأ على البسطة أمام شقتي. لم أكن أخشى السقوط وأنا أشق طريقي نزولًا في الظلام، لكن قد يكون أي شخص في الانتظار على السلم بالأسفل، مختبئًا عند منحنى الدرج. اعتدت الوقوف خارج المرحاض، أستمع إلى الصمت، إذ إن الصمت مليء بالاحتمالات، ويمكن أن يحتوي أي شيء. خرج سفاح يوركشاير من وسط الظلام ليطعن جاكلين هيل مرارًا وتكرارًا باستخدام مفك. لا بد أن جسدها صار يشبه لب فاكهة حمراء عقب انتهائه.

أثقلتني مشكلة المرحاض، إلى درجة أنني فكرت في سؤال ديتر عما إذا كان يمكنه أن يؤجر لي غرفة من الباطن، لكن أي غرفة؟ كانت شقته تحوي ثلاث غرف نوم، لكن واحدة منها كانت غرفة مكتب، بينما الأخرى مغلقة. كان كلٌّ من نيك ومينا يحاول التفوق على الآخر في التكهن بما تحويه الغرفة: كمان جيبسون ستراديفاريوس المسروق؟ ذهب فرعوني من وادي الملوك؟ كنت سأقنع بالنوم على أريكة ديتر، لكنني لم أتذكر وجود أريكة، بل تلك الكراسي المذهبة المثيرة للتوتر فحسب. على أي حال، خلال ساعات النهار كنت أشعر بالخجل من إخبار الناس بأنني خائفة، وكنت أوبِّخ نفسي خلال ساعات النهار لهواجسي تلك الشبيهة بهواجس العوانس. لا بد أن دي بوفوار، من خلال استخدامها تعبير " هواجس عوانس" بازدراء على ذلك النحو، كانت تقصد في الواقع شيئًا من قبيل "هواجس عذرية". كانت تستمع

بالجنس، لكنها هي نفسها كانت عانسًا، بعد أن رفضت سارتر حينما تقدَّم إليها طالبًا الزواج. كانت جاكلين هيل أيضًا عانسًا، وكنت آمل، على الرغم من كل شيء، أن تكون قد استمتعت بالكثير من الجنس الجيد خلال حياتها القصيرة.

كثيرًا ما كان فكي يؤلمني في ذلك الشتاء، حتى أدركت بعد فترة أنني أكزُّ على أسناني من الخوف. لماذا لم أشترِ كشافًا لإضاءة الطريق في أثناء نزولي من المرحاض؟ كان في إمكاني أن أسلط ضوءه في عيني أي دخيل. لكنني أقنعت نفسي أن مخاوفي ليس لها أساس، لذا لم يكن هناك ضرورة لتلك التكلفة، ما أجده مثيرًا للتعجب الآن هو أنني قدرت قيمة حياتي بأقل من بضعة فرنكات.

***

تفحَّصت مينا معطفي الواقي من المطر بينما كنت أخلعه في أحد المطاعم. قالت: "لا توجد بطانة، هذا المعطف عديم الجدوى".

اشتراه لي رجلٌ في سيدني خلال الشتاء الماضي. في معطفي الأسود الواقي من المطر، وكنزتي السوداء ذات الرقبة المرتفعة، وسروالي الجينز الأسود الضيق، صرت امرأة جريئة وذكية، ووصلني الدليل على ذلك في صورة الإدراك بأنني أضيع وقتي مع ذلك الرجل.

في المرة التالية التي رأيت فيها مينا، قادتني إلى متجرٍ لبيع الملابس المستعملة في شارع كريه الرائحة. كان هناك رفٌّ يحمل سترات من النوع الذي يرتديه القادمون من شمال إفريقيا. توجَّهت مينا إلى المعاطف الشتوية مباشرة، وقالت: "هذا".

كان معطفًا رجاليًّا ثقيل الوزن، من التويد الأخضر الداكن، بنقشة متعرجة، وله بطانة مصنوعة من الحرير الرمادي الباهت، ممزَّقة عند فتحة إحدى الذراعين، فانزلقت يدي داخل البطانة بدلًا من

الكم. قالت مينا: "الكثير من أصدقائي في لندن لديهم معاطف قديمة ضخمة كهذا، إنها تنتشر حقًّا". تجولتْ في المتجر وهي تقضم ظفرها، وتنتزع الملابس من فوق الأرفف. رفعت أمام جسدها سترة أرجوانية من الموهير، ولوت قسمات وجهها. اشتريت المعطف.

انغمسنا في الصداقة، أنا ومينا، مثل مدمنين ينغمسان في المخدرات. حاوطتنا هذه الصداقة وساندتنا، وسبحنا فيها، وجذبنا بعضنا أكثر نحو الأعماق. كنَّا نلجأ إلى الترجمات السخيفة، ونقول: "شارع البريد القديم" بدلًا من"Rue de l'Ancien Courrier" ، و"مطهو مرتين" بدلًا من"biscuit" . وكنَّا نعقد ذراعينا ببعضنا في الشارع، ونحدق بشغفٍ إلى وجوه المارة. كما كنَّا نتهامس ونحن نغطي فمَّينا بيدنا بتكلفٍ، ونشم شعر بعضنا. كان يمكن لأي شيء -رجل يلقي بوشاحه فوق إحدى كتفيه، أو تمثال لعرض الأزياء يرتدي ملابس داخلية من الدانتيل الأزرق- أن يدفعنا إلى الضحك بشدة، إلى درجة أننا كنَّا نضطر إلى التشبث ببعضنا كي لا ننهار ونسقط أرضًا. كنَّا ننحشر على المقعد الدوار داخل كابينة التصوير، ونتجهم أو نتجمَّل أمام الكاميرا. تُرى ما الذي حدث لتلك الأشرطة من الصور؟ كما عثرنا على أجمل امرأة في فرنسا، وكنَّا نتأملها بتقديرٍ من خلال نافذة مكتب السياحة الذي تعمل به. كانت بضة القوام، ويبدو عليها الترف. صفَّفت شعرها على شكل صفوف من الجدائل ثبَّتتها في عقدة، وكانت ترتدي بدلات بألوان الباستيل التي تتوهج على بشرتها. قالت مينا بحسن تقدير: "ألوان رائعة، وملابس فظيعة".

لا بد أن ضحكنا وهراءنا ذاك كان يثير جنون نيك، أرى ذلك الآن، لكن حينها كنت أشعر بالاستياء فحسب عندما كانت تتركني لتعود إليه في المنزل. كان هناك تيارٌ غامضٌ يسري بيني وبين نيك. على سبيل المثال، كنَّا نتنافس بعض الشيء فيما يتعلق بالتحدث باللغة الفرنسية. كانت لكنتي وإلمامي بالقواعد أفضل من نيك، وحصيلتي

من المفردات أوسع من حصيلته. لكن إجازاته في فرنسا منحته سهولة في التعامل مع اللغة، فبات ينزلق فيها مثل قميص ازداد نعومة من فرط ما ارتداه. زودَتني الروايات التي تدور أحداثها في الريف بالكلمات المتعلقة بعالم الطبيعة، للتعبير عن شجرة الزان، وفأر الحقل، وأخدود في الطريق، لكنني وصلت إلى مونبلييه من دون أن أعرف كيف أطلب دفترًا للشيكات. لكن نيك كان يعرف اسم زعيم الحزب الشيوعي، وأن كلمة une clope"" هي كلمة عامية تعني سيجارة.

كان ماهرًا بشكلٍ يُحسَد عليه في نزع فتيل التوتر وتهدئة الناس، ولسلوكه اللطيف تأثير فعلي. كان ثلاثتنا متجهين إلى مكان ما في إحدى الأمسيات، عندما تقدَّم نحونا رجلٌ يرتدي بدلة عمل زرقاء، وهو يمد ذراعيه ليسد علينا الطريق، وبدا من الواضح أنه كان يتناول الشراب. قال نيك بلطفٍ: "كيف الحال؟".

"أوه لا، لا بأس على الإطلاق". تحدث الرجل بتركيز مخمور، وشفتاه الحمراوان تتحركان بعناية وسط غابة لحيته. قال إن والدته تُوفيت، وكان في طريقه إلى المحطة للحاق بالقطار للعودة إلى المنزل.

وضع نيك يده لبرهة على ذراع الرجل. "هذا محزن للغاية، سيكون الأمر صعبًا من دونها".

قال: "شكرًا لك، يا رفيق"، ثم رحل.

ظلَّ تفكيري يعود إلى ذلك الرجل، الذي منحه وجهه المتوتر ولحيته الكثيفة طابع أحد أبطال دوستويفسكي: جليل ومجنون. ذكرت ذلك لنيك، فقال: "أي رجل تقصدين؟".

"الرجل الذي ماتت والدته".

فكر نيك للحظة: "أوه، صحيح".

عـرف عـلى نحـوٍ رائـعٍ مـا يتعـيَّن قولـه تمامًـا، معترفًـا بحـزن شـخصٍ غريـبٍ مـن دون تقديـم عـزاء سـهل، ثـم نـسي أمـره. يجـب عـلى المـرء معرفـة كيفيـة تدبُّـر أمـر مثـل هـذه الأشـياء.

***

لم أكـن مضطـرة إلى التدريـس بعـد ظهـر أيـام الجمعـة، لكـن نيـك كان يتعـين عليـه ذلـك. حينهـا كنـا نسـترخي أنـا ومينـا في شـقتها، ونسـتمع إلى الموسـيقى ونتصفـح مجـلات الموضـة. كانـت صفحاتهـا المعطـرة تتاجـر بالتحـولات: نسـختك المسـتقبلية تبـدو في أحسـن حـال! حاولـت تفـادي مثـل ذلـك النـوع مـن المجـلات خـلال نشـأتي، إذ كانـت باهظـة الثمـن، وتمثِّـل الهزيمـة. كانـت تلتهمهـا الفتيـات الـلاتي تركـن المدرسـة في سـن الخامسـة عـشرة. قلـت لمينـا أجـل، إن الملابـس فاتنـة وغـير معقولـة ومبتكـرة، "لكـن مـن يسـتطيع شراءهـا؟ أسـعارها فلكيـة".

قالـت مينـا: "انظـري إلى الألـوان، وانظـري إلى الأشـكال. لسـت مضطـرة إلى شراء الملابـس، بـل هـي دعـوة إلى التفكـير. تأمـلي نقشـة هـذا القميـص: اللـون البنفسـجي بجـوار الأخـضر. يمكنـك رؤيـة مثـل هـذه الألـوان في لوحـات تينتوريتـو. لقـد أحـبَّ أهـل فينيسـيا وضـع اللـون الأخـضر بجـوار اللـون الـوردي".

بينـما كنـت ممـددة عـلى الأرض بجانبهـا، أتنـاول الشـوكولاتة البلجيكية مـن علبـة، فكـرت، هـذه اللحظـة، الآن، هـذه هـي السـعادة. مهـما طـال عمـري، لـن أسـعد بمثـل هـذا القـدر مـرة أخـرى. ألَمَّ بي وجـعٌ خافـتٌ لذيـذٌ: حنـين إلى الحـاضر. أشـعلت مينـا سـيجارة أخـرى وتنهـدت. "تتزايـد قناعتـي أكـثر وأكـثر، إن الموضـة هـي حقًّـا المجـال الـذي أرغـب في العمـل بـه، لكـن كيـف أخـبر نيـك؟ لقـد رأيـت الجينـز الـذي يرتديـه، إنـه يعتقـد أن الموضـة مجـرد... موضـة".

عندما أفكر في مينا، أتذكر الموسيقى التي استمعنا إليها معًا: لو ريد، وفريق بي52-، ونينا هاجن، وفريق ذا سليتس. شغلنا أغنية "خطوط متوازية" كثيرًا، إلى درجة أن الشريط تمطط. كانت ديبي هاري تمثِّل كل ما هو حديث، وكانت امرأة عصرية مثيرة. أردت أن أكونها، وأردتُ حياتها. أردتُ أن أكون امرأة جريئة وذكية أيضًا، لكن هل يمكن تحقيق ذلك؟

أمضينا وقتنا خلال فترات ما بعد الظهيرة تلك ونحن نتناول الوجبات الخفيفة: شوكولاتة، وكعكات صغيرة، وعبوات من "المطهو مرتين" بالزبدة. شعرت بنفسي أعود إلى الطفولة، إلى السكر والخيال. وعندما كانت تفور طاقتنا من أثر السكر، كنَّا نتقافز على أنغام أغنية "القنابل الإسبانية". كما كانت هناك نسخة غير قانونية من تسجيل لكلاوس نومي وهو يغني في نادٍ ألماني. أعدنا تشغيله مرارًا وتكرارًا، ونحن نتخذ أوضاعًا درامية صارختين: "كسوف كلي!"، بينما يسري صوت نومي الكاونترتينور.

كان قميص مينا المفضَّل ذا لون وردي زاهٍ، تزيِّنه أوراق شجر برتقالية. قالت لي: "أحب هذه الدرجة من اللون الوردي، فهو يتماشى مع كل شيء. ألوان النيون هي البهجة الحديثة". ثم التقطت مقصًّا، قائلة: "عليَّ أن أفعل هذا، يا ليلي، فأنت تدفعينني إلى الجنون". في الحمام، كان الحوض مغبَّرًا بذرات من الماكياج، انضمَّ إليها خطوط متقاطعة من الشعر عندما قصت مينا غرتي. ظهر وجه شخص غريب ينتظر في المرآة. بدت مينا كما لو أن شخصًا ما أشعل ضوءًا داخلها، وقالت: "إياكِ أن تجرئي على إطالتها مرة أخرى أبدًا، هلا وعدتني بذلك؟". ألصقت وجنتها بوجنتي، وخاطبت انعكاسي في المرآة قائلة: "ما أجمل لون بشرتك".

انفتح داخلي صدع من خيبة الأمل. بدا الأمر كما لو أن مينا قالت: "أرأيت؟ ها أنا أجد البشرة الداكنة جذابة، فلتهنئيني!". قلت لها: "هذا ليس مو-ثيرًا للاهتي-مام". كان ذلك هو أشد نقد لاذع لدينا. واصلنا تأمُّل بعضنا في المرآة، حتى أصدر مفتاح نيك صريرًا في الباب.

***

تناولنا أنا وديتر مشروبًا بعد العمل، ثم عدت إلى المنزل لأجد اللمبة التي على بسطة السلم أمام شقتي قد احترقت. لكن الأمر الأشد إلحاحًا هو أنني أردت دخول المرحاض. صعدت مباشرة إلى هناك، وعندما خرجت تركت الباب مفتوحًا والنور مضاء. شرعت أدخل مفتاحي في الباب الأمامي، بمساعدة الإضاءة الخافتة من الأعلى، عندما تحدَّث صوت في ظهري: "مساء الخير، يا جارتي العزيزة، لقد احترقت لمبتك".

كان رينالدي قد تسلَّل خلفي بصمتٍ. نظرت إلى قدميه، وهو يقف هناك وسط الظلال على قمة الدرج، فوجدته يرتدي حذاء رياضيًّا. قال بنبرة لا تنم عن الاعتذار: "أوه، لقد أخفتك، من المعتاد أن يجفل المنتمون إلى برجك بسهولة، كما يُذكَر أيضًا أنهم يعانون نقصًا في المغنيسيوم". مدَّ إليَّ يده بشيء شاحب اللون: مظروف. "رسالة لك، كانت في صندوق بريدي". أخبرني أنه جمعها مع بقية رسائله، ولم يكتشف الخطأ إلا للتوِّ.

ناولني المظروف، فتلامست أصابعنا. تابع قائلًا: "هل تلقيتِ رسالة موجهة إليَّ، بالمناسبة؟ فأنا أنتظر رسالة مهمة، يبدو أنها تأخرت". استند إلى الحائط، وهو يعد نفسه لتبادل الحديث.

قلت إنني لم أرَ رسالته: "لكن من المؤكد أنني سأضعها في صندوق بريدك إذا رأيتها".

لم يعجبه ذلك، قال: "حذار كي لا ينكسر عنقك عند نزول هذه السلالم. إنه من ذلك النوع من الأشياء التي يمكن أن تقع بكل سهولة. سأضطر إلى التزام الحرص في طريقي للنزول. سيكون الأمر مؤسفًا للغاية لو تعرضتُ لحادث، لأنني صعدت إلى هنا لخدمة أحد الجيران. إذا فتحت بابك وأضأت النور، فسيكون ذلك عونًا".

فكرت أنه سيدفعني ويغتصبني بمجرد فتح الباب. رسمت على وجهي تعبيرًا خاويًا، وقلت بمرح: "إلى اللقاء، إذن". بدا من الواضح أنني لن أتزحزح، فانصرف أخيرًا.

بعد خمس دقائق، تبعته إلى الأسفل، وأنا أتحسس طريقي بجوار الجدار. كان باب رينالدي مغلقًا، لكن موسيقاه احتلت السلم، كما كانت تفعل غالبًا هذه الأيام. كان ذوقه يميل إلى ما هو كلاسيكي ومعقد. سيكون ذلك دليلًا آخر على الغرابة في ملفِّه الشخصي: لم يكن القاتل يستمع إلا إلى [أدخل اسم الملحن]. شعرت بالثقة أن حكايته هذه عن الخطأ بشأن رسالتي مجرد كذبة. سمح رينالدي لنفسه بالعبث في بريدي كي يوصلها شخصيًّا، آملًا أن يتلقى دعوة بالدخول.

في المتجر الصغير، اشتريت قفلًا لصندوق بريدي، بالإضافة إلى لمبة. كانت موسيقى رينالدي لا تزال تصدح خارج شقته بعنفٍ عندما عدت. أعطت الموسيقى الانطباع أنه بأمان في الداخل، لكن كيف يمكنني التأكد؟ قد يكون بانتظاري عند نهاية الدرج المظلم. كل من شاهد فيلم رعب يعرف كيف تسير الأمور: يتضح أن المواجهة التي تبدو خطيرة ليست مؤذية، فتقلل الضحية من حذرها، ثم يضرب القاتل ضربته. صعدت السلم بصورة جانبية، وظهري في مواجهة

الحائط، فاصطدم كتفي بمفتاح المؤقت على بسطة السلم أمام شفتي، واشتعل الضوء.

هل سقطت اللمبة ضحيّة لأسلاك السيد لافال؟ من الممكن أن تكون قد انطفأت، ثم عادت مرة أخرى إلى الحياة. الاحتمال الآخر هو أن رينالدي قد استبدل بها لمبة محترقة في وقتٍ سابقٍ من المساء لإخافتي، ثم أعادها مرة أخرى وأنا خارج المنزل.

رأيته بعدها بعدة أيام في الشارع المؤدي إلى الكاتدرائية. كنّا نسير في اتجاهين مختلفين، على جانبين متقابلين من الشارع، لكنه عبر ليضع نفسه في طريقي. أخبرني أنه استبدل اللمبة المحترقة على بسطة السلم: "في ذلك المساء نفسه، من يدري كم من الوقت كان سيستغرقه مالك البناية؟". بدت ابتسامته لزجة بحب الذات، "طرقتُ بابك لأخبرك، لكنك كنت قد خرجت مرة أخرى".

لم تكن لدى رينالدي لكنة جنوبية، بل كان يتحدث الفرنسية مثل قراء الأخبار، وكانت تلك اللكنة تتوقع الانصياع لها. اضطررت إلى شكره على تفضُّله بتغيير لمبتي، تمامًا كما اضطررت إلى شكره على إحضار رسالتي، "أرجو ألا تجشم نفسك العناء إذا حدث ذلك ثانية"، وأضفت قائلة: "يمكنني تغييرها بنفسي في المرة القادمة".

تسبَّب ذلك العرض البسيط للاستقلالية في إثارة أعصابه، فقال: "لست مضطرًّا إلى توفير الإضاءة على الدرج. كنت أنتوي خصم ثمن اللمبة من قيمة إيجاري، لكن بما أنها بسطة السلم التي أمام شقتك، فسيكون من الأفضل لو سددت لي ثمنها، وسويت الأمر مع السيد لافال بنفسك".

حاولت أن أدفع له على الفور، لكنه ادَّعى أنه لا يتذكر ثمن اللمبة. أكد لي بلزاجة مرة أخرى: "لا أريد أن أسرقك، عندما أتحقق من السعر، سأخبرك بذلك. نحن جيران، أليس كذلك؟ يمكنني أن

أطرق بابك في أي وقت". ترك الفكرة معلقة، بينما هو يبتسم طوال الوقت، مظهرًا أسنانه الصغيرة، فتمنيت أن يسقط رأسه.

***

دعتني ديب إلى تناول الغداء، وأعدَّت عجة بالجبن، وقلبتها في المقلاة كخبيرة. كان جون لينون قد قُتِل، وشربنا الكثير من النبيذ لنسري عن أنفسنا. قالت لي ديب إن آل بيسيه لطفاء للغاية، إذ كان السيد بيسيه يوصل خطاباتها إلى مكتب البريد الرئيسي حتى تصل إلى إنجلترا في وقتٍ أسرع. كانت ديب تراسل خطيبها، أنجوس، ثلاث مرات أسبوعيًّا، ولا تطيق صبرًا حتى تتمكَّن من رؤيته في عيد الميلاد. بدا وجود خطيب لها مثيرًا للدهشة تمامًا مثل الدراجة البخارية. لم يكن أيٌّ من أصدقائي في سيدني مخطوبين، ونظرت إليهم بهواجس عنوسية اندثرت منذ عام 1962 تقريبًا. قالت ديب إنها عقب انتهائها من دراستها الجامعية، ستتزوج من أنجوس، الذي كان مسؤولًا بالفعل عن الإدارة المالية في عمله. خططا لإنجاب ثلاثة أطفال، واقتناء مهر. أحسست بالجمود وباتت عيناي خاويتين من التعبير، مثل الغزال المعلق فوق الحائط. أردت بشدة أن أصرخ محذرة: "هذا ليس طبيعيًّا"، لكن هذا كان خطأ، إذ إن ما تريده ديب كان طبيعيًّا للغاية. لو لم يكن النبيذ قد أثر فيَّ، لرأيت أن التحذير الصحيح هو: "هذا ليس مو-ثيرًا للاهتي-مام".

في الفناء الأمامي لآل بيسيه، اصطفَّت ثلاث أشجار بحذاء جدار، كما لو أنها تنتظر إطلاق النار عليها. تعافت الأشجار بسرعة من صخب الخريف، ووقفت متيقظة بالفعل بفروعها العارية. مرَّ السيد بيسيه بجوارها بسيارته بينما أنا في طريقي للانصراف، فعرض أن يوصلني في طريقه. طرح عليَّ الأسئلة وهو يقود السيارة: هل من

المتصور أن تحصل المرأة الأسترالية على حق التصويت في يوم من الأيام؟ وكم تبلغ النسبة التي يفوق بها عدد سكان أستراليا الأصليين باقي السكان هناك؟ وبالنسبة إلى أشجار الأوكاليبتس التي تظهر كثيرًا في الأفلام الوثائقية التي تدور حول السفر، فمتى تم استيرادها إلى أستراليا من جنوب فرنسا؟

ارتجلتُ إجابات تسمح للسيد بيسيه بالحفاظ على رؤيته المخبولة لأستراليا، إذ لم يبد لي أنه من ذلك النوع من الناس الذي سيتقبَّل أن يصحِّح له أحدٌ آراءه. أخبرني أنه يعمل في الإدارة في مقر الشرطة، وكان أيضًا خبيرًا في الخطوط، مما كان مفيدًا للغاية في مجال عمله. "إن منحنى الخط في حرف L يدل على أكثر مما يمكنك تخيله. أبحث عن الاقتصاد والحزم في الرسائل الواردة من الأشخاص المتقدمين للعمل. وهناك نوع من الميل نحو الأسفل في الخطوط يمثِّل تحذيرًا، سيكون تجاهله ضربًا من ضروب الجنون".

"وماذا عن الرسائل المكتوبة على الآلة الكاتبة؟".

قال السيد بيسيه إن الكتابة على الآلة الكاتبة كانت للمجانين والمجرمين، "لن يفكر أي مواطن محترم في مثل هذا الشيء".

تساءلت عمَّا كشفته مظاريف ديب عنها، وسألته "هل تعرف كيف تفسر خطوط اليد الأجنبية؟".

أجاب السيد بيسيه أنه من سوء حظ المرء الشديد أن يتلقَّى تعليمه خارج فرنسا، لكنه أضاف بنبرة أبوية أنه لا يزال هناك قدرٌ كبيرٌ من الأمل بالنسبة إلى البلدان الناشئة مثل أستراليا، إذ يمكن دراسة مصير الحضارات الأقدم، واتخاذ الاحتياطات اللازمة لتفادي النتائج غير المرغوب فيها. لكن هنا، انتهى كل شيء. إذا فاز الاشتراكيون في الانتخابات في مايو المقبل... لإبعاد ذهنه عن تلك الكارثة، طرحت

عليه المزيد من الأسئلة حول دراسة الخط. بدت عيناه كعيني كلب، ولهما لون بني ناعم.

***

عرضت عليَّ مينا صورًا للتركيب الفني الذي كانت تعمل عليه عندما كسرت ذراعها، والذي أطلقت عليه اسم "الأحمر الدائم" (استوحت الاسم من عنوان كتاب جون بيرجر). صنعت نسخًا طبق الأصل من اللوحات التي حلَّلها بيرجر، ثم خربشت فوقها باللون الأحمر. ظهر الحكام في لوحات هالز وأيديهم تقطر بالدماء، ولطَّخت الدماء ياقاتهم البيضاء كالثلج، وسالت من أعينهم وأفواههم. كما ظهرت كريستينا في لوحة وايث ببقعة حمراء داكنة على مؤخرة تنورتها، وأمسكت السيدة أندروز في لوحة جينزبرة بطفل أحمر مسلوخ على حجرها، وأحاط فمها اللون الأحمر الدموي، لأنها قضمت رأسه. بالنظر من كثب، ميَّزت وجود خطوط حمراء على هيئة أجساد على أرض آل أندروز، مثل تلك التي ترسمها الشرطة بالطباشير حول الجثث. قالت مينا وهي تدفع الصور جانبًا فوق الطاولة: "رسم جينزبرة مسرح جريمة، إذ انتزع القانون الأراضي المشاع وخصَّصها للأثرياء، واضطر الفقراء الذين كانوا يعملون على فلاحتها إلى البحث عن عملٍ في المصانع، أو التضور جوعًا". جمعت الصور ورتبتها كبطاقات لعب كبيرة الحجم، ثم نحتها جانبًا.

حينها، أخبرتني أن والدتها مؤرخة فنية، ألَّفت كتابًا رائدًا عن شارلوت بيريانـد، فاعترفت بأنني لم أسمع من قبل عن بيريانـد.

"إنها مهندسة معمارية ومصمِّمة، تقدمت للعمل في مكتب لو كوربوزييه، وقال لها: "نحن لا نطرز الوسائد هنا"".

ذكرت مينا أيضًا أن والدتها خجولة للغاية. "يمكنها الاتصال بي لتقول "أنا والدتك"، ثم تنهي المكالمة".

"أود قراءة كتابها".

قالت مينا: "أوه، لم أكلف نفسي عناء جلبه معي".

عندما كنَّا أنا ومينا نتجوَّل في المدينة خلال عطلات نهاية الأسبوع، كان نيك يبقى في المنزل، وقالت مينا إنه يعمل. افترضت أنه يخطط للدروس، أو يقرأ استعدادًا لسنته الدراسية الأخيرة، فأخبرتني مينا أنه يكتب رواية، ثم أضافت بنبرة تحذير أنه لا يريد أن يطرح عليه الناس الكثير من الأسئلة بخصوص ذلك الموضوع.

ذكرت ذات مرة أن هناك أيامًا لا تنهض فيها من الفراش، مما بدا لي كسلًا صادمًا. كما ذكرت أيضًا مشروعًا يتطلَّب التقاط صور لتماثيل عرض الأزياء، على الرغم من أنها نادرًا ما كانت تحمل الكاميرا عندما نخرج. سألتها الآن عمَّا إذا كانت تعمل على مشروعها حينما يكون نيك منشغلًا بالتدريس.

"أفضِّل العمل خلال الليل، كما أحب الاستماع إلى الموسيقى في أثناء بذلك، لكن نيك يضطر إلى الاستيقاظ مبكرًا كي يتمكَّن من الكتابة. على أي حال، لقد رأيت شقتنا؛ أين يمكنني العمل؟". مصَّت مينا صليبها، ثم أخرجته من فمها، وقالت: "تبدين مثل والدتي، التي دومًا ما تحثُّني على العمل بتلك الطريقة النسوية. لا أريد أن أصير أمًّا أبدًا، أترغبين أنت في ذلك؟ من السهل جدًّا التنبؤ بتصرفات والدتي. أسرتها كاثوليك، من ذلك النوع المتكبر للغاية، وجميعهم من المؤيدين للنازية، حتى أولئك الذين تعود أصولهم إلى بوميرانيا، لذا فقد تزوجت يهوديًّا بالطبع".

طوال هذه المحادثة، انشغلتُ حقًّا بالتفكير في نيك، نيك الذي يعكف على كتابة رواية. لقد قرأت مئات الروايات، ولم يخطر ببالي

مطلقًا أن أكتب واحدة. كان الكثير من الكتّاب ميتين أو كبارًا في السن أو بعيدين جدًّا، إلى درجة أنهم بدوا أسطوريين مثل وجود خطيب لإحداهن. بدا الأمر كما لو أن مينا أحدثت ثقبًا في جدار، بينما جلس نيك على الجانب الآخر، وإحدى يديه في شعره، وهو يخربش في دفتر ملاحظات على ضوء مصباح. وكي يستمد الإلهام، كان يلقي نظرة على أكوام الكتب بجواره، حيث جميع الرجال المهمين من العصر الحديث: بروست، وكامو، وروب جرييه. لمعت تلك الصورة في ذهني مرارًا وتكرارًا. لم أشعر بالفضول بشأن ما يكتبه نيك، بل كان الفعل نفسه هو ما أذهلني، وهو يزرع رايته بلا مبالاة في قلب المدينة التاريخي.

عزمت هناك في التوِّ واللحظة على أن أكتب رواية يومًا ما. أنهت دي بوفوار روايتها الأولى، "المدعوة"، بجريمة قتل، وسأفعل الشيء نفسه. سأكتب روايتي بصيغة المتكلم، عن امرأة تعيش في مدينة بها قاتل متسلسل طليق. ستكون من ذلك النوع من النساء الذي يحب قتله -شابة، أجنبية- وستكون هناك تلميحات بأنها ستلفت انتباهه. سيتصاعد التشويق، لكن القراء سيشعرون بالثقة حيال نقطة أساسية واحدة: من غير المنطقي موت الراوي الذي يقص الحكاية بصيغة المتكلم؛ لا يمكن حدوث ذلك، بكل بساطة. لكن هؤلاء القراء نسوا أن الحقيقة في الروايات ما هي إلا محض خيال، وسأفضح ذلك من خلال قتل الراوي في الصفحة الأخيرة. قفز كل هذا إلى ذهني بوثبة واثقة وقوية، وشعرت بالانتشاء وأنا على يقين من أن هذا سيتحقق، لكن روايتي قنعت بالانتظار مؤقتًا، إذ يجب أن يمر الزمن أولًا، عدة سنوات.

***

اجتمعنا جميعًا لتناول العشاء في مطعم "المغرب" قبل عطلة عيد الميلاد. بعد ذلك، سرتُ عائدة إلى المنزل مع مينا ونيك. كان الهواء مثلجًا، وتعالى وقع خطواتنا في الشوارع المهجورة. كانت مونبلييه بلدة إقليمية صغيرة، تخلد إلى النوم مبكرًا. في الشتاء ليلًا، بعيدًا عن ضجيج دور السينما والمقاهي في ساحة البيضة، لم يكن هناك أحدٌ في الجوار.

قالت مينا بينما نحن نسير في طريقنا: "هل لاحظت أن ديتر لا يترك أكثر من فرنك كإكرامية أبدًا؟ بل أقل في بعض الأحيان. كيف يمكن لألماني أن يعامل المهاجرين الفقراء بهذه الطريقة؟".

لم نكن نذهب إلى مطعم "المغرب" كثيرًا، مما كان ملائمًا بالنسبة إليَّ لأنه باهظ التكلفة. كما كانت تصرفات مينا هناك تدفعني إلى الشعور بالإحراج، إذ أخذت تتعامل بألفة متكلفة مع النُّدل المغاربة، وتمنحهم إكراميات باذخة، وتطرح عليهم أسئلة تشارف حد التطفل. كان في وسع أي شخص رؤية أن النُّدل يهرعون منشغلين خلال تلك الأمسيات المزدحمة أيام الجمعة، لكن مينا كانت تبقيهم عند طاولتنا وهي تسألهم عن حياتهم. كان هناك نادل شاب قلق في تلك الليلة، اسمه جمال، ظلَّ ينظر وراءه بينما مينا تحاول مجاملته بلغتها الفرنسية المتعثرة، حتى استأذن أخيرًا وابتعد.

أزعجتني ملاحظتها بشأن ديتر، لأننا كنَّا نعلم جميعًا أن عائلته متوسطة الحال فحسب. كان والداه يديران محل بقالة، وهو واحد من بين ستة أبناء. خلقت قريبته التي تزوجت رجلًا ثريًّا انطباعًا زائفًا، فقلت بنبرة غاضبة: "ربما ليس لديه الكثير من المال ليترك إكرامية".

ضحك نيك، ورفع يد مينا مقبِّلًا رسغها، وقال: "ليس لديه الكثير من المال، الأمر يا ليلي هو أن مينا ليس لديها أي فكرة عما يعنيه ذلك".

هكـذا علمـت أنهـا ثريـة. كان قيـاس الأمـر أكـثر صعوبـة في تلـك الأيـام، عندمـا كانـت موضـة البانـك الرثـة والملابـس المسـتعملة هـي الرائجـة. كـما لم أكـن أعـرف مينـا حينهـا سـوى خـارج سـياقها، في مـكان أجنبـي مؤقـت. ومـع ذلـك، شـعرت بالحماقـة. كانـت هنـاك الشـوكولاتة البلجيكيـة، والزهـور الموضوعـة دائمًـا بجانـب النافـذة. عـادت إليَّ إحـدى أقـوال والـدتي التـي تنضـح بالمـرارة: "الزهـور النـضرة في المنـزل تعنـي وجـود مـال فائـض". لمـاذا افترضـت أن نيـك ومينـا يتدبـران أمرهـما براتبـه؟ كان يجـب أن تكشـف لي صراعـاتي الشـخصية مـع نهايـة الشـهر طبيعـة ذلـك الخطـأ الفـادح. النسـاء التابعـات والرجـال المعيلـون: المـرأة الجريئـة الذكيـة ارتكنـت في تفكيرهـا إلى سـيناريو تقليـدي.

في وقـتٍ سـابقٍ مـن ذلـك المسـاء، تبادلنـا هدايـا عيـد الميـلاد ونحـن نتنـاول المشروبـات في شـقة مينـا. أهديتهـا شريـط كاسـيت لفريـق "سـبليت أنـز"، وأهديـت نيـك نسـخة مـن روايـة دي بوفـوار، "المدعـوة"، بينـما كانـت هديتـي التـي تلقيتهـا فسـتانًا. قصَّـت مينـا صدر فسـتان أزرق وأخـضر رأيتهـا ترتديـه مـن قبـل، وثبَّتـت مكانـه قميصًـا عـثرت عليـه في سـوق السـلع المسـتعملة، ذا لـون وردي وتزيِّنـه خيـوط معدنيـة لامعـة. قالـت: "أردت أن أعطيـك شـيئًا لي، وليـس لي في نفـس الوقـت، سـيكون عبـارة عـن كلينـا معًـا".

أردت الاعتـذار حينـما كنـت أقـدم لهـما هدايـاي: "هـذا ليـس مو-ثيرًا للاهتي-مـام". كانـت مشـتريات بسـيطة مـن سلسـلة متاجـر فنـاك. لـن أمتلـك مـا يكفـي مـن الجـرأة أبـدًا لارتـداء ذلـك الفسـتان. كان مصمَّـمًا لإثـارة الدهشـة، لا للارتـداء، لكـن مينـا ابتكـرت شـيئًا فريـدًا ذا طابـع فنـي. أعـدت تقييـم مـا تبادلنـاه مـن هدايـا بعـد أن افترقنـا، واستسـلمت لحسـابات تافهـة: لقـد أنفقـت عـلى مينـا ونيـك أكـثر بكثـيرٍ مـما أنفقتـه هـي عـليَّ. مـا يهـم هـو كـون المـرء قـد فكـر فيـك، أو هـذا مـا تربيـت عـلى الإيمـان بـه عـلى أي حـال. لكـن شـغلت ذهنـي أكـثر مـن فكـرة:

كانت هناك فكرة الفن في مقابل السلع التجارية، وفكرة مينا الثرية مقابل ليلي الفقيرة، إلى جانب فكرة مينا البيضاء مقابل ليلي السمراء. كانت الفكرة هي ما يهم، بينما سرت عائدة إلى المنزل تحت النجوم اللامبالية، لكن أي فكرة كانت هي الأهم؟

***

اجتمعنا مرة أخرى في شقة ديتر في السادس من يناير من أجل عيد الغطاس. كانت ديب هناك، وكذلك باسكال أيضًا. كنَّا لا نزال مبتهجين من إجازة عيد الميلاد، فتجرعنا الشمبانيا وتحدثنا في نفس الوقت بأصواتٍ مرتفعة، وتبادلنا الأخبار عن عطلاتنا، بينما كنَّا محاطين بخشب البلوط المصقول كالمرآة. قبع طبق من ثمار اليوسفي على الحافة الرخامية فوق المدفأة، وعبقت الغرفة برائحتها.

كان نيك ومينا آخر من وصل. رأيت بدهشة أن شعرها صار الآن أحمر داكنًا كالكرز: أجمل لون. جلستْ بجواري، وسألتني عن عطلة عيد الميلاد التي قضيتها في باريس. بعد فترة، قلت لها بصوتٍ منخفضٍ: "في العام الماضي، ظننت أن شعرك كان حقًّا بذلك اللون".

لوت قسمات وجهها.

"ما لونه الحقيقي، إذن؟".

"من عساه يتذكر؟".

كان باسكال قد جلب كعكة عيد الغطاس: تلك المعجنات الدائرية الشكل المحشوة بعجينة اللوز، التي تُخبز في تلك المناسبة. فُتحت سدادة زجاجة أخرى، وقُطعت الكعكة. أصدرت شوكة ديب صوت رنين: كانت قطعة الكعك خاصتها تحوي تمثالَ ملك خزفيًّا صغيرًا. تعيَّن عليها ارتداء تاج ذهبي من الورق، والتعهد بشراء كعكة عيد

الغطاس في العام القادم. جعلتني الشمبانيا أشعر بالدوار، والتمع شعر مينا الناعم كالمصباح، وبدت في شعرها درجات عميقة من اللون الأرجواني. لماذا ظننتها عملًا من أعمال الطبيعة؟ كان يجب أن يكون من الواضح أنها عمل فني.

انتهت الحفلة سريعًا بعد ذلك، وتجمعنا على الرصيف لنودع ديب. قالت وهي تركب دراجتها البخارية: "هل سمعتم؟ لقد ألقوا القبض على سفاح يوركشاير"، ثم شرعت في الضحك. كانت ضحكة ديب من ذلك النوع الشبيه بالقرقرة، وبدت كما لو أن أحدهم يرج مشروبًا بداخلها. "لذا يا أصدقائي، ها هو وغد قاتل آخر خلف القضبان".

***

مالت الأمور وتحوَّلت مع العام الجديد، واقتنت مينا معطفًا أكثر دفئًا: معطفًا سميكًا بلون اليوسفي له قلنسوة، بدا صارخًا بجانب شعرها. قال نيك: "وما زالت حملة التقبيح مستمرة". أصدر قماش النايلون الزلق المصنوع منه المعطف هسيسًا خافتًا عند لمسه، وكانت الأفعال البسيطة، مثل وضع نيك لذراعه حول كتفيها، أو وضع مينا ليدها في جيبها، مصحوبة بتلك الهمسات.

كان الأمر سخيفًا، لكنني ظللت أفكر في شعرها: لماذا لم تذكر مينا أبدًا أنها صبغته؟ بدا من المفهوم كونها لم تكشف أنها ثرية، لكن هذا كان شيئًا تافهًا. كانت تتباهى بمساحيق التجميل عندما تضعها، وجفونها مطلية باللون الأحمر أو الأسود، والكحل ملطخ حول عينيها، ومثلث مضحك من أحمر الخدود على وجنتيها، لكن شعرها اللامع بدا طبيعيًا. وبَّخت نفسي بسبب غروري الذي استشعر الإهانة. لقد

تبدَّد ذلك الوهم بأنني أعرف كل شيء عن مينا مرتين الآن. مع ذلك، أحسست بأن شعور الثقة بيننا قد انتهى.

كما لو أنها شعرت بابتعادي، قدمت لي مينا سرًّا، وأقرَّت بأن نيك يواجه صعوبة في كتابة روايته. كان قد خطط لكل شيء، حتى صارت شخصياته على قيد الحياة بالنسبة إليه، كما فكر في كل تطور في مصائرهم المختلفة. والآن عندما يجلس للكتابة، بات الملل الشديد يغمره، إذ إنه يعرف كل ما سيحدث، ولا يستطيع أن يحمل نفسه على تدوين كل ذلك.

قررت مينا أنه سيكون من المفيد أن يدخلا بعض الإثارة في حياتهما، بالسفر بالسيارة خارج المدينة في أيام الأحد. "نحن في حاجة إلى رؤية الأفق المفتوح، وعليك أن تأتي معنا يا ليلي، ستكون مونبلييه مملَّة بشكلٍ لا يُصدَّق من دوني".

لذا توجهنا بالسيارة إلى جسر غار ذات يوم أحد، وفي يوم أحد آخر ذهبنا إلى إيغ مورت. كانت سيارة نيك زرقاء قديمة من طراز سيتروين دي إس اشتراها بعد قراءة أعمال بارت، وأطلق عليها اسم "الإلهة"، مستعيرًا تورية بارت. لم تكن مينا تحمل معها رخصة قيادتها، كما لم يكن لديها رخصة قيادة دولية، لذا تولى نيك القيادة دائمًا. جلستُ في مقدمة السيارة، وعلى ركبتي خارطة للطريق، لأن مينا ادَّعت أنها لا تمتلك أي حسٍّ بالاتجاهات، وقالت إنها كثيرًا ما تضل الطريق في لندن، حيث قضت حياتها بأكملها.

قاد نيك السيارة بسرعة، واندفعت الإلهة على طول الطرق النابليونية، متجاوزة المنافسين بخفة، مندفعة حول الانحناءات شديدة الانحدار. صاحت مينا مهددة إياه من المقعد الخلفي، فسألها نيك: "كلوتيلد، هل نسيت الشجاعة التي واجه بها والدك فرقة الإعدام؟ يا لها من تهمة ملفَّقة بشكلٍ واضحٍ، تلك التي وجَّهها إليه هؤلاء

الديغوليون بعد الحرب. لم تكن سوى محاكمة صورية! كان توجيه موقد اللحام نحو رجال المقاومة البائسين هو ما يحتمه الواجب الوطني على ذلك الرجل العزيز. لم يطلق عليه أحد لقب خائن حينها". ابتسم نيك موجهًا إليَّ نظرة جانبية، والسيجارة عالقة بشفته على غرار بلموندو، وقال من دون داعٍ: "أعشق القيادة". بدا من المستحيل ألَّا أشعر بالانجذاب إليه حينها، إذ كانت سعادته أشبه بمجال مغناطيسي ملأ السيارة التي عبقت بالدخان.

***

كان هناك يوم أحد باردًا وصافيًا، مشرقًا بذلك النوع من الضوء الذي تشعر أن في وسعك أن تسحبه إلى أعماقك إذا رفعت إليه يدك فحسب. ناقشنا الذهاب بالسيارة إلى سيت، حيث دُفن بول فاليري. لم تكن مينا مهتمة به على الإطلاق، وأطلقت عليه لقب بول سيليري، أي كرفس بالإنجليزية. أرادت التوجه إلى التلال بدلًا من ذلك. في البداية، كان الطريق عبارة عن موكب من أشجار الدلب العارية ذات الأشرطة البيضاء المرسومة على جذوعها، وبدت ظلالها المتباعدة على مسافات دقيقة كما لو أنها خطوط علم فوق أسفلت الطريق. اندفعت الإلهة بجوار الأشجار، وصعدت في طريقها إلى الشجيرات وسط المنطقة العشبية النامية بين الأحجار الجيرية في لانغيدوك. وصلنا إلى طريق جانبي، وتركنا السيارة هناك ثم انطلقنا سيرًا على الأقدام، صعودًا على طريق صخري. ربطت سترتي حول خصري وشمَّرت عن أكمامي ونحن نتسلق، خطوة، بخطوة؛ أصبحتُ سيمون دي بوفوار أخيرًا.

ألقت الطيور بنفسها في الهواء، وبدا الريف الفوضوي عامرًا بالحيوية. تناثرت هنا وهناك الأشجار المقزمة التي تدلَّت منها ثمارٌ حمراء، وتساءلنا أنا ونيك عما إذا كانت صالحة للأكل. تخلَّفت مينا

وراءنا، وهي تطلق الآهات إعجابًا بإكليل الجبل والزعتر، فقال نيك بهمسة مسرحية: "لقد أبرز هذا جانبها الشاعري، استعدي للتدخل".

عاد ألتوسير إلى الأخبار مرة أخرى. اعترف على الفور بخنق ريتمان، قائلًا إنه فعل ذلك تحت تأثير الهلاوس. جادل ثلاثة أطباء نفسيين بأنه لا يجب اتهامه بالقتل ولا يجب أن يخضع لمحاكمة علنية. وبما أنه كان لديه تاريخ طويل من المرض العقلي، لذا أرسلته المحكمة إلى مستشفى للأمراض النفسية. اتفقنا أنا ونيك أنه قرار إنساني، وبالطبع كان المستشفى بمنزلة عقاب. لكن في الوقت نفسه، شعر كلانا على نحوٍ غامضٍ أن ألتوسير قد أفلت من العقاب بعد اقتراف جريمة قتل. قال نيك: "يدفعك هذا إلى التساؤل، عمَّا كان سيحدث لو لم يكن مشهورًا".مكتبة سُر مَن قرأ

"أو لو كان قد خنق رجلًا".

كلما فكرت في هيلين ريتمان، صاحبتها في تفكيري امرأة أخرى: شقيقة فيليبي، التي لم يكن لها اسم، ورأيتها تسقط في البئر، في الظلام اللامتناهي، وتنورتها فوق رأسها.

أخبرني نيك أنه انتهى من قراءة "المدعوة": "أعتقد أن النهاية مفتعلة، ولم أقتنع بجريمة القتل على الإطلاق. هل أنت مقتنعة بها؟".

"تتعرض النساء للقتل على الدوام، ماذا عن هيلين ريتمان؟".

"لا يتعرضن للقتل على يد نساء مثل فرانسواز. كل شيء آخر حتى تلك النقطة، علاقات الصداقة، والتوترات، كل ذلك لا بأس به". قبض نيك على فرع متدلٍّ، وتأرجح عبر الطريق. كانت سمرته قد تلاشت، وبدا باطن ذراعه بلون أبيض شاحب، وشعرت بفيضٍ من التعاطف حيال ذلك الشريط العاجز من اللحم. واصل قائلًا: "ها هي المشكلة: تجدين بناء تفصيليًّا لعالم الرواية، ثم تجدين جريمة قتل، لا يمكنك الجمع بين الواقعية والميلودراما، فهذا الأمر غير ناجح".

لحقت بنا مينا وهي تفرك بين كفيها فرعًا من إكليل الجبل، وقالت: "جاستون، أنت ببساطة لا تُقاوم عندما تتعطف وتتنازل لتصقل العقل الأنثوي الضعيف. عن نفسي، لم أشعر أبدًا بالحاجة إلى مطالعة شيء آخر سوى "دليل الأدب للمرأة الكاثوليكية"، إنه كتاب نحيف، مجلد بأناقة بجلد أحد الوثنيين".

لكنني لم أرغب في أخذ الأمور ببساطة. قلت لنيك: "دي بوفوار نفسها قالت إن النهاية فوضوية، لكنها قالت أيضًا إنها شعرت بالاضطرار إلى إنهاء الرواية بجريمة القتل تلك، إذ لم تستطع قول ما تريده بأي طريقة أخرى".

قال نيك: "انظري، إنها مجرد مسألة ذوق، لا أعتقد أن دي بوفوار تداني سارتر جودة، هذا كل ما في الأمر. "الغثيان"، تلك رواية رائعة حقًا".

كانت هناك طبيعة لتلك المحادثات التي أجريتها وأنا أصغر سنًا، تستعصي على الوصف، يمكن أن يُطلق عليها مسمى لامعة أو مرنة، لكن كل ما تتركه في الذاكرة هو آثار مستوية مسطحة فحسب. على النقيض من ذلك، حافظت الصور على أشكالها الواضحة. تبدو صورة مينا في يوم الأحد ذاك واضحة تمامًا أمامي: ترتدي قميص كرة قدم كفستان، نسقته مع سروال ضيق من الدانتيل وحذاء كونفيرس برقبة مرتفعة. قررتُ في ذلك اليوم أن الفوضى والطابع المسرحي في أزيائها نوع من الميلودراما. كانت الميلودراما تسمح للناس بالتعبير عن شيء غير مقبول، وبكلمة "الناس" كنت أعني "النساء". تساءلت عما قد تحاول مينا قوله، كما تساءلت عما دفع دي بوفوار إلى القتل، ومن أو ما الذي أرادت قتله فعلًا: سارتر، أم الروايات الرائعة حقًا، أم اضطرارها الدائم إلى بذل جهد في اختيار أحذيتها؟

تناولنا الطعام على حافة صخرية تكسوها أزهار وردية صغيرة زاحفة. قلت وأنا أكوم المايونيز الدهني على بيضة مسلوقة: "كان هناك رجل في الراديو منذ بضعة أيام، يتحدث عن سنة 1980 بوصفها كارثية على الحياة الفكرية الفرنسية؛ قُتِل بارت في حادث، واعتُقل ألتوسير، وانهارت مدرسة لاكان الفرويدية، لم يذكر أنه لم يكن عامًا رائعًا لريتمان أيضًا".

قالت مينا: "يعتقد الفرنسيون أن المرأة الحائض لا يمكنها صنع المايونيز، كما أنهم ما زالوا يعدمون الناس بالمقصلة، لا تنسي ذلك".

"جميلتي كلوتيلد، هل أخبرتك عن تلك المرة التي اصطحبني فيها عمي المفضَّل، مدير السجون، لمشاهدة عملية إعدام؟ كان عيد ميلادي الثامن، لذلك سمح لي بالضغط على الزر الذي يطلق الشفرة، كانت تجربة رائعة، ويظل هذا أسعد يوم في طفولتي، يفوق حتى عصر ذلك اليوم الذي جلدت فيه الخادمات".

بدت السماء بدرجة زرقة أسترالية صارخة، لا تكترث بنا على الإطلاق. شرع نيك يغني "ذات صباح مخملي". كان نيك يجيد الغناء حقًّا، هل ذكرت ذلك؟ استندت مينا إلى الخلف على مرفقيها، وقالت إن عيد الميلاد نبَّهها إلى أي مدى تفتقد لندن وأصدقاءها اللندنيين. واصلت الحديث عن افتقادها مدرسة الفنون، وافتقادها الخروج لتناول الشراب في سوهو، وافتقادها ذلك العالم برمته. كانت لندن تناديها، وهو ما أصاب قلبي بالاضطراب.

ثم قالت: "جعلني هذا عازمة حقًّا على مواصلة العمل هذا العام. لديَّ مشروع جديد، وأنت بطلته يا ليلي، لأنك أنت من أوحيت لي به، ستكونين الآنسة إكس خاصتي".

كانت "الآنسة إكس" قصة في واحدة من تلك الصحف الأسبوعية المصورة للفتيات التي ازدهرت في الخمسينيات من القرن الماضي:

"بلورة الفتيات" ربما، أو "الصديق المدرسي". كانت إحدى الجارات في أستراليا تمتلك كل الأعداد القديمة، وقرأتها خلال نشأتي. كان "الآنسة إكس" هو الاسم الحركي لمغنية ملهى ليلي باريسي تُدعى أفريل كلير، تعمل في صف المقاومة. وصفت مغامراتها لمينا خلال واحدة من فترات خمولنا ما بعد الظهيرة. "كانت جميلة وموهوبة، وترتدي فساتين ضيقة، لم يتمكن ضباط قوات الأمن الخاصة النازية -الذين كانوا جميعًا يرتدون نظارة أحادية العدسة على الدوام- من مقاومة جاذبيتها. تحمَّلت مغازلاتهم، وتناولت ما قدموه من شمبانيا. ظنُّوا أنه لا يوجد منها أي ضرر، لذلك تحدثوا أمامها عن الإستراتيجيات العسكرية وخططهم السرية لأسلحة جديدة".

بعد ذلك، بعد ارتداء معطف واقٍ من المطر فوق فستانها، كانت الآنسة إكس تنقل ما جمعته من معلومات إلى أفراد المقاومة. أحيانًا كانت تأوي طيارًا مقاتلًا إنجليزيًّا أُسقطت طائرته وتساعده في العودة إلى لندن، أو تأتي لنجدة أحد أفراد المقاومة الفرنسية، وتشتت انتباه الحرس الألمان كي يتمكَّن من الهرب. كان الناس يبصقون عليها في الشوارع، اعتقادًا منهم بأنها متعاونة مع النازيين، لكن نظرًا إلى أنها تعرف الحقيقة، فقد تحمَّلت الإهانات بكبرياء. قلتُ لمينا: "أعتقد حقًّا أن الآنسة إكس هي السبب في اهتمامي باللغة الفرنسية في بادئ الأمر".

أجابت قائلة: "آنستك الغالية تلك ما هي سوى جزء من التغطية الفرنسية الضخمة لما وقع هنا في أثناء الاحتلال، أنت تدركين هذا، أليس كذلك يا ليلي؟ عندما لم تكن الآنسات الحقيقيات منشغلات بمضاجعة النازيين، كن يبلغن عن اليهود".

كشفت مينا الآن عما يدور في خلدها بخصوص نسختها الخاصة من الآنسة إكس: كانت ستتخلى عن خلفية الحرب، وكل شيء آخر

تقريبًا، مع الاحتفاظ فقط بفكرة المرأة التي تقود حياة مزدوجة، "لكن ليس ذلك الهراء عن امرأة جميلة باردة منغمسة في السادية والمازوخية، هذا مملٌّ للغاية، ومن الواضح أن رجلًا هو الذي كتب ذلك". كان من المقرر أن تولد الآنسة إكس من جديدٍ في تركيبٍ فني لقصة مصوَّرة اسمها "أودري الجريئة"، وكنت أنا أودري. من المفترض أن أكون امرأة ثرية تشعر بالملل، اعتادت التسلل خارجة من المنزل في عصر بعض الأيام لممارسة ما وصفته مينا بحياة من "الجريمة والمكايد".

بدأ العمل في الأسبوع التالي، وابتكر نيك عناوين لحلقات القصة: "وعود لم تتحقق"، و"سلك مكهرب"، و"نهاية اللعبة". عادة ما كانت مينا ترفضها، وتبتكر عناوينها الخاصة. استلقيتُ على مقعدٍ بذراعين، وبجواري مزهرية ضخمة، بينما أتناول الشوكولاتة بكسلٍ للتعبير عن كوني حبيسة في فخ البورجوازية. بعد ذلك، فتحت باب الشارع المؤدي إلى مبنى مينا جزئيًّا، ونظرت بحذرٍ إلى يساري. قبضت على مقود الإلهة وأنا أعبس أمام الكاميرا، (لا تبتسمي أبدًا: قاعدة مينا التي لا يمكن مخالفتها). أوقفتني ذات مرة في وضعية الخروج من مؤخرة السيارة، وأنا ألوِّح بمسدس. كان المسدس ديكورًا مسرحيًّا قديمًا أرسله صديق من لندن، وظهر كثيرًا في مغامراتي. جثوت على ركبتي لإطلاقه، أو وقفت بصورة جانبية مثل ملائكة تشارلي، وأنا أمسكه بيدي المرفوعتين إلى الأعلى.

تطلَّب الأمر تبديل الأزياء، وأعتقد أن هذا كان عامل الجذب الحقيقي للمشروع بالنسبة إلى مينا. كان لديَّ قميص نوم، وقميص داخلي من الستان، ولآلئ بلاستيكية لمرحلة التصوير الداخلي، ثم سلسلة من الملابس القديمة التي عثرت عليها مينا. تذبذبت الفترة الزمنية: كان هناك فستان رقيق مزين بالزهور يعود إلى الثلاثينيات، وفستان نيولوك تتسع تنورته من عند الخصر. استعنَّا بنيك في مشهدٍ

أو مشهدين. ارتدى بدلته وجلس إلى طاولة خلف زجاجة ويسكي وكأسين، بينما وقفت بإحدى يديَّ على كتفه، وأنا أدخن سيجارًا. ارتديت قبعة في تلك اللقطة، وبدلة ذات تنورة من الصوف. أحببت البدلة، إذ كانت دافئة. بقيت مرتدية معطفي التويد حتى آخر لحظة قبل التقاط اللقطات الخارجية. كنت أصيح: "لقد تجمدت أثداء أودري الجريئة!"، حينما كانت مينا تنشغل بالعبث بعدسة الكاميرا، أو تمص صليبها، أو تلقي عليَّ بالتعليمات لتعديل وضعية وقوفي.

***

الشيء الرائع في هذه الفترة بأكملها هو أن رينالدي لم يكن موجودًا. بعد محادثتنا الأخيرة، تركت لمبة كهربائية في عبوتها خارج بابه، وأرفقت معها رسالة. ثم استعددت لانتقامه، وأنا على يقين من أنه سيشعر بالحاجة إلى معاقبتي لكوني حرمته من ذريعته في اللقاء. اختفت اللمبة، لكن لم يحدث شيء. ذهبت إلى باريس في عيد الميلاد، ثم عدت وبدا أن رينالدي قد اختفى، لم تعُد الموسيقى الصاخبة تتسرب خارج بابه، واشتعل الضوء على السلم بسلاسة.

وصَل السيد لافال أسطوانات الغاز الشهرية الخاصة بي. كان شارعي ضيقًا بحيث لا يسمح بمرور السيارات، لذا كان يوقف سيارته في أقرب مكان ممكن، ثم يحمل الأسطوانات على عربة خشبية، كنت أسمع اهتزازها فوق أحجار الطريق، وكان هذا الصوت أيضًا ينتمي إلى عصر فلو بير.

نشأ طقسٌ صغيرٌ خلال زيارات السيد لافال: بعد صعوده لاهثًا وهو يحمل آخر أسطوانة، كنت أناوله الإيجار، ثم نتناول كأسًا من النبيذ، ويدخن السيد لافال سيجارة. عند حضوره في المرة التالية، ذكرت أنني لم أرَ رينالدي منذ فترة. قال السيد لافال إنه كثيرًا ما

يسافر بسبب عمله، وأحيانًا كان يسافر إلى الخارج: بلجيكا، وإيطاليا، "وحتى إلى أماكن بعيدة مثل إنجلترا". سألت عن نوع العمل الذي يمارسه رينالدي، لكن السيد لافال لم يكن يعلم. بدا الأمر مخيبًا للآمال، إذ إنني تمنيت أن يكون قد انتقل للسكن إلى مكان آخر.

***

في السوق، أخبرت ساندرين عن الثمار الحمراء الصغيرة التي رأيتها وسط الشجيرات في المنطقة العشبية، وقالت إنها ثمار شجر القطلب: فراولة شتوية يمكن أكلها نيئة، أو استخدامها في أي وصفة تتطلب التوت. لم تستطع تصديق أنني لم أقطفها، وعبَّرت عن ذلك صراحة، قائلة إنني ضيعت الفرصة.

الشيء الآخر الذي علمته هو أن ساندرين كانت مخطوبة، وعلى وشك الزواج. كان خطيبها، رياض، يعيش في الجزائر حيث يعمل في فندق في وهران. أرتني صورة: كانت له ابتسامة عريضة، وشعر رمادي حليق كالسجادة. تعارفا منذ أربع سنوات، وخُطبا منذ ثمانية عشر شهرًا. ذهبت ساندرين إلى الجزائر في عيد الميلاد، إذ لم يتمكَّن خطيبها من زيارتها لأنه غير مسموح له بدخول فرنسا بينما طلبه للحصول على الإقامة لا يزال معلقًا. "لديَّ موعدٌ في مقر الشرطة الأسبوع المقبل، وهذا هو الموعد الثاني. يقولون إنه يستغلني حتى يتمكَّن من العيش في فرنسا، ويقولون إن العربي لا يمكن أن يسعى إلا وراء أموالي، كما لو أنني أمتلك أي شيء! في الموعد الأول، سألني وغد ما لماذا لا يروق لي رجل فرنسي. قلت له: "هل تعرف ما فعله الفرنسيون بالجزائريات خلال الحرب؟ اغتصبوهن بزجاجات كوكاكولا مكسورة"، لكن عليَّ التزام الحرص في حديثي، وإلا سيجدون سببًا لرفضه".

سألتها لماذا لا يتزوجان في الجزائر لتقوية موقفهما، فأخبرتني أن خطيبها أرمل، وأحد أبنائه معاد للعلاقة، في حين لا تريد هي أي تعقيدات. عندما كانت ساندرين تنطق بكلمة "خطيبي"، كانت تبدو كتحدٍّ، وليس كهاجسٍ من هواجس العنوسة. خلعت قفازها لتظهر لي خاتمها، الذي بدا ذرة صغيرة لامعة.

في الأيام التي تلت ذلك، تساءلت عمَّا إذا كان يجب أن أتحدث إلى السيد بيسيه بشأن طلب رياض، بهدف طلب مساعدته، لكنني خفت من التسبب في الضرر من خلال تدخلي. زودت ساندرين مقر الشرطة بنسخٍ من مراسلاتهما، وإذا فحصها السيد بيسيه، فمن عساه يدري ما هي الاستنتاجات غير المواتية التي قد يستخلصها من حرف الـ L الذي خطَّه رياض بيده الأجنبية؟

قررت طلب المشورة، وخلال الغداء في غرفة طعام الموظفين بالمدرسة الثانوية، لخَّصت موقف ساندرين. ولم تكن هناك مجازفة في وصول الأخبار إلى السيد بيسيه، لأن السيدة بيسيه لم تكن هناك، إذ كانت تسكن على مسافة قريبة إلى درجة أنها دائمًا ما كانت تعود إلى المنزل لتناول الغداء، لكن غرفة الطعام كانت مزدحمة ذلك اليوم نظرًا إلى كونه يوم ثلاثاء، مما يعني أنهم يقدمون اللحم مع البطاطس المقلية، وهو أفضل ما في الأسبوع. بعد أن ألقيت خطابي الصغير على الجالسين حول الطاولة، أنهيته على نحوٍ ضعيفٍ نوعًا ما، بالسؤال عما إذا كان في إمكان أي شخص توجيه النصح إلى صديقتي حول كيفية تسريع الأمور.

طلبت امرأة تُدرِّس الفرنسية أن يمرِّر لها أحدهم المسطردة. كانت مذهلة الجمال، تشبه كاثرين دونوف، وبدا من الواضح أنها من ذلك النوع من النساء اللاتي لا يطلقن الريح. قالت لي وهي تدهن شريحة لحمها الزرقاء اللون بالمسطردة: "ليس لدينا مشكلة مع

السود، كما تعلمين". كانت نبرتها الفرنسية بنفس نقاء نبرة رينالدي، وهو نقاء فشلتُ في تحقيقة طوال سنوات، "إنهم مسيحيون، ولدينا نفس القيم، لكن العرب مسلمون، وهم لا يندمجون معنا".

علَّق رئيس قسم الفلسفة قائلًا: "علاوة على ذلك، يجب أن يتحمَّل الفرد المسؤولية الكاملة لحياته، من دون طلب العون من الآخرين".

شكرته المرأة التي لا تطلق الريح لتذكيرنا بذلك الدرس الخالد للفلسفة الوجودية، وبدت أسنانها البيضاء المربعة ملائمة لقضم التفاح.

كان لرئيس قسم الفلسفة فم يُغلق بإحكام، كما لو أنه يطبق على سرٍّ. فتحه ليتساءل بصوتٍ مرتفعٍ عمَّا إذا كان من الأخلاقي أن يتصرف المرء بطريقة قد تؤثِّر في توجيه سلوك الآخرين. خلص في النهاية إلى أن "التواضع المعرفي لاستجواب سارتر الذاتي لا يفشل أبدًا في الكشف عن غطرسة الشفقة المزعومة".

واصل الحديث مع المرأة التي لا تطلق الريح، واكتشفا أن كليهما يعشقان سبينوزا، كما اعترفت أنها تحب ميستر إكهرت أيضًا.

سألت مدرسة متخصصة في الكلاسيكيات عن خطط الجميع لعطلة منتصف العام. عن نفسها، كانت تنتوي البقاء في المنزل ومشاهدة ما فاتها من حلقات مسلسل دالاس.

رافقني ديتر في أثناء عودتي إلى غرفة الموظفين بعد الغداء. كانت ملامح ديتر العزيز مليئة بالحماس والفكاهة، قال: "أتعرفين "الغريب"؟".

"بالتأكيد".

قال ديتر: "كانت أول رواية فرنسية قرأناها في المدرسة. درسنا استخدام كامو الثوري لزمن الماضي التام، وارتباط ذلك باغتراب بطل روايته. كما تحدثنا عما يعنيه الأمر عندما قال مورسو إن الشمس دفعته إلى إطلاق النار على العربي. هذا ما درسناه: فلسفة كامو عن العبث، وأصالته الأسلوبية. شاهدنا الفيلم، وكان ماسترواني فائق الوسامة، فوقع الجميع في غرامه في الحال. شعرنا بالحزن لإعدام مورسو، وليس لموت العربي. لم نفكر في ذلك، ولا في سبب وجود الفرنسيين في الجزائر على الإطلاق".

***

أُصبتُ بدور برد، مصحوب بالتهاب الحلق والسعال. التقطت العدوى من ديب، لكنني ألقيت باللوم على مينا. عندما أخبرتها أن ديب مريضة، ردَّت بأن جميع من تعرفهم في إنجلترا مصابون بالإنفلونزا، وقالت ببهجة: "وها نحن هنا بصحة جيدة تشارف حد الوقاحة!"، مضيفة أن ذلك كان من الأقوال المفضَّلة لجدتها الألمانية. شعرتُ بالصدمة، إذ كنتُ أميل في أعماقي إلى الإيمان بالخرافات: يا لها من عجرفة، كما لو أنها تغري الأقدار بذلك، وفي غضون ساعات، جاءت العطسة الأولى.

بينما كنت مريضة، حدث شيء مخيف. استيقظت ذات ليلة لأن شخصًا ما يتنفس بصوتٍ مرتفعٍ شرع يجرجر خطواته تدريجيًّا نحو فراشي. أخذ يقترب، ويتوقف، ثم يستأنف تقدُّمه ببطء، وسيقتلني عندما يصل إلى الفراش. حينها استيقظتُ بالفعل، لكن نظرًا إلى أن مشهد الكابوس كان في غرفة نومي، لم أدرك أنني كنت نائمة. ظللتُ أعتقد أن الشخص موجودٌ في الجوار، جاثم على الأرض في الظلام،

وسينقض عليَّ إذا أضأت المصباح. كان أنفي مسدودًا، وأنفاسي مؤلمة وعالية الصوت، وفي النهاية، فهمت أنني أنا الوحش الذي سمعته.

حينها تعالى صوت المرحاض، وتلا ذلك وقع خطوات سريعة وخفيفة، لم تتوقف عند البسطة أمام شقتي، بل واصلت هبوط الدرج.

في صباح اليوم التالي كان باب المرحاض مغلقًا، رغم أنني أتركه مفتوحًا دائمًا لمنع أي شخص من الاختباء هناك. وقفت أرتجف على الدرج البارد، مصيخة السمع لالتقاط أي صوت خافت، وسرعان ما ألحَّت عليَّ مثانتي، فدفعت الباب وفتحته، ولم يكن هناك أحد.

لم يكن لديَّ دروس في ذلك الصباح، لذلك عدت إلى الفراش لبضع ساعات. توجَّهتُ في وقتٍ لاحقٍ إلى كابينة هاتف، واتصلت بالمدرسة لأبلغهم أنني لن أذهب في ذلك اليوم، ولا اليوم التالي. ظلَّ جو الحلم يحيط بي: شعوري بالرعب، والوحش وهو يزحف مقتربًا. وبدا الأمر واقعيًا بشدة، إلى درجة أنني بعد فترة لم أستطع القول ما إذا كانت الأصوات التي أعقبت ذلك -صوت المرحاض، ووقع الأقدام- جزءًا من الحلم في الواقع.

في الصيدلية، اشتريت شرابًا لعلاج السعال، وأقراص الاستحلاب، وبخاخة لحلقي. كان ضوء ما بعد الظهيرة يبعث على الصداع، والشمس تلتمع تحت طبقة رقيقة من السحب بينما أنا في طريقي إلى المنزل. انعطفتُ إلى شارعي، ورأيت امرأة بيضاء كالشمع تخرج من بنايتي. كانت أنصع بياضًا من شمعة محفوظة في الفريزر، وتناثرت عند عنقها خصلات سوداء من شعرها المعقود، كما لو أنها رفعته على عجلٍ. أبعدت خصلة طيَّرها الهواء أمام فمها، فبدا أن حتى شفتيها غابت عنهما الدماء. الشيء الوحيد الزاهي فيها كان خاتمًا التمع به حجر باللونين الأزرق والأخضر. نظرت إلى وجهي مباشرة،

وابتسمتْ قبل أن تسير متبعدة. كانت ابتسامة تنم عن أنها تعرفت عليَّ، فعاد شعور الرعب الذي غمرني الليلة الماضية سريعًا مرة أخرى.

سقطت في الفراش وغرقت في النوم من دون أحلام لعدة ساعات. وعندما استيقظت، قمت بتسخين الحساء. ظل الكابوس يلازمني بعناصره، وبدت السيدة الشمعية كأنها تنتمي إليه، بالانطباع الذي خلَّفته كما لو أنها قامت من أحد القبور، حتى إن ملابسها المنسدلة الداكنة بلون التربة بدت ملائمة لجثة. ثم تذكرت أن حواف المباني صارت باهتة المعالم عندما خرجت من الصيدلية عصر ذلك اليوم. حينما كنت أسير عائدة إلى المنزل، تداخلت الأشكال في الأفق. خلصت إلى أن تلك المرأة الشمعية، ذلك التجسيد الصامت لفيلم رديء منخفض الميزانية، لم تكن سوى مجرد سرابٍ أكثر تفصيلًا. أما بالنسبة إلى باب دورة المياه، أخبرت نفسي أنني لا بد وأن أكون قد أغلقته الليلة الماضية في غمرة تفكيري الضبابي وأنا مصابة بالمرض.

خرجت إلى بسطة السلم كي أذهب إلى دورة المياه، وسمعت صوت موسيقى. كانت أغنية حب فرنسية هلامية، على سبيل التغيير، لكن لم يكن ثمة شكٌّ في مصدرها: لقد عاد رينالدي.

***

بعد عدة أيام، تحسَّنتُ بما يكفي للخروج والتجول في المدينة مرة أخرى. توقفت لقراءة لوحة في شارعٍ غير مميز بإحدى الضواحي. كانت مثبتة على جدارٍ لا يمكن رؤية شيء خلفه سوى سقفين وقمم أشجار. حددت اللوحة مجمع المباني كموقعٍ لمقر الجستابو في أثناء الاحتلال. تعرَّض أفراد المقاومة للتعذيب داخل تلك الفيلات، وأُعدِم الناجون أو أُرسلوا إلى معسكرات الاعتقال. نهض الماضي من قبره، وترنَّح عقلي كما حدث عندما علمت أن فيليبي كان من قدامى

المحاربين في الحرب الأهلية الإسبانية: صدمة القديم. بدت الأشجار العارية من الأوراق التي تطل من فوق الجدار بلون الذئاب.

كنت قد رأيت لوحة أخرى في مونبلييه، في القلب التاريخي. حددت اللوحة البناية التي عاش فيها جان مولان. وكان جان مولان، الذي قُتِل على يد الجستابو، أشهر مقاوم في فرنسا، وعلى غرار مدرستي الثانوية، أُطلق اسمه على الشارع الذي تقع به البناية. كلما رأيت كوكا كولا معروضة للبيع، تذكرت النساء الجزائريات اللاتي تعرضن للتعذيب لمقاومتهن الاستعمار، وأملت أن تكون هناك لوحة في الجزائر لتخليد ذكراهن. تمنيت أن يكنَّ قد فزن بالتاريخ كمكافأة نظير حياتهن. في الحافلات، كنت أنتقي رجلًا فرنسيًّا في منتصف العمر، وأتخيله شابًّا يرتدي الزي العسكري، يلتقط زجاجة ذات منحنيات، ويحطم رقبتها.

***

جاء يوم سبت رائع، بدا مستمدًّا من الربيع. كان الضوء صافيًا إلى درجة حارقة، ولا يشبه في شيء ذلك الضوء النحاسي الملطَّخ في سيدني. حلَّ الدور على نيك ليصاب بالبرد، لكنني أنا ومينا وديب استقللنا الحافلة وتوجهنا إلى الشاطئ. لم يكن لا جراند موت يقع على مسافة بعيدة، وهو منتجع أُنشئ في الستينيات. وجدناه مزدحمًا بمبانٍ بيضاء ضخمة هرمية الشكل، تضم شققًا وفنادق، توهجت تحت الشمس مثل عظام ديناصورات في ديستوبيا مستقبلية. أما بالنسبة إلى الشاطئ، فبعد أستراليا لم يكن لديَّ ما أقوله عن ذلك الشريط من الرمل المخلوط. لكن مينا وديب ألقتا نظرة واحدة على مياه البحر المتوسط الناعمة المتماوجة، وتجرَّدتا من ملابسهما حتى صارتا بملابسهما الداخلية. اختبرت الماء بإصبعي، حتى خرجت الأخريان بعد خمس دقائق وقد بدت عليهما القشعريرة، وكلاهما تشعان بالبهجة.

لم تعد ديب زرقاء، بل أرجوانية اللون، وقالت مينا: "لا أصدق أنني سبحت في البحر في شهر فبراير، سيغضب نيك بشدة". أخذت أسنانها تصطك كما لو أنها تمارس الرقص النقري.

كنَّا قد خططنا لجلسة تصوير لأودري الجريئة. ارتديت بدلة عمل ملطخة ببقع الطلاء، وكان عليَّ الوقوف وإحدى قدمي على قاربٍ مربوطٍ في المرسى، ومنظاري المقرَّب مصوب نحو البحر. كانت مينا تقول دومًا إنها لن تجشم نفسها عناء الاكتراث بالجودة الفنية: كان هذا تأثير البانك عليها، حيث أرادت أن تبدو صورها تلقائية، كتلك التي يلتقطها الهواة. لكن لم يكن هناك ما يمكن عمله في هذا الضوء في الوقت الحالي، لذا اشترينا زجاجة نبيذ، وجلسنا نحتسيها تحت الشمس لتمضية الوقت.

أخبرتنا ديب أن آل بيسيه صمَّما على الإرسال في طلب طبيبهما عندما كانت مريضة. "كتب وصفة طبية بها الكثير من الأدوية، وذهب كلود..." -كان هذا هو ما تنادي به السيد بيسيه الآن- "ذهب لشرائها. إنهما لطيفان حقًّا، أما سولانج،" -أي السيدة بيسيه- "فقد قالت إنه لا معنى للانتظار، وأن لديهما أحد الأدوية التي أحتاج إليها، ثم غابت وعادت وبحوزتها قرص دواء ضخم للغاية. شعرت بالتوعك الشديد، فسألتها عما إذا كانت تمانع في ملء كوب الماء الخاص بي. لذا فعلتْ، وكنت على وشك ابتلاع القرص، فصرختْ قائلة بالفرنسية إنه لبوس. شكرتها، لكنني فكرت أن هذا ليس الوقت الملائم لدروس اللغة الفرنسية، أليس كذلك؟ رأت أنه ليس لديَّ أي فكرة عن الموضوع على الإطلاق، فتعيَّن عليها أن تشرح الأمر، هل يمكنكما تصديق ذلك؟ قلت إنه من المحال أن أعالج التهاب الحلق عن طريق حشر أشياء في مؤخرتي، لكنني قلتها بالفرنسية بالطبع".

***

أتى أصدقائي من باريس إلى الجنوب لقضاء عطلة منتصف الفصل الدراسي، وذهبنا إلى إسبانيا، في حين قضى مينا ونيك الأسبوع في التزلج مع والديها في فال ديزير.

وعندما عدت من إسبانيا، كانت موسيقى رينالدي في الانتظار، تتربَّص بي. كانت أغنية حب متملقة أخرى، كما كان الحال دومًا هذه الأيام. تغيَّر ذوق رينالدي، أو تحرر من الادعاء والتكلُّف، وبينما كنت أصعد الدرج حاملة حقيبتي، أخذ رجل فرنسي يغني: "أطاردها عبر الطرقات".

استؤنفت الدراسة، وفي صباح اليوم الثاني، وجدت فيليبي جالسًا بمفرده إلى الطاولة في غرفة الموظفين التي عبقت برائحة السجائر. لم يسبق وأن تحدث معي من قبل، باستثناء تحيات الصباح التي تتطلَّبها قواعد اللياقة الفرنسية، لكنه رفع إليَّ نظره في ذلك اليوم، وقال: "هل سمعت؟". أخبرني أن انقلابًا وقع في مدريد الليلة الماضية. اقتحم ضابط برتبة مقدم البرلمان، مدعومًا بمائتي ضابط مسلحين بالبنادق. أُطلقت النيران، واقتيد رئيس الوزراء من القاعة، وسرت شائعات بسجنه أو موته. احتجز الضباط أعضاء البرلمان كرهائن، وتحدثت الإذاعة عن الدبابات في شوارع فالنسيا. مات فرانكو منذ أقل من ست سنوات، وها هو كل شيء يتكرر من جديد. كان فيليبي حليق الذقن، لكن أصابعه مسَّدت ذكرى قديمة فوق شفته العليا وهو يتحدث، وبدا كما لو أنه على أحد التلال في إسبانيا، يطلق النار على الجنود عبر النهر. قال: "هذا الحنين إلى الفاشية لن ينتهي أبدًا".

كنت في مدريد قبل ستة أيام، وكانت المدينة هادئة وخاملة، وآثار الشتاء لا تزال بادية على ميادينها الفخمة التي التمعت فوقها أشعة شمس واهنة. بدا سكانها الأنيقون من دون خطط، ومن دون بهجة. قال فيليبي: "يجب أن أعود". بعد تلك النظرة الأولى، لم يلتفت نحوي

ثانيـة. كان يرتـدي قميصًـا قطنيًـا فضفاضًـا أبيـض اللـون، وأسـاور الأكـمام مفتوحـة. تسـاءلت عمـن يتحـدث إليـه حقًّـا، جالسًـا هنـاك غـير مـرئي عـلى الجهـة المقابلـة مـن الطاولـة. الصبـي الـذي يركـض فـارًّا عـبر جبـال البرانـس كي ينجـو بحياتـه؟ الفتـاة الفرنسـية التـي تزوجهـا؟ نهـض فيليبـي واقفًـا عـلى قدميـه، وفـرد ظهـره: بـدا جاهـزًا لتلقـي الأوامـر. لطالمـا كان المـاضي هـو المـكان الـذي ينتمـي إليـه. ولكـن بحلـول ذلـك المسـاء، كان كل شيء قـد انتهـى، وفشـل الانقـلاب، إذ رفـض الملـك مسـاندته واعتقـل قادتـه.

خـلال فـترة الاسـتراحة في اليـوم التـالي، سـاد المـرح غرفـة الموظفـين، واسـتقبلتني ابتسـامات مشاكسـة عندمـا دخلـت. اندفعـت السـيدة بيسـيه نحـوي صائحـة: "سـيتزوج أمـيرك!". رفعـتْ صحيفـة بيدهـا، فرأيـتُ أن أمـير ويلـز خطـب ديـب:كان لهـا نفـس الشـعر الأشـقر القصـير، وترتـدي بلـوزة ذات شريـط معقـود عنـد العنـق مثلهـا، ومـن المحتمـل جـدًّا أنهـا تشـاركها أيضًـا نفـس الهواجـس بخصـوص حـشر أشـياء في مؤخرتهـا.

جلـس فيليبـي مـع رفاقـه المعتادين، صامتًـا وسـط الغرفـة التـي تمـوج بالحركـة، بعـد أن سُـحبت الدعـوة الأخـيرة الموجهـة إليـه للمـوت مـن أجل الجمهوريـة. كان يرتـدي سـترة محبوكـة، وقـد شـمر أكمامـه. أدركـت أننـي كنـت مخطئـة بشـأنه في اليـوم السـابق، لم يكـن قـد دخـل التاريـخ، بـل خـرج مـن لوحـة رأيتهـا في إسـبانيا. أتتنـي الذكـرى مـع قميصـه الناصـع وأسـاور أكمامـه المنتفخـة، إذ كان جويـا قـد ألبـس قميصًـا مثلـه لذلـك الوطنـي شـاحب الوجـه الـذي كان عـلى وشـك التعـرض للإعـدام رميًـا بالرصـاص في لوحـة الثالـث مـن مايـو.

***

ذهبت إلى مقهى مع مجموعة من طلاب السنة النهائية عقب انتهاء اليوم الدراسي، وصارت السماء بنفسجية اللون بحلول الوقت الذي ركبت فيه الحافلة للعودة إلى المنزل. وقفنا وسط الزحام المروري في ساعة الذروة، قبالة صفٍّ من السيارات المصفوفة على الجانب الآخر من الطريق، ورأيت رينالدي يتجه نحوها. ارتدى سترة جلدية بدلًا من معطفه الواقي من المطر، وبينما كنت أراقبه، فتح باب شاحنة صغيرة، من ذلك النوع من الشاحنات الذي يقوده العمال، وليس ما أتوقعه على الإطلاق من رينالدي بحقيبته ولكنته الأنيقة. كان هناك شخص ما في مقعد الراكب، وانتابني شعور بالصدمة عندما تعرَّفتُ على وجهها الشبيه بالأشباح؛ كانت المرأة الشمعية حقيقية بالفعل إذن. لا بد أنها خرجت من شقة رينالدي ذلك اليوم، عندما رأيتُها أول مرة. زحفت الحافلة إلى الأمام ببطء، وحنيت رقبتي في محاولة لاختلاس نظرة أخيرة، لكن حركة المرور في الاتجاه الآخر حجبت الشاحنة.

كنَّا في شهر مارس، واكتست الأشجار بزغبٍ أخضر. ذات ليلة، حلمت برينالدي: حلمًا قويًّا ضبابيًّا، حرَّك فيه رأسه بين ساقي، بينما قبضت أصابعي على شعره المغرور. سرت في جسدي أنا أيضًا تلك القوة النهمة التي دفعت أوراق شجر جديدة في هذا العالم، وانتابت جسدي جرأة ومشاعر عاصفة، وبات على استعداد للغناء.

صار الجو معتدلًا الآن في بعض الأحيان خلال فترات ما بعد الظهيرة، بدرجة تكفي للاستغناء عن ارتداء سترة، وتحركت في الشوارع هيئات أشخاص محددة بوضوح. تبادل الطلبة القبلات بأفواه مفتوحة في فناء المدرسة الرمادي الشبيه بالسجن، وعند تبديل ثيابي، كنت أكتشف آثارًا بيضاء تلطخ بطانة ملابسي الداخلية. لم أمارس الجنس مع أحد منذ ذلك الرجل الذي اشترى لي المعطف الواقي من المطر، إلا مع نفسي. قال رجل المعطف ذات مرة: "أتدرين سبب وجود سيقان

للنساء؟ كي لا يخلفن آثارًا مثل الحلزون في كل مكان"، فضحك جميع الحاضرين، بما في ذلك النساء، بمن فيهم أنا.

وصف كلٌّ من دي بوفوار وسارتر علاقتهما بأنها ضرورية. بعد الاتفاق على ذلك، خاضا العديد من العلاقات التي أضفيا عليها طابعًا وجوديًّا وساحرًا من خلال وصفها بأنها عابرة. قال ديتر بالفرنسية وهو يحادثني ذات صباح: "استمتعت بجنسٍ رائعٍ في عطلة نهاية الأسبوع". عادة ما نتحدث أنا وديتر بالإنجليزية -إذ كان مجتهدًا على الدوام، وكان عازمًا على تحسين لهجته- لكنه كان يعود إلى التحدث بالفرنسية حينما يتكلم عن الجنس. أردت أن أكون ديتر: أردت الاستمتاع بجنسٍ رائعٍ مع رجلٍ عابرٍ. لكن لم يكن هناك مرشحون يصلحون في عالمي الضيق من مساعدي مدرسي اللغة وفي محيط العمل. فكرت لفترة في قبول إحدى الدعوات التي يقدمها إليَّ أولئك القادمون من شمال إفريقيا بصفيرهم في الشارع، لكن هؤلاء الرجال كانوا كبارًا في السن بدرجة تقمع أي مشاعر، إذ كان بعضهم أكبر من رينالدي! رجالٌ متقدمون في السن، طال شعر أنوفهم! لكن ذلك لم يمنعني من قرص حلمتيَّ، وإطلاق العنان لخيالي ليسرح مع الصور: غرفة الفندق القذرة حيث أجثو فوق البيديه للاغتسال، والورود الزرقاء المجعدة على غطاء السرير الذي أفسدنا ترتيبه.

***

جاءت ديب لتناول الشاي. جلسنا في المطبخ، حيث افترش سطح الطاولة فطائر الصنوبر، و"المطهو مرتين" بالشوكولاتة، وتلك المخبوزات المصنوعة من عجينة الشو المعروفة باسم روليجيوز، لأنها تشبه الراهبات الصغيرات البدينات، اللاتي أحببت قضم رؤوسهن. بدلًا من الشاي، قدمتُ الشمبانيا، وأعلنتُ أننا نحتفل: وصلت الرسالة التي

كنت أنتظرها. "فزت بمكان في كلية ليدي مارجريت هول، وسأذهب إلى أوكسفورد في سبتمبر القادم لدراسة الدكتوراه".

قالت ديب: "كم هذا جميل"، وقرعنا كأسينا ببعضهما. تناولتْ جرعة من الشمبانيا، وقالت: "كيف تمكنت من ذلك؟".

" كما تعلمين، بالطريقة المعتادة. تقدمت بطلب، وقدمت المراجع الوظيفية، ونسخًا من شهاداتي الدراسية، وتقدمت بخطة بحث".

"كل ما في الأمر هو، حسنًا... لقد نويت الذهاب إلى مانشستر منذ البداية، فلا يوجد من يضاهيهم فيما يتعلق باللغات الحديثة، فهم يحاولون إثناءك عن التحدث باللغات الأجنبية في أوكسفورد، كما تعلمين، حيث يعتقدون أنه يجب ترك ذلك للأجانب. لكنني أعرف أشخاصًا خاضوا امتحانات قبول جامعة أوكسفورد، ليس أنا شخصيًا، كما قلت، ولكن أصدقاء".

"أنجوس؟".

"لا يكفي الحصول على الدرجات اللازمة، بل يجب أيضًا أن تكوني من ذلك النوع المناسب من الأشخاص. هناك مقابلة شخصية، يقدمون إليك خلالها الكرز، ويلاحظون ما تفعلينه بالبذور، إذ لا يوجد مكان تضعينها فيه. يصاب الناس بالتوتر ويبتلعون البذور، وهكذا تضيع فرصتهم، ولهذا ينجح أفراد الأسرة المالكة في الدخول، فقد تدربوا على التعامل مع الكرز منذ الولادة".

"وما الذي يفترض أن تفعليه بالبذور؟".

"عليك ضم قبضتك على نحوٍ مرتخٍ هكذا، وقرِّبيها من فمك، وابصقي البذور في يدك بتكتمٍ، ثم اطلبي منفضة سجائر".

قضمت رأس واحدة من مخبوزات روليجيوز، وقلت وفمي مليء بعجينة الشو: "لحسن الحظ لا توجد مقابلات شخصية لطلاب الدراسات العليا".

تجهمت ديب وقالت: "ما يهم هو أن اختبارات قبول أوكسفورد فاسدة تمامًا. قال أنجوس إنه قد يكون من الصحيح أن مديره تخرج من كينجز، لكنه يحتاج إلى آلة حاسبة لضرب أي رقم في عشرة".

أعرتها كتابًا يومها، وعندما أعادته، كان يحتوي على قصيدة مكتوبة بخط اليد استخدمتها لحفظ الصفحة التي تقرأها. أنت فتاتي التي تسير طويلًا لمسافات / ويداعب النسيم شعرك في المرتفعات / فتاتي الجميلة، التي تركب الدراجات / فتاتي التي تعجبني دومًا / ليتني كنت بصحبتك هناك! يا لها من براعة عفوية في استخدام أسلوب التمني! ازداد تقديري لأنجوس. كان قد سرق قصيدته من الشاعر جون بيتجيمان، لكن مرَّت سنوات قبل أن أدرك ذلك، وربما لم تكن ديب لتهتم.

***

قلت لمينا: "حدث شيء غريب بالأمس، كانت هناك سدادة قطنية في حوض مرحاضي".

"وماذا في ذلك؟ هل لديك الدورة الشهرية الآن؟".

اعترفت أنها لديَّ بالفعل: "لكنني لم أترك سدادة قطنية هناك".

"إنها مثل البراز: تشدين السيفون، لكن بعضه يعود أحيانًا ويطفو مرة أخرى".

"لم تبدُ كواحدة من تلك التي لديَّ". كان في إمكاني تخيل السدادة بوضوح، وهي منتفخة، وملطخة باللون الوردي وقد علق بها شيء

أسود ضارب إلى الحمرة، كما كان هناك دم أحمر شاحب في الماء أيضًا، بينما كنت في نهاية الدورة الشهرية والدماء تميل إلى اللون الداكن.

بينما كنت أوضح هذا، فكرت في المرأة الشمعية. كدت أخبر مينا عنها، لكنها انفجرت قائلة: "لا أصدق أنني نسيت إظهار أودري الجريئة وهي تحيض. لنلطخ فستان السهرة الذي ترتدينه بالدماء من الخلف، بينما تقوم بترتيب الزهور. سأطلق عليها اسم "الموج الأحمر"". فكرتُ للحظة، وهي تعبث بسوارٍ بلاستيكي عريض على معصمها، وقالت: "في صورة أخرى، يمكن أن تتخلص أودري من سدادة قطنية مستعملة، تلقيها في سلة مهملات في الشارع، مع سلاح ملطَّخ بالدماء، مثل ساطور لتقطيع اللحم، أو شيء من هذا القبيل".

"أو يمكن أن تمسح الساطور على فوطة صحية".

قالت مينا بصرامة: "هذا ليس مو-ثيرًا للاهتي-مام. الموضوع يتعلق بإظهار دم الحيض، الهدف هو كسر المحرمات".

ذهب نيك لتناول العشاء مع بعض المعلمين من مدرسته في ذلك المساء، بينما ركبنا أنا ومينا حافلة متوجهة إلى سينما الجامعة التي كانت قد بدأت في عرض أفلام فنية كلاسيكية مرة في الأسبوع. في أثناء إعادة تنظيم الجامعات التي تلت شهر مايو عام 1968 نُقلت كلية الفنون إلى إحدى الضواحي، في حين ظلَّت كليات القانون والطب في القلب التاريخي، وقالت مينا إن الغرض من ذلك هو نقل الطلاب اليساريين خارج المدينة، حيث يسهل تطويقهم في حالة حدوث أعمال شغبٍ في المستقبل.

ترجَّلنا من الحافلة في الحرم الجامعي الجديد القبيح. كانت هناك لافتة فوق العشب كُتِب عليها: "ممنوع السير على العشب، هذه ليست إنجلترا". أدارت مينا عينيها في محجريها، ثم هزَّت كتفيها، وقالت: "كم أكره ركوب الحافلات، إنها تجعل صدري يرتج". زيَّن

ياقتها دبوسٌ جديدٌ يصوِّر أمير ويلز وديانا الخجولة، وفوق رأسيهما فقاعتان، كُتِب في فقاعتها "لماذا أنا؟"، بينما كُتب في فقاعته "لماذا هي؟".

كان الفيلم هو "دي بروكه"، أي الجسر، وبعد انتهائه، كانت الحافلات قد توقفت عن العمل، فاستغرقنا ساعة للوصول إلى المنزل. بكينا في المشاهد الأخيرة التي صوِّرت تلاميذ ألمان يحملون البنادق بعد تلقي أوامر بالدفاع عن جسرٍ ضد الدبابات الأمريكية. قالت مينا: "كان رائعًا للغاية"، ثم قضمتْ أظافرها، وأكملت الحديث: "لم أتصور أبدًا أنني سوف أبكي على صغار النازيين"، وبدأت في البكاء مرة أخرى.

في الأسبوع التالي، عرضت السينما فيلم الدائرة الحمراء، ولم تكن هناك ترجمة مصاحبة للفيلم الفرنسي، ولم تكن لغة مينا الفرنسية جيدة بما يكفي لمتابعة الحوار، لذلك ذهبت إلى السينما بمفردي. بدا طريق العودة، الذي لم أكد ألحظه في الأسبوع الماضي، بلا نهاية الآن. لم يكن هناك الكثير من حركة المرور، ولم يكن هناك مشاة آخرون. اندفعت رياح خفيفة بطول الطريق، الذي كان متسعًا ويربط المدينة بالريف. كان هناك عدد من المتاجر الصغيرة بالقرب من الحرم الجامعي، لها أسطح مسطحة، وقد أغلقت مصاريعها المعدنية. بعدها بمسافة ظهرت بعض الفيلات المنعزلة وسط الحدائق، تحيطها أسوار عالية يصعب تسلُّقها، وبوابات حديدية مغلقة. ظهر مرة أخرى ذلك الخوف الذي استحوذ عليَّ خلال الشتاء، بعد أن هدأ منذ اعتقال سفاح يوركشاير. تحوَّل تفكيري إلى القتلة الذين يقلدون جرائم غيرهم. بدت رائحة الليل مختلفة عن النهار، أكثر حدة، وتعبق بورق الأشجار، كما لو أن هناك كائنًا وحشيًّا طليقًا. لم تعمل مصابيح الإضاءة المتباعدة في الطريق إلا على تكثيف مساحات الظلام الممتدة بينها، حيث تكتلت الشجيرات في أشكالٍ تنذر بالخطر.

اقتربت من تقاطع طرق به إشارات مرور، حيث تشير لافتات الطريق إلى مناطق سكنية صغيرة: كلارينساك، وبراديس لو ليز. فيما وراء ذلك، امتدَّ الطريق الطويل الذي سيعود بي إلى وسط المدينة، وكان هناك على مبعدة مقهى يعمل حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، رأيت أنواره بالكاد.

ارتفع صوت محرك قادم من خلفي، وأدركت متأخرًا أنه كان يجب عليَّ السير على الجانب الآخر من الطريق، بعيدًا عن حركة المرور القادمة في اتجاهي. كان هناك ما يكفي من الوقت لتخيل سيارة تنزلق على الرصيف أمامي، قبل أن يقفز منها شخص مُقَنَّع. سرت القشعريرة في فروة رأسي، ثم تجاوزتني السيارة، وهي تتحرك بسرعة، لكنها لم تكن سيارة بل شاحنة صغيرة بيضاء.

أخبرتني مينا أنها تتحدث الإيطالية بطلاقة، وقلت عندما التقينا في المرة القادمة: "تعاليْ معي، سيعرضون فيلمًا لروسيليني يوم الأربعاء: سترومبولي".

قالت مينا إنها متأكدة أنها شاهدت الفيلم.

"من المخيف بعض الشيء أن أسير عائدة بمفردي".

"يمكنكِ ركوب السيارة للعودة مع شخص ممن حضروا الفيلم. لا أستطيع أن أعدك بأنني سأجد قبرك الضحل، لكنني سأبحث عنه بكل تأكيدٍ".

استحوذ عليَّ حينها شعور صعد من نفس تلك الهاوية التي تصاعد منها الخوف، لكن هذا الشعور كان مفيدًا بدرجة أكبر: كان الشعور بالغضب: "لماذا لا أذهب لمشاهدة فيلم في المساء؟ لماذا لا يمكنني العودة إلى المنزل بمفردي؟". قالت مينا: "سؤال جيد"، وأخبرتني أن والدتها سافرت إلى ليدز للمشاركة في أول مسيرة أُطلق عليها "استعادة الليل"، في عام 1977. "نُظمت المسيرة لأن الشرطة أعلنت أنه يجب

على النساء التزام المنزل بعد حلول الليل، لتفادي سفاح يوركشاير". شدَّت مطاط سروالها الداخلي، وقالت: "أنت أودري الجريئة، أليس كذلك؟ فلتستعيدي الليل!".

كانت سيمون دي بوفوار تتنزَّه بالقرب من مرسيليا بعد ظهر يوم حار، عندما أقلَّها رجلان بسيارتهما، وبدأت السيارة تتوجه نحو بقعة نائية، ففتحت الباب وهددت بالقفز، وعندئذ تركها الرجلان تترجَّل من السيارة. وقد أكد ذلك اعتقادها أن اليقظة والثقة بالنفس يساعدان في الحفاظ على سلامتها، وكان هذا وهمًا، لكنه كان مفيدًا. بعد سنوات، كتبت: "لقد زوَّدني ذلك بلمسة من الجرأة جعلت الحياة أسهل بكثيرٍ".

واصلت مينا قائلة: "يمكنك الركض دائمًا إذا انتابك الخوف، أليس كذلك؟". غنَّت قائلة: "اركضي، اركضي، اركضي..."، وأدَّت بضع خطوات راقصة. فكرت في ديب، وكيف تمسَّكت بحرية التنقل بدراجتها البخارية، وقررت عدم الاستسلام للخوف. كنت عداءة ماهرة، وكانت مينا على حقٍّ: يمكنني الركض إذا اضطررت إلى ذلك. كما كان في متناول يدي وهم يساعدني على اكتساب لمسة من الجرأة، إذ أعارتني مينا مسدس أودري الجريئة.

***

دخل فصل الربيع، وتعالت ثرثرة أوراق الشجر. كنت أتناول مشروبًا مع مينا، عندما احتاجت إلى الحمام. خرجت تغني: "أريج الربيع: بول برائحة الهليون؟". تحوَّلت أجمل امرأة في فرنسا إلى ارتداء بدلات ذات أكمام قصيرة. كانت هناك بدلة بلون برتقالي محروق، وعندما رأيتها أنا ومينا أردنا الركوع أمام مكتب السياحة، لكن الرصيف كان قذرًا بسبب فضلات الكلاب.

برزت زهور الجارونيا من الأحواض على النوافذ، وتحوَّلت أشعة الشمس من دون سابق إنذارٍ إلى أمطارٍ عاصفة. عثرت على والت ويتمان في المكتبة الأمريكية: "الشعور بالصحة، وزقزقات الطيور ساعة الظهيرة، وغناء روحي حينما أنهض من الفراش لأقابل الشمس". تحرَّرت من الملابس التي تزن أرطالًا، ومشيت مسرعة وأنا أشعر أنه يمكنني الذهاب إلى أي مكان. لعبت الرسالة التي وصلتني من أوكسفورد دورًا في شعوري بالخفَّة. صرت أعرف ما هو في انتظاري الآن: المكتبات، والمنحة الدراسية، ومغامرات الأفكار المثيرة. بدت نسختي المستقبلية رائعة للغاية!

نادرًا ما ظهر رينالدي في الشارع أو في بنايتنا مع حلول فصل الربيع، وهذا دليل، كما أعتقد، على أن اجتماعاتنا بطريق المصادفة خلال الشتاء لم تكن مسألة صدفة بالفعل. وحينما كنَّا نلتقي، كان يحييني وهو يتفادى نظراتي، ثم يسرع مبتعدًا. بدا أنه حوَّل مجال اهتمامه، وبدا حريصًا على تجنُّبي الآن كما كنت حريصة في السابق على الهروب منه. وعندما مررت ببابه في إحدى الأمسيات، كان يغني على أنغام موسيقاه: "إنها فائقة الجمال، وسأجعلها ملكي...".

بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ، رأيته يتناول الغداء خارج أحد المقاهي. في تحدٍّ لتغيُّر الفصول، حافظت رفيقته على مظهرها الذي بدا كما لو أنها قامت حديثًا من قبرها، وأرسلت إليَّ نفس الابتسامة المخيفة، كما لو أن هناك صلة بيننا. ربما كانت تأمل في تأسيس صلة مع أحدهم، لأن وجودها هناك كان مثل عدمه، حيث لم يوليها رينالدي أي اهتمام. أُعدت الطاولة لشخصٍ واحدٍ فقط، وتجاهلها بينما يوجه الطعنات إلى طعامه. التمع شيء ما على طرف شوكته، هل كانت مقلة عين؟ لمحني على الجانب الآخر من الطريق، وأشاح بنظره في الحال، فمضيت في طريقي مسرعة.

تساءلت عما إذا كانت المرأة الشمعية قد تخلّت عن الطعام والشراب، كما يليق بالأموات الأحياء. بدت غريبة الأطوار على أي حال، مما جعلها مثالية لرينالدي. كانت المرأة الشمعية الصامتة الملفوفة في ملابس أشبه بالكفن هي قدره المكتوب له، ومن الرائع أنهما عثرا على بعضهما، ولم أعد في حاجة إلى الخوف من الذهاب إلى دورة المياه بعد حلول الظلام. ظهرت في مخيلتي إجابة للغز غامض، وبدت معقولة للغاية إلى درجة أنني صدقتها على الفور: تأخر رينالدي في أحد الأيام، وبينما كانت المرأة الشمعية تنتظر أمام شقته، احتاجت إلى تغيير سداداتها القطنية، وصعدت إلى الطابق العلوي واستعملت دورة المياه، فلماذا أضن عليها بذلك؟

ذهبت بمفردي إلى السينما كل يوم أربعاء، وكنت أسير بخطى واسعة في طريق العودة. لفترة طويلة بعد وصولي إلى أستراليا، اعتدت التسلل على نحو غريزي كي لا يلحظ أحدٌ وجودي. كان الخدم يتحركون هكذا في منازل أسيادهم. لم نناقش الأمر أبدًا في نطاق عائلتي، لكن ثلاثتنا كنا نختبئ من شيء ما. اكتسب والدي عادة تمرير راحة يده على وجهه. أما والدتي فقد أصيبت بمشكلة في عينيها وباتت ترتدي نظارات داكنة، حتى في الداخل. بدونا كالنعام: لا نرى، ونتمنى ألّا يرانا أحد. ما الذي كنّا نخشاه نحن الثلاثة تحديدًا؟ لا شيء، وكل شيء: كان ذلك الخوف الضمني المبهم الذي ينتاب المهاجر من التعرُّض للعقاب لوجوده في المكان الخطأ.

عندما ذهبت إلى الجامعة، أقسمت ألّا أستسلم لذلك الشعور بعد الآن. أمرت نفسي بالسير بخطى واسعة واثقة، وفعلت الشيء نفسه وأنا عائدة في طريقي من السينما الآن. أدخلت يدي في حقيبتي من وقتٍ إلى آخر، ولففت أصابعي حول مسدس أودري الجريئة. كانت هناك لحظات خطرة خلال تمشياتي تلك، حينما كانت السيارات تتجاوزني، أو تتحول الظلال إلى وحوش. مثل المسدس الكائن في حقيبتي،

كانت الثقة التي توحي بها خطوتي زائفة. لكن كليهما كان يبعث على الاطمئنان، مثلما يمكن أن يكون للكذبة نفس تأثير الحقيقة. لن أتعرض للاغتصاب أو الخطف أو القتل، لا يمكن أن يحدث ذلك، بكل بساطة، ولم تظهر الشاحنة البيضاء مرة أخرى.

***

تلقَّى نيك من معلمة في مدرسته تذكرتين لمسرحية من إخراجها. رفضت مينا الذهاب لأنها لن تتمكَّن من متابعة الحوار، فذهبتُ مكانها. اتضح أن مينا كانت ستصير على ما يرام، لأن الممثلين الأربعة وضعوا شريطًا لاصقًا أحمر اللون على أفواههم. تناوبوا الدور في اللعب بدمية بالحجم الطبيعي ترتدي بدلة، وعلم ثلاثي الألوان يمثِّل فرنسا. رقدوا على خشبة المسرح في بعض الأحيان، بينما شغلوا شريط كاسيت تعالى منه ضجيج عشوائي. خرج رجلٌ عارٍ من الكواليس: كان يمثِّل الموت، أو الاحتمالات الممكنة. غفوت في جزء من المسرحية، وحلمت أني غرير صغير. في حانة صغيرة بعد ذلك، أوضحت المخرجة أن المسرحية كانت دعوة إلى العمل. لم تفز فرنسا بحكومة اشتراكية منذ الثلاثينيات، وإذا خسر اليسار الانتخابات القادمة في مايو، فسوف تُقمع كل الاحتجاجات، وسيتوقف الحراك الاجتماعي، كما سيُدمر أيضًا الفن الطليعي، المتمثِّل في الضجيج العشوائي، وكان ما أيقظني هو صوت مطرقة تحطم جهاز الكاسيت.

تجاوز الوقت منتصف الليل بكثيرٍ، عندما غادرت أنا ونيك الحانة. انتشرت الغيوم في السماء، وسطع القمر من بينها كالشبح. أعلنت للعالم بصوتٍ مرتفعٍ أنني ثملة تمامًا. صحنا: "يحيا الحراك الاجتماعي!"، وأصدرنا أصواتًا عالية وعشوائية. انعطف نيك معي إلى شارعي. بدا كل شيء منطقيًّا حينها في تلك الساعة من الليل، وبدا

مـن المنطقـي بالنسـبة إليـه أن يتبعنـي إلى بنايتـي أيضًـا، وأعتقـد أننـا قررنـا تنـاول كأس أخـيرة مـن النبيـذ معًـا.

أحاطتنـا رائحـة في الردهـة كالضبـاب، وتجهَّـم نيـك قائـلًا: "يـا لهـا مـن رائحـة كريهـة!". لم يكـن آل بـيرتي يضحـكان، بـل صـدرت قعقعـة معدنيـة خافتـة مـن وراء بابهـما، وبـدا الأمـر كـما لـو أنهـما منشـغلان بالطهـي، رغـم تأخـر الوقـت.

صعدنـا بسرعـة هربًـا مـن الرائحـة، لكنهـا التفَّـت حولنـا مثلـما يلتـف الـدرج. كانـت رائحـة عفنـة ممزوجـة بعطـرٍ خافـتٍ، كأصابـع معطـرة تمـر فـوق جثـة. تذكـرت الحلـم الـذي رأيتـه، وفكـرت أن آل بـيرتي يطهيـان غريـرًا. خطـر لي عـلى البسـطة أمـام شـقتي أن شـيئًا مريعًـا ينتظـرني خلـف البـاب، ووقفـت هنـاك ممسـكة بمفتاحـي، حتـى أخـذه نيـك وفتـح البـاب.

كان سريـري فوضويًّـا كـما تركتـه، والوسـادة متغضنـة ومنحرفـة عـن موضعهـا. كـما كان كل شيء عـلى حالـه كالمعتـاد في المطبـخ أيضًـا. بـدا مـن الغريـب أن الرائحـة لم تجـد طريقهـا إلى الداخـل. أحسسـت أن التفكـير مُجهـد، كـما لـو أن عقـلي ملفـوف داخـل لحـاف. خمنـت أخـيرًا أن الرائحـة تسرَّبـت إلى السـلم مـن دورة الميـاه. سـيرحل نيـك، وسـأواجه أنـا أيًّـا مـا وُضـع هنـاك كي أعـثر عليـه.

عـرض أن يتفقـد الأمـر، أو طلبـت أنـا منـه ذلـك، لا أتذكـر. بـدا كل شيء -الأشـياء المألوفـة، وإيماءاتنـا- كـما لـو أنـه غـير واقعـي. مـن مـكاني عـلى البسـطة، راقبـت نيـك بسروالـه الجينـز الفضفـاض وهـو يختفـي أعـلى الـدرج بحركـة بطيئـة تشـبه الحلـم، ثـم أضـاء نـور دورة الميـاه، وسـمعته يقـول: "كل شيء عـلى مـا يـرام".

بينـما هـو ينـزل مـرة أخـرى، بـدا نيـك كالغريـب. بـدا شـعره الطويـل ذاك مجـرد شـعر مسـتعار، بينـما عينـاه الشـاحبتان المخيفتـان هـما الـشيء الوحيـد الحقيقـي بـه، فقـد مـات نيـك الحقيقـي منـذ سـنوات. اضطـررت

إلى وضع يدي داخل سترته التي تعبق بالدخان للتحقق من وجود ضربات قلب. تبادلنا القبلات بالتناوب على كل وجنة، مرة، ثم مرتين، حتى انطفأ الضوء. مدَّ نيك يده ورائي وضغط على المفتاح. أحاطتنا الرائحة، وتفحصنا وجه بعضنا تحت الضوء الشاحب. عصف تيار حول بسطة السلم، وبدا الموت قريبًا، والاحتمالات الممكنة أيضًا. بدت الرائحة بمنزلة رادع، لم تكن رائحة عفن، بل رائحة الشر. قلت "تصبح على خير"، ثم رحل نيك.

***

عُرض ثوب في نافذة أحد المتاجر، وقالت مينا: "لقد حلَّ الربيع، لنكن مملَّتين". لذلك دخلنا المتجر، واشترت كل واحدة منَّا ثوبًا. كان الثوب نسخة من الثياب الشتوية الصوفية، لكنه مصنوع من قماش متين مقاوم للمطر. كان ثوبي بلون أزرق لطيف عادي، بينما ثوب مينا بلون وردي زاهٍ. ارتدته والأكمام مرفوعة إلى الأعلى، لإظهار قميص أزرق منقوش بنقط بنفسجية. بدا مظهرها مثيرًا، بشعرها الأحمر، وجُنَّ جنون أصحاب النظرات المختلسة، وشاهدنا رجلًا يتعرق ويشحب لونه عندما اقتربت منه مينا بثوبها الجديد، فأمسك بمرفق رفيقته ودفعها داخل صالون حلاقة للكلاب كي يجنبها رؤية المنظر.

كان فراش نيك ومينا يبدو دافئًا على الدوام، وقد تناثرت فوقه ملابس مينا ومجلاتها. لم أعد ألقي نظرة سريعة عليه عندما أضطر إلى المرور عبر غرفة نومهما في طريقي إلى الحمام. كثيرًا ما فكرت في قلب نيك وهو يدق بصخبٍ تحت راحة يدي. ما الذي يمكن أن يقودنا إليه ذلك؟ لا شيء. لم يتغيَّر سلوكه معي، ولا مشاكساته وجداله الودود. كان قد أتم الحادي والعشرين من عمره خلال عطلة شهر فبراير، ووفقًا لمينا بدأ كتابة رواية جديدة في يوم ميلاده. شرع يكتب من

دون تخطيط مسبق هذه المرة، وسرعان ما ملأ صفحة تلو الأخرى. أخذ يكتب في المقاهي الآن، بدلًا من المنزل، باحثًا عن الإلهام في الشوارع وفي الحياة، إذ كان من الخطأ البحث عنه بين صفحات الكتب. سألتني مينا عمَّا إذا تمكَّنت من العثور على مصدر الرائحة المنتشرة لديَّ على الدرج، فهززت رأسي: "لقد اختفت صباح اليوم التالي، كان الأمر غريبًا".

"قال نيك إن جيرانك كانوا يطهون غريرًا!".

محادثات الأزواج، وثرثرتهم وترابطهم... سرى تيارٌ باردٌ في مؤخرة عنقي. لا بد أنني ثرثرت مع نيك بشأن غرير في تلك الليلة، لكنني لم أتذكر أنني فعلت ذلك. ماذا نسيت أيضًا خلاف ذلك؟ وما الذي سمعته مينا من نيك أيضًا؟ انتهى الأمر بأن صار مزحة بيننا: الليلة التي طبخ فيها آل بيرتي غريرًا.

كان الجو عاصفًا معتدل الحرارة، وأزهرت الأشجار، فبدت كغيوم وردية. ظهر الفجل الغض في الأسواق، ذلك النوع الرفيع ذو الطرف الأبيض المدبب، وعلَّمتني ساندرين أن أغمسه في الملح، وأتناوله مع الخبز المدهون بالزبد، كما نصحتني بإزالة الأوراق عندما أعود إلى المنزل، لأنها تمتص الرطوبة من الفجل إذا تُركت. بعد ذلك، أخذت مني الحزمة وقطعت الأوراق بنفسها. كانت تبذل قصارى جهدها لتعلِّمني القواعد الفرنسية الصارمة بشأن الطعام. كان عليَّ سلق الفاصوليا الخضراء حتى تتحول إلى اللون الرمادي، وإذا لم يكن هناك خبز، لا تعتبر وجبة. كما كان لا بد أن ينضج جبن الكمامبير بما يكفي كي يفيض عن جوانب علبته، لكن من دون أن تفوح منه رائحة الأمونيا. لم يسبق وأن اشتريت جبن الكمامبير على الإطلاق، لأنني رأيت المتسوقين في السوبر ماركت يفتحون علبة تلو الأخرى، ويفكون الجبن ويشمونها، وإذا وجدوها غير مرضية يعيدونها إلى الرف.

استُدعيت ساندرين إلى مقر الشرطة مرة أخرى، حيث وجدت مسؤولًا جديدًا، لكن تكررت نفس الأسئلة. كان ملف خطيبها ينقصه نسخة من شهادة ميلاد والده، التي طُلبت في العام الماضي وتم تقديمها وحفظها في الملف، لكنها اختفت الآن. قال الرجل الجالس خلف المكتب لساندرين وهو يبتسم أن لا أحد يمكنه تخمين ما حدث.

قاتل والد رياض كمتطوع في الجبهة الغربية. قالت ساندرين: "كان يحب الفرنسيين، ذلك الأحمق المسكين، حتى أطلقوا عليه النار في سطيف عام 1945، في المجزرة الشهيرة. لم يكن مشاركًا حتى في المسيرات المطالبة بالاستقلال، بل كان هناك للاحتفال بنهاية الحرب فحسب. كان رياض بصحبة والده، وهو في العاشرة من عمره، ورأى كل شيء. إن مجزرة سطيف هي السبب الذي جعل ابن رياض يقف ضدي". هزَّت كتفيها وواصلت قائلة: "هذا أمر طبيعي".

مرَّت أوقات خلال ذلك الربيع أردت فيها الصعود فوق قمة تل والصراخ عاليًا. ستتساقط من فمي أشكال غليظة أرجوانية اللون، وستشكِّل جملًا. ستعلن الجمل أن الشباب في جميع أنحاء العالم يدرسون رواية رائعة حقًّا عن مقتل عربي، وستقول إنه إذا كانت أشهر رواية فرنسية بعد الحرب، وتحظى بالتقدير في فرنسا، تدور حول مقتل عربي، فماذا يمكن أن تكون العواقب المترتبة على ذلك؟ وستقول لماذا لم يكن للعربي اسم؟ بعد ذلك، ستلتحم جميع الجمل لتشكِّل عنوانًا لامعًا أرجواني اللون: "هذا ليس أمرًا طبيعيًّا".

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

رتبتُ للقاء مينا في شقتها، لكنني وجدتها تنتظر في الشارع. قالت: "لقد دعانا جمال إلى تناول الشاي، علينا أن نمشي بسرعة، فقد أخبرته أننا سنأتي في الساعة الثالثة، أي الآن".

"من يكون جمال؟".

"أنت تعرفينه، جمال، من مطعم المغرب".

أخبرتني مينا أنها التقته في اليوم السابق بطريق المصادفة: "لقد قلص نوبات عمله في المطعم لأنه رسب في أحد الامتحانات نهاية العام الماضي، لهذا لم نره منذ زمنٍ طويلٍ"، ثم تابعت قائلة: "أعتقد أن هذا صحيح، لم أتمكن من متابعة كل ما قاله".

كان جمال يدرس الرياضيات، كما علمت بينما نحن نسرع في طريقنا. "أظن أن هذا لإرضاء عائلته فحسب، فهو يبدو مرتبطًا بهم، وظل يذكر أحد أعمامه، لكن ما يحبه حقًّا هو الفن، ولهذا سنشرب الشاي معه، حيث إنه سيريني أعماله".

لم يكن بيت الطلبة الذي يقيم به جمال بعيدًا عن سوق السلع المستعملة. كانت بناية قديمة، تقع في شارع تصطف على جانبيه الأشجار الضخمة، وكانت غرفة جمال في الطابق العلوي. ما إن فتح بابه حتى اتضح من ملامحه إنه لم يكن يتوقع مجيئي، وبدا ذلك بوضوحٍ عندما دخلنا الغرفة. كان هناك مقعد واحد قائم، جلست عليه مينا. لم يبقَ سوى الفراش، فترددت بجواره وأنا أعتذر لجمال، قائلة إنني آمل ألا يكون لديه مانع في مجيئي، وأتمنى ألَّا يمثِّل ذلك مصدر إزعاج له... سمعت نفسي وأنا أزيد الموقف سوءًا، لكنني لم أستطع التزام الصمت.

ارتدى جمال قميصًا أخضر من نسيج لامع بعض الشيء، ومرَّر يديه الغليظتين خلال شعره، فبدت مفاصل أصابعه بارزة. أظهر حسن خلقه بأن دعاني إلى الجلوس، وهو يشير إلى الفراش المعدني.

قال: "سأجلب مقعدًا آخر". لكنه بقي مكانه وهو يتلفَّت حوله، كما لو أن شيئًا ما مما ستقع عليه عيناه سيرشده إلى ما يجب عليه فعله.

كانت هناك منشفة مطوية عند طرف الفراش، فجلست هناك بعد أن خلعت سترتي، وبدت المرتبة متكتلة وطرية. احتوت الغرفة على خزانة ملابس وطاولة ومغسلة، وتدلَّى فوق شماعة سلك خلف الباب زي النادل الذي يرتديه في مطعم المغرب: سروال داكن مع قميص أحمر له ياقة قائمة. وعبق الجو بعطر صناعي كنت أعرفه، لكنني لم أستطع تحديد كنهه.

لامست شجرة نافذة جمال، وأوراقها تتحرك برقة كأيدي خضراء مداعبة. قالت مينا: "يا لها من غرفة جميلة! انظري إلى تلك الشجرة!". كانت تتحدث بالإنجليزية، وأخذ جمال يحدق فحسب.

أخبرته بالفرنسية: "نحن معجبتان بشجرة الدلب"، فقال جمال إنها تسبِّب له السعال.

كانت هناك كتب وملفات عند طرف الطاولة، وموقد له عين واحدة وقدر صغير به ماء عند الطرف الآخر. كان جمال قد وضع كأسين، تحتوي كلٌّ منها على كيس شاي، إلى جانب علبة من مكعبات السكر، وطبق يضم قطعتين من المعجنات اللزجة من شمال إفريقيا. أشعل الموقد وقال: "لحظة واحدة"، ثم غادر الغرفة. سمعناه يطرق أحد الأبواب، ثم بابًا آخر على مسافة أبعد.

همستُ قائلة لمينا: "كان يريد الانفراد بك".

"لا أحد يفتح الباب. عندما يعود، اسأليه ما إذا كان باقي الطلبة يمارسون التمييز ضده".

عاد جمال من دون مقعد، لكنه كان يحمل كوبًا. جلب كيس شاي آخر من رفٍّ فوق المغسلة، وبدأ الماء في الغليان، فصبَّه بعناية في الأكواب الثلاثة.

قالت مينا: "هذا رائع! شاي بالنعناع". كان هذا هو ما نطلبه في مطعم المغرب: شاي بالنعناع محلًى بكثيرٍ من السكر.

قال جمال: "إنه شاي إنجليزي"، ونقل نظرته بيننا بحزن، حاملًا كوبًا في كل يد.

في المطعم، كان جمال مجرد شخص غير محدد، نادلًا فحسب، لكنني رأيته الآن، بوجهه الممتلئ، كما لو كان ذلك لأول مرة. بدا فمه متجهمًا نوعًا ما، وتحركت عضلة في ذراعه بخفة بينما هو يقطع المخبوزات بسكين المائدة. نزَّ العسل على ظهر يده، فرفعها بسرعة إلى فمه ولعقه. وعندما رفع ذراعه، تعرَّفت على الرائحة التي عبقت بها الغرفة: مزيل العرق.

أخرجت مينا سجائرها، فقدَّم إليها جمال واحدة من سجائره. أراها العبوة، ماركة بنسون وهيدجز، وقال: "هذا أفضل نوع!". كان قد استعد برقة واهتمام: إبطان معطران، وسجائر باهظة الثمن، وحلوى بالعسل. كان المكان الوحيد الذي يمكنه الجلوس فيه هو على الفراش بجواري، وتصلَّبت حلمتاي حينما ارتمى بجانبي.

تبادلنا الحديث، وبدا الأمر مصطنعًا ويتطلب جهدًا. أخبرنا جمال أن عمَّه يمتلك مطعم المغرب، بالإضافة إلى مطعم آخر في بيزييه حيث تعيش عائلته. هاجروا حينما كان جمال في الرابعة من عمره، وكان لديه شقيقتان أكبر منه، ولإحداهما ابنة. لم يكن يدرس الرياضيات بل الكيمياء، على الرغم من أن الامتحان الذي رسب فيه كان الرياضيات. واصلت مينا إصدار التعليمات: اسأليه إذا كان يعود لزيارة المغرب، اسأليه عمَّا يعمل والداه، اسأليه عن رأيه في الفرنسيين.

اتضح تدريجيًّا أن عائلة جمال لم تكن ثرية، لكنهم كانوا أبعد ما يكون عن الفقر. زار إنجلترا، حيث يوجد في شلتنهام بعض معارف العمل لعمِّه. قال جمال: "ركبنا الجياد، وساد الضباب والخضرة. إنجلترا فائقة الجمال، كما أنني أحب الإنجليز أكثر، وأريد العودة إلى هناك مرة أخرى".

انتظر مني ترجمة كل شيء، لكنه نظر إلى مينا وهو يتحدث. نظرت إليها أنا أيضًا، بغديرتيها الحمراوين الجميلتين، وتنورتها القصيرة الجذابة، وركبتيها الجميلتين الواعدتين باستدارتهما. لم تكن أي منَّا ترتدي حمالة صدر ما لم تكن مضطرة إلى ذلك، واختارت مينا ارتداء قميص خفيف مثبت بدبابيس الحفاضات، التصق بصدرها الجميل النافر. وها هو جمال متاح أمامها، كما كان نيك لديها بالفعل. ابتلعت الشاي كأنني أشرب الشوكران. قبعت المنشفة القطنية النظيفة في الانتظار عند طرف الفراش، وتخيلت جمال وهو يناولها لها بأدب لاحقًا، كي تمسح ما بين ساقيها. أم هل كان ينتوي وضع المنشفة فوق المرتبة، بعد أن يضع الوسادة تحت وركها؟ كُتب في فقاعة الحديث خاصتي: "لماذا هي؟ ولماذا ليس أنا؟". جلست مينا هناك مبتسمة، ببشرتها الجميلة البيضاء، أجمل لون. كنت على ثقة من وجود طنين في الجو، كما لو أننا نجلس تحت خطوط الضغط العالي، وقد سرت في جسدينا أنا وجمال شهوات متعارضة. كيف له ألَّا يستيقظ بداخله الأمل، عندما وافقت مينا على القدوم إلى غرفته؟ وترى أي وعود ألمحت له بها، بلغتها الفرنسية الركيكة؟ فكرتُ في تلك الطريقة التي تسكب بها دائمًا الكثير من النبيذ، على نحو ينم عن الإهمال، لا الكرم.

ظهرت آثار متناثرة لشريطٍ لاصقٍ قديمٍ فوق الجدران المطلية باللون الرمادي، وكان هناك ملصق يصور لاعب كرة قدم فرنسي فوق

الفراش. قالت مينا بعد أن تناولنا الشاي: "ظننت أن أعماله ستكون معروضة، أخبريه أنني أود رؤيتها".

تجهم جمال مرة أخرى، وكان ذلك هو ما يرتسم على ملامحه حين لا يدري ما يجب عليه فعله. لم تكن هناك أي أعمال فنية، إذ أساءت مينا فهم ذلك أيضًا. قال: "أحببت الرسم في المدرسة، عندما كنت صغيرًا".

قالت مينا ونحن نسير عائدتين إلى المنزل: "كم هو مؤسف أنه تخلى عن الفن، ربما كان يمكن مساعدته للعثور على منحة دراسية في لندن".

قلت بنبرة لاذعة: "إنه لا يحتاج إلى مساعدتك، بل يحتاج إلى مضاجعتك. كان سيخبرك بذلك، لو لم أكن هناك. ذلك القميص الذي ارتداه هو أفضل ما يمتلكه من ثياب".

ضحكت مينا وأحسَّت بالإطراء. قبضت على ثدييها وهزَّتهما وهي تقول: "أوه لا لا! شلتنهام! من كان في وسعه توقع ذلك؟ إنها أكثر المناطق بياضًا في إنجلترا". كانت قد صرفت النظر عن جمال، الذي يرغب في ركوب الخيل الإنجليزي، ويعتقد أن الفن لتلاميذ المدارس فقط. لم يكن مو-ثيرًا للاهتي-مام.

لعدة أيام، لازمتني أفكار مهووسة بالعودة إلى غرفة جمال: "اسمع، هل تعتقد أنك ستتمكن من الاندماج أبدًا؟ وماذا يهم في الأمر لو تمكَّنت من العثور على فتاة إنجليزية تقبل الزواج منك؟ لن تصير أنت ولا أطفالك محل ترحيب هناك أبدًا، وستظل الهدايا التي يتلقونها من أسرتها في عيد الميلاد دائمًا أقل من الهدايا التي يتلقاها أطفال شقيقتها. نحن من صنفٍ واحدٍ، أنا وأنت، ولن تصبح فتاة مثل مينا من نصيبك أبدًا". هذا هو ما سأقوله لجمال، بينما أفتح

سحاب سروالـه. تـرى كيـف سـيبدو عضـوه الذكـري؟ يمكنـه التظاهـر بإيلاجـه في مينـا.

***

ذهبـت إلى أحـد المقاهـي لألتقـي بديـب كي ترينـي شـعرها، بعـد أن دفعـت الكثـير مـن المـال لمصفـف الشـعر لتحويلـه إلى زهـرة ذهبيـة صلبـة. حكيـت لهـا عـن عـصر ذلـك اليـوم الـذي قضينـاه مـع جـمال، وقلـت: "كان يشـتهي مينـا بشـدة، ومـا كان عليهـا أبـدًا أن تقـول إنهـا سـتذهب إلى غرفتـه، لكـن المريـع في الأمـر حقًّـا هـو مـدى السرعـة التـي فقـدت بهـا الاهتـمام بـه". في الواقـع، كان المريـع في الأمـر حقًّـا هـو أنـه لم يكـن يشـتهيني أنـا. بـل في الحقيقـة، كان المريـع في الأمـر بالفعـل هـو أن جـمال لا يشـتهيني لأن لنـا نفـس لـون البـشرة، وكانـت هـذه النقطـة فائقـة الأهميـة. لكننـي لم أتمكـن مـن التفـوه بتلـك الكلـمات، ولا حتـى أمـام نفـسي.

واصلـت قائلـة: "أرادت مينـا مسـاعدة فتـى أسـمر مسـكين، وعندمـا أدركـت أن جـمال ليـس في حاجـة إلى المسـاعدة..."، ومثلـت بيـدي حركـة إسـقاط شيء مـن عـلى ارتفـاع. كان الهـدف من انتقـاد مينا هـو أن يجعلني أشـعر بالتحسـن، لكنـه دفعنـي إلى الشـعور بالخجـل. وعـلى الرغـم مـن ذلـك، فـإن ذكـرى الشـهوة التـي انتابتنـي، وجسـدي غـير المرغـوب فيـه، جعـلا التوقـف عـن الحديـث مسـتحيلًا. واصلـت قائلـة وأنـا مدفوعـة بمشـاعر الحقـد والشـفقة عـلى الـذات: "إن إنقـاذ ذوي البـشرة السـمراء مبـدأ مـن مبادئهـا، وهـذا هـو سـبب صداقتهـا معـي".

قالـت ديـب: "بالتأكيـد لا، هـلَّا طلبنـا مـن ذلـك الرجـل أن يجلـب لنـا مزيـدًا مـن النبيـذ؟".

كنا قد تناولنا قنينة معًا بالفعل، لذا قلت: "أجل". بدت ديب جذابة للغاية، بشعرها المدهش، وهي ترتدي بلوزة وردية مكشكشة. سيجدها جمال من أفضل نوع، ويمكنهما الذهاب لركوب الخيل معًا وسط الضباب الإنجليزي.

سألتني بعد أن ملأنا كأسينا: "هل تعتقدين أن مينا يمكنها خوض علاقة جانبية؟".

"بالتأكيد لا".

تعالت نغمات الموسيقى بلحن تقليدي غني، فاشي على نحو غامض. احتسينا مزيدًا من النبيذ اللذيذ، وتأمَّلت ديب، وجمالها الذي أينع فجأة. قلت: "ديب! هل أعرفه؟".

شرعت تضحك: "ذهبنا لمشاهدة فيلم، ثم تناولنا الكثير من الويسكي، وبعدها تقريبًا بدأ الأمر".

كان يجب أن ألاحظ على الفور. بدت ديب مشرقة وجريئة، بدت كنبتة ارتوت من بعد ظمأ. قلت: "يا إلهي! إنه نيك، أليس كذلك؟"، أردته أن يكون نيك، إذ كنت أتوق إلى معاقبة مينا. لم أرده أن يكون نيك .

ضحكت ديب أكثر: "ذلك التلميذ الماركسي؟".

ذكرت وسائل الإعلام على الجانب الآخر من القنال أن طبيب أمراض النساء الخاص بالأسرة الملكية فحص العروس الملكية المنتظرة، وأعلن كونها صالحة لمضاجعة الملوك. أدركت أنني كنت مخطئة بشأن شعر ديب، فلم يكن زهرة، بل كان تصريحًا بأنها استمتعت بجنسٍ رائعٍ، ووقف حول رأسها كحواف التاج.

***

اقتربت عطلة شهر أبريل، وأخبرتني مينا بأنها ستذهب إلى سردينيا مع نيك. كانت تعرف امرأة تعيش هناك، وهي واحدة من المعارف القدامى لوالدة مينا. كانت المرأة عشيقة جون بيرجر، وأرادت مينا زيارتها لأن لديها أسئلة عاجلة لجون بيرجر: "إذا حالفنا الحظ، سيكون هو أيضًا هناك. وإذا لم يكن موجودًا، سنحصل على عنوانه منها، ونذهب لرؤيته".

قبل يومين من سفر نيك ومينا، تغيَّر كل شيء. ماتت عمة نيك، فاضطر إلى العودة إلى موطنه، ولم ترغب مينا في تأجيل رحلتها وإفساد الترتيبات التي اتُخذت، لذلك دعتني إلى أن أحلَّ محل نيك.

كان من المفترض أن يقود نيك الإلهة إلى إيطاليا، لكن صار يتعين علينا أنا ومينا أن نستقل القطار، وقالت مينا إنها ستشتري تذاكر لنا. في ذلك المساء، بعد أن ودعت نيك عقب ركوبه حافلة المطار، قابلتني كي نتناول الغداء في مطعم له ديكور من المخمل الأحمر، وسألتها عن تكلفة تذكرتي.

"لا شيء، فأنت تسدين لي صنيعًا".

أراد جزء مني -ذلك الجزء الخائف الذي يجري الحسابات دومًا- أن يشكرها ويتشبث بالمال. لكنني أخرجت دفتر الشيكات والقلم: "كم الثمن؟".

طُبعت قائمة بأصناف البيرة على المرآة الضخمة المعلقة على الجدار بجوارنا، فظهر لي تعبير مراوغ على وجه مينا بين الأحرف المذهبة المزخرفة، وبدا الانعكاس في المرآة أكثر تعبيرًا من وجهها عبر الطاولة. سألتها: "هل اشتريت تذاكر درجة أولى؟".

"بالطبع لا!". لكنها اعترفت بعد لحظة: "حاولت، لكن لم تكن هناك مقاعد، كما لم يكن هناك مكان في عربات النوم أيضًا، إذ إن الجميع يسافرون خلال العطلات المدرسية. لقد حالفنا الحظ، وأعاد

شخص ما تذاكره قبل خمس دقائق من وصولي المحطة. مدَّت مينا يدها لتملأ كأسي، فتناثر رذاذ النبيذ في سلة الخبز، وقالت: "سنظل جالستين طوال الليل، لكن هذا لا يهم، حيث إننا سنكون مع كل الناس المو-ثيرين للاهتي-مام". وفقًا لما رأيته من رحلاتي إلى باريس، لم يكن الناس الذين يحجزون للسفر في غير العربات المخصصة للنوم مو-ثيرين للاهتي-مام، بل ينقصهم المال فحسب، بدأت في كتابة اسم مينا على الشيك.

"من فضلك، مزقي ذلك الشيء اللعين".

"لن أذهب ما لم تدعيني أدفع ثمن التذكرة".

سرت بيننا آثار التوتر في طريق عودتنا إلى المنزل. قالت مينا: "أتمنى لو أنك سمحت لي بشراء تلك التذكرة لك، فنحن فتاتان في مواجهة العالم، أليس كذلك؟ أريدنا أن نبقى معًا دائمًا".

قلت: "نحن كذلك بالفعل، وسنظل كذلك". أمسكت معصمها وغنيت "دو... دودووو... دودووو"، مثل المطربة المصاحبة للو ريد، ثم واصلتُ قائلة: "لكن في بعض الأحيان، تفوز الفتاة الملونة".

"ليس الأمر كما لو أنني بيضاء بيضاء".

سرنا بضع خطوات أخرى، وقلت: "ألستِ كذلك؟".

"لقد ابتكر الفرنسيون كلمة "عنصرية" وكانت في الأصل تعني معاداة السامية. البيض المتعصبون يقتلون اليهود، أنسيت ذلك؟".

كنا نرتدي ثوبينا المصنوعين من القماش المضاد للمطر، الوردي والأزرق، متشابهان وغير متشابهين. قلت: "إنهم يقتلون أشخاصًا مثلي لسببٍ مختلفٍ"، لكن ما كنت أفكر فيه هو: "إنهم لا يطلبون منك أنت إبراز أوراقك في سوق السلع المستعملة". لماذا كانت مينا عاجزة عن رؤية ذلك؟ واصلنا السير في صمتٍ. أخذ فكي يؤلمني، وأدركت

أنني أكز على أسناني، ثم مررنا بنافذة متجر ملأتها أطباق عشاء باللونين الأخضر والذهبي، دفعنا مرآها قبل بضعة أيام فحسب إلى الضحك حتى أصابنا الوهن.

قالت مينا عندما وصلنا إلى شارعها: "تعاليْ واحتسي خمسة مشروبات معي".

"لديَّ حصص مدرسية صباح غد".

"ألا تعلمين أنه من المفترض أن تنتظري حتى بلوغ الثلاثين من العمر قبل أن تبدئي في الشرب باعتدالٍ؟ ستبدئين في ممارسة البستنة قريبًا، ما لم تلتزمي الحرص".

على رصيف المحطة في الليلة التالية، بينما كنا ننتظر القطار، أرتني علامة حمراء باهتة على معصمها، وقالت: "أنت تسببت في هذا".

أمسكتُ يدها بحركة مسرحية، وقبّلتها كما يفعل نيك. لكم تظهر البشرة البيضاء الكدمات.

***

في جنوة، حيث نزلنا من القطار في صباح اليوم التالي، توصَّلت إلى اكتشافٍ مبهجٍ: اعتادوا تناول المعجنات على الإفطار في إيطاليا، فقلت "دعينا نقضي بقية حياتنا هنا".

كنَّا في مقهى بالقرب من المحطة، ولفَّت مينا يديها حول كوب أبيض سميك. احتست الكابتشينو وهي تشرح وجهة نظرها القائلة بأن معاملة الملابس مثل أي سلعة أخرى هو خطأ ماركسي جوهري. "هذا لأن ماركس كان رجلًا، ويعتقد الرجال أن الملابس تافهة لأن النساء تحبها وتحب شراءها. سأخبر جون بيرجر بذلك صراحة".

"ألا تكمن المشكلة في الشراء، وليس الحب؟ سيظل الماركسيون دائمًا ضد أي نظام يجعل الناس يستمرون في شراء أشياء جديدة".

قالت مينا: "ما هو كم الأشياء الجديدة التي رأيتني أشتريها؟ يبدو حديثك مثل نيك تمامًا. دائمًا ما يقول إن الموضة تعني الرأسمالية. لكن إذا دخلت هذا المجال، لن أصمم سوى مجموعتين صغيرتين كل عام. وسأنقل بعض القطع من مجموعة إلى أخرى، ومن عام إلى العام الذي يليه. ستكون ملابس مبتكرة وعملية، وبأسعار معقولة أيضًا. لكن على أي حال، ستتمكن المرأة الذكية من تجميع أزياء مشابهة معًا من الملابس التي تمتلكها بالفعل، أو من أسواق السلع المستعملة أو المتاجر التابعة لأوكسفام، وسأذهب في جولات لإلقاء محاضرات حول ذلك الموضوع تحديدًا".

لم أرَ ما علاقة أي من ذلك بجون بيرجر، فقلت: "هل بدأ العمل في مجال تصميم الملابس؟ ظننت أنه مؤرخ فني. لا أعرفه إلا من كتابه "طرق الرؤية"".

"هذا هو ما يدور حوله الأمر: طريقة للرؤية. رؤية أن الثورات يديرها الرجال، وأن ما لا يأخذونه في الاعتبار هو المتعة. متعة المرأة. لا يمكنك الإطاحة بالرأسمالية إذا تجاهلت ذلك. لهذا فشلت فكرة بدلة ماو برمتها. كان يجب أن يكون هناك تنوعٌ في الأشكال، والكثير من الألوان المختلفة، ومجموعة من النقوش". واصلت مينا قائلة بنبرة حنين: "كم أود الذهاب إلى الصين، وسأشتري كل بدلات ماو التي يمكنني الحصول عليها، وأعيد تصميمها. هذا ما أخطط للقيام به: شراء المخزون الزائد لدى الآخرين في نهاية الموسم، وتقبيحه".

لعقت طرف إصبعها، ونقرت به طبقها لالتقاط فتات المخبوزات، وقالت: "أتمنى لو أن نيك تمكَّن من المجيء في هذه الرحلة". رأيت أنها لم تكن وقحة، ولا تتمنى رحيلي. لكن في الحقيقة، كان نيك هو

المقصود بالحجة التي أرادت طرحها أمام جون بيرجر. ولم تكن حجة في الواقع، بل بحثًا عن القبول.

كان لا يزال يتعيَّن علينا شراء تذاكرنا لركوب العبَّارة المتوجهة إلى سردينيا. سألت مينا النادل، وهي تحاول النطق بوضوح: "مكتب النقل البحري؟"، فأجابها بالإيطالية. ثم دار حول طاولة الحانة، ولمس مرفق مينا وقادنا إلى الباب ليشير إلى الطريق. بينما نحن ننصرف، قالت مينا: "إن اللكنة المحلية صعبة للغاية. أنا أتحدث الإيطالية بلكنة فلورنسا، التي هي فائقة النقاء".

لم يكن مكتب شركة النقل البحري مفتوحًا، لكن المنتظرين أخذوا يشكلون صفًّا بالفعل. كنا ننتوي ترك حقائبنا في المحطة، لكن تفجير بولونيا في العام الماضي جعل خدمات الخزائن تتوقف في كل مكان، لذا اضطررنا إلى حمل حقائبنا بقية اليوم.

فتح المكتب أخيرًا، وبعد نصف ساعة لم يتحرك الصف إلا بالكاد. أخبرتني مينا بما سنفعله، وبدأنا نغني نشيد الأممية. تخلى رجل عن موقعه بالقرب من مقدمة الصف، وسار عبره وهو يغني معنا: "هذا هو النضال الأخير...". حمل حقائبنا، وقادنا أمامه نحو المكتب، بينما صفق جميع الواقفين في الصف.

كان موعد رحيل العبَّارة في المساء، وفي وقت الغداء، ظهرت مصاعب جديدة. كنا قد خططنا لشراء طعام للنزهات، يصلح أن نتناوله على العبَّارة، لكننا أردنا تناول وجبة ساخنة الآن. قالت مينا: "نحن في حاجة إلى مكان يرتاده العمال، مكان رخيص يقدم طعامًا مشبعًا". كانت هناك الكثير من المطاعم التي علقت في نوافذها قوائم الطعام، لكن مينا قررت أن بعضها لصغار البرجوازيين، بينما الباقون يحتالون على السائحين. "نحن في حاجة إلى مكان حقيقي، مطعم شعبي". قضمت أظافرها وأطلَّت خلال نافذة أخرى، كما لو أنها تبحث عن

شيء معلق هناك، ظاهر بوضوح. في النهاية، وبينما كانت حقيبتي تثقل كتفيَّ، بدا لي أن ما تبحث عنه هو رجال يرتدون قمصانًا من دون ياقات، وشقراوات بأذرع لؤلؤية بضة. لم تكن تبحث عن مطعم، بل عن لوحة انطباعية.

أخيرًا، طلبتْ النصح من أحد المارة، الذي بدا لها شعبيًّا بما فيه الكفاية، بالنظر إلى حذائه المترب. شدَّ أذنه وشرع في إلقاء خطاب، مشيرًا بيده بعيدًا عن الميناء. ناولته مينا دفتر ملاحظاتها وقلمها، وطلبت منه أن يرسم لنا خريطة. صافحنا قبل أن نفترق: نظر إلى يده أولًا، ثم مدَّها إلى كل منَّا كما لو كانت هدية.

سألتني مينا بنبرة مبتهجة بينما نسير في طريقنا: "هل رأيت كيف أمسك بالقلم؟ مثل الإزميل".

رفضتْ الضحك عندما قلت إنها بالتأكيد تقصد مطرقة، "أو منجلًا؟".

قادتنا الخريطة إلى غرفة بها خمس أو ست طاولات طويلة، حيث جلس رجال يرتدون بدلات العمل متلاصقين فوق المقاعد. هبَّت روائح القلي والبخار من مؤخرة الغرفة. تقدم نحونا نادل وهو يمسح جبهته على كمِّه، وأشار إلى لوحة، قائلًا إن قائمة الطعام محددة: مكرونة كاربونارا، يليها طبق من الكبد، إلى جانب ربع لتر من النبيذ. قُدِّم للجالسين على أقرب طاولة منَّا طبقهم الأول، وكان كل طبق من الإسباجتي الممزوجة بقطع اللحم الصغيرة مزينًا من أعلاه ببيضة نيئة في نصف قشرة. سكب أحد العمال البيضة فوق مكرونته، وتدلَّت من القشرة خيوط بيضاء لزجة لامعة. لم نتحدث أنا ومينا في طريقنا للعودة إلى الميناء. سارعتْ بالدخول إلى أول مكان رأيناه لصغار البرجوازيين، حيث كان الطعام شهيًّا ووافرًا ورخيص الثمن.

***

في ذلك المساء، فردنا أكياس نومنا على ظهر العبَّارة، واستقرَّ ثلاثة فتيان إيطاليين إلى جوارنا، ووزَّعوا متعلقاتهم إلى جانب ممتلكاتنا. هبَّت رياحٌ حادة عندما وصلنا إلى المياه المفتوحة، فارتدت مينا معطفها الأخضر، وأعجب الإيطاليون به. قال أفضل من يتحدث الإنجليزية بينهم: "إنه صارخ للغاية". سرعان ما شرعنا في تناول النبيذ معًا، وفتح الإيطاليون علب التونة. كان ثلاثتهم يدرسون التاريخ في تورين. ازداد إعجابهم عندما أخبرتهم مينا بأنها ترتاد مدرسة الفنون. قال الذي كان يرتدي نظارات بيضاوية صغيرة: "فنانة". كنت أنا "الأستاذة"، وبدت الكلمة كئيبة ومحلَّ شكٍّ. لكن في لحظات مختلفة، لمحتُ كل واحد من هؤلاء الثلاثة ينظر إليَّ بالطريقة التي نظر بها جمال إلى مينا: بانتباه، وأملٍ.

أخرجوا علبة من بطاقات اللعب الضخمة، لها ألوان زاهية، وشرعوا في تعليمنا كيف نلعب سكوبا. كانت هناك أربع مجموعات، لكل واحدة منها ملك وفارس وولد. سألتهم: "أين الملكة؟". أشار الفتى الذي لا يتكلم كثيرًا نحو السماء، وقال: "القمر". كانت ملكة الليل مستلقية على ظهرها، محاطة بنجومٍ تبدو حادة بدرجة تكفي للتسبُّب في خدوش. شغل شخصٌ ما جالس على مقربة أغنية "قاتل مختل" على جهاز كاسيت، فغنينا جميعًا معًا: "فا فا فا فاااا فا... فا فا فا فاااا..."، لكن بعد الليلة التي قضيناها في القطار، أخذ النوم يلاحقني بعنادٍ كالموت. بدأ جسدي يميل نحو الأمام، واضطررتُ إلى أن أجبر نفسي على الاعتدال في وضع الجلوس. كانت البطاقة الأكثر قيمة في اللعبة هي "السبعة الجميلة"، البطاقة التي تصور سبع عملات، ورأيتها هناك في يدي.

استغرقت العبَّارة في طريقها إحدى عشرة ساعة. وفي صباح اليوم التالي في أولبيا، ودعنا الإيطاليين الذين كانوا سينطلقون في رحلة سيرًا على الأقدام. كان علينا أنا ومينا العبور إلى الجانب الآخر من الجزيرة،

مـما يتطلـب ركـوب حافلتـين. وكانـت أول حافلـة في انتظـار وصـول العبَّارة، ثـم رحلـت عـلى الفـور. حملتنـا متجـاوزة منـازل متداعيـة لهـا أعـين زرقـاء مـن النوافـذ الخاليـة مـن الزجـاج. ظهـرت لنـا خلـف جـدار حجـري منخفـض بعـض الأغنـام التـي ترعـى، ولهـا وجـوه ناحلـة خاليـة مـن أي فكاهـة. كان سيسـعدهم رؤيتنـا نُشـنق بوصفنـا سـاحرتين. التـفَّ الطريـق حـول جانـب تـلٍّ، وعـلى الجانـب الآخـر مـن بحـيرة مـن العشـب ارتفعـت صفـوف مـن الأشـجار التـي اكتسـت بأزهـار بيضـاء، بـدت كـما لـو أنهـا رؤيـا. انحـرف الطريـق عـلى الفـور تقريبًـا، وابتعـد الـوادي. وعـلى الرغـم مـن أننـي أمسـكتُ بـذراع مينـا، فإنهـا فاتهـا رؤيـة البسـتان. كانـت ترتـدي حمالـة صـدر لمقابلـة عشـيقة جـون بيرجـر، لكنهـا تذمـرت قائلـة: "رج رج رج!"، وهـي تهـز ثدييهـا، بينـما الحافلـة تسـير في الطريـق المـليء بالحفـر.

تؤسـفني الإشـارة إلى المـرأة التـي كنَّـا ذاهبتـين لزيارتهـا بوصفهـا "عشـيقة جـون بيرجـر"، لكننـي سـمعت اسـمها مـرة أو مرتـين فحسـب، ونسـيته منـذ زمـن بعيـد. فضَّلـت مينـا أن تطلـق عليهـا "عشـيقة جـون بيرجـر" بـازدراءٍ متعمـدٍ، لإظهـار أنهـا لا تشـعر بالرهبـة حيالهـا. ارتـادت هـذه المـرأة ووالـدة مينـا المدرسـة معًـا، لهـذا لم تسـتطع عشـيقة جـون بيرجـر أن ترفـض مقابلتنـا. قالـت مينـا بنـبرة مـن الرضـا المشـوب بالخبـث: "هنـاك أشـياء تعرفهـا والـدتي...".

أنزلتنـا الحافلـة في قريـة كئيبـة، حيـث اضطررنـا إلى الانتظـار أكـثر مـن سـاعة. وفي المقهـى الكئيـب الوحيـد الموجـود، أكلنـا لفائـف محشـوة بلحـم الخنزيـر. جلـس ثلاثـة رجـال كبـار في السـن يلعبـون الـورق في الزاويـة، فسـألتُ مينـا: "هـل كان بحـوزتي بطاقـة السـبعة الجميلـة في الليلـة الماضيـة؟". أجابـت قائلـة إنهـا نسـيت كل مـا كانـت تعرفـه عـن السـكوبا، أو عـن الليلـة السـابقة.

انتهينا من تناول مشروب كينوتو، "كوكا كولا المرأة المفكرة" على حد وصف مينا، ثم خرجنا متوجهين إلى محطة الحافلات. وضع رجل عجوز البصلة التي كان يقطعها في كفِّه، ونهض من مقعده وأتى نحونا. كان يرتدي سترة مخملية بنية اللون، نحلت وبرتها في عدة بقع، بينما ارتفع سرواله حتى كاد يصل إلى إبطيه. جذب السروال أكثر إلى الأعلى، وقال إنه لا توجد حافلة. قال ذلك بطريقة غير مفهومة، لكن لم يكن هناك مجالٌ لإساءة فهم ما يعنيه. واصل هز رأسه وهو يشير نحو المحطة، عندما خرج شاب من المقهى. كنَّا قد رأيناه متكئًا على طاولة حاملًا بيرة. بلغة إنجليزية متعثِّرة لكنها واضحة، أخبرنا أن الحافلة تعطَّلت، ولن تعمل في ذلك اليوم، ثم سألنا أين نريد الذهاب، وعرض توصيلنا عندما أخبرناه.

كان اسم منقذنا هو فيتوريو، وقدَّمنا إلى جينا لولوبريجيدا، التي انتظرت بصبرٍ في سيارته. كانت السيارة من طراز فيات، ولم تكفِ مؤخرتها سوى حقيبة واحدة، لذا وضعت مينا حقيبتها على ركبتيها. انحشرتُ أنا أيضًا، وأنا جالسة في الخلف بجانب جينا لولوبريجيدا. تناثرت البقع من أثر حروق السجائر على المقعد المغطى بالفينيل، وخرجت منها مادة رغوية صفراء في بعض الأماكن. كان فيتوريو مدخنًا شرهًا، يقود سيارته متكئًا إلى الوراء، وذراعاه ممدودتان إلى الأمام مباشرة، كما دخنت مينا أيضًا في البداية. احتجبت السماء خلف الغيوم، وسرعان ما أخفى المطر شكل التلال. أبقى فيتوريو النوافذ مغلقة، واحتجَّ حينما حاولت مينا فتح نافذته، وقاد مسرعًا عبر الطرقات الجبلية، وتحدَّث بنفس السرعة باللغة الإيطالية. أخذ يلتفت من وقتٍ إلى آخر مخاطبًا جينا لولوبريجيدا بعباراتٍ، صائحًا: "جميلة!"، أو "قلبي!"، وأخذت السيارة الفيات تتأرجح عبر الطريق كلما حدث ذلك.

بـدأت الريـح التـي تهـزُّ الأشـجار تمـزِّق السـحب. كان هنـاك شريـطٌ لاصـقٌ أسـود عـلى شـكل صليـب عـلى ظهـر مقعـد فيتوريـو. بعـد ذلـك، ظهـرت الشـمس مـرة أخـرى، وبـدأت جينـا لولوبريجيـدا تلهـث. انقضـت أميـال مـن الطريـق، وظهـرت ابتسـامة غريبـة عـلى وجههـا، ثـم انحنـت وخفضـت رأسـها، وتقيَّـأت عنـد موضـع قدميهـا. توقفـت الفيـات في منتصـف الطريـق، وكانـت فرصـة للخـروج إلى نسـيم النهـار. أبدينـا أنـا ومينـا إعجابنـا ببسـتان مـن أشـجار الزيتـون، بينـما ركضـت جينـا لولوبريجيـدا في الأرجـاء وأخـذت تـأكل العشـب. رفـع فيتوريـو الدواسـة المطاطيـة الملوثـة بالقـيء، مـع سـيلٍ مـن العتـاب الصاخـب، ومسـحها على حافـة الطريـق، ثـم خزَّنهـا في مؤخـرة السـيارة، وسـامح جينـا لولوبريجيـدا وهـو يربـت عليهـا صائحًـا برقـة: "كارثـة!"، ثـم طبـع قبلـة أعـلى رأسـها.

اسـتأنفنا رحلتنـا، وعبقـت السـيارة الصغيـرة الحـارة الآن بروائـح الرمـاد والسـجائر، والقـيء، وأنفـاس جينـا لولوبريجيـدا النفـاذة. في النهايـة، ابتسـمتْ بحـرجٍ، وتقيَّـأت مـرة أخـرى. هـذه المـرة، اسـتخدم فيتوريـو خرقـة لإزالـة القطـع المتكتلـة وخيـوط العشـب اللزجـة، ثـم ألقـى الخرقـة بعيـدًا، وحثَّنـا عـلى العـودة إلى الفيـات وهـو يهمـس: "بسرعـة! بسرعـة!"، وهـو يهـرع نحـو بـاب السـائق. انشـغلت جينـا لولوبريجيـدا بشـم الزهـور في مـرجٍ، ورفعـت رأسـها بعـد فـوات الأوان. انطلقـت تركـض نحـو الأمـام، بينـما صحنـا أنـا ومينـا: "توقـف!"، و"جينـا!"، كـما لـو أن فيتوريـو قـد نسـيها ببسـاطة. ضغـط دواسـة الوقـود إلى أقـصى حـدٍّ، وذراعـاه ممدودتان إلى الأمـام. أسـهب في الحديـث، وعندمـا سـألتُ عـمَّا يقولـه، أجابـت قائلـة إنـه يتحـدث بلهجـة محليـة.

مرَّ الوقت، وقلت: "أعتقد أنني سوف أتقيأ".

"حسنًا، أنت تعرفين ما الذي سيحدث لك إذا فعلت ذلك".

اشتدت الرائحة إلى درجة دفعت فيتوريو إلى فتح نافذته جزءًا بسيطًا، وأذِن لمينا بفعل الشيء نفسه، واستمرَّ في التدخين والتحدُّث من دون توقف. بدا غير مؤذٍ، مما يعني أنه ربما كان قاتلًا. ذلك الصليب الأسود على ظهر مقعده، تُرى ما معناه؟ دندنت بضع نغمات من أغنية "قاتل مختل"، فالتفتت مينا لتوجه إليَّ ابتسامة عريضة. غنَّت بصوتٍ هامسٍ: "اركض، اركض، اركض"، وبدأت تضحك، وانضم إلينا فيتوريو، ضاحكًا بشدة على متعتنا تلك. كان هذا مقدمة لقتلنا، بكل تأكيدٍ.

في وقتٍ متأخرٍ من بعد الظهيرة، وصلنا إلى قرية مزدهرة ممتدة على جانب الطريق. بدت البيوت الحجرية في حالة جيدة، وكان العشب أمام الكنيسة مجزوزًا. كان هناك متجر صغير للبقالة، وصالون لتصفيف الشعر، وكلاهما مطلي بأناقة. مالت مينا إلى الاعتقاد بأننا سنجد عشيقة جون بيرجر تعيش خارج القرية: "أراهن أنها تقيم في مزرعة قديمة. سيتوقع جون بيرجر وجود حديقة للمطبخ، وأشجار فاكهة، وقد يكون هناك خنزير". طلب فيتوريو من امرأة جالسة على جدار أن تصف لنا الطريق. أخذت ترفع طفلها في الهواء وتخفضه، ثم ترفعه ثانية، كي تدفعه إلى الضحك، وفي كل مرة يفعل فيها ذلك، كانت تقبِّل ركبتيه.

قادتنا توجيهاتها إلى ما وراء القرية، نحو طريقٍ مرصوفٍ بالحصى. توقفت الفيات تحت شجرة دفلي، بجانب بوابة شائكة مثبتة في جدارٍ متماوجٍ مغطًّى بالبلاط. استطعنا أن نشم رائحة البحر عندما خرجنا، وسمعنا أنفاسه على مقربة منَّا. لوَّح فيتوريو بسيجارته، ورفض أن يتقبَّل منَّا الشكر، ثم انطلق مبتعدًا، وثار خلف إطارات سيارته غبار أبيض من الطريق.

استدعى الجرس عند البوابة حارس أمن، أعطته مينا اسمًا، فقال إن من تريدها غير موجودة. أشارت مينا إلى ساعته، وسألته في أي وقتٍ ستعود، ولم نستطع فهم جوابه، لكنه أخذ يهز رأسه، فقالت مينا بحزم: "إنها صديقة". قالتها بالإيطالية، ثم بالإنجليزية، لكن ذلك لم يشكِّل أي فرق بالنسبة إلى الحارس. قالت مينا: "صديقة مقربة جدًّا"، وبدا ذلك بلا جدوى أيضًا.

اقترحتُ نشيد الأممية، لكن مينا قالت إننا نتعامل مع كلب رأسمالي. أدَّينا حركات تمثيلية تدل على اليأس، وأشرنا إلى حقيبتينا، ورفعنا أيدينا أو ضممناها كما لو كان ذلك من أجل الصلاة. واصلنا على هذا المنوال، حتى انفتحت البوابة أخيرًا. تبعنا الحارس عبر الممرات التي قادتنا أمام فيلات بيضاء ذات أسطح حمراء. كانت معظمها مغلقة، لكن توقفت سيارات أمام فيلا أو اثنتين، أو ظهرت منشفة شاطئ ملقاة على كرسي بلاستيكي. همست مينا باستهجان: "أي نوع من الأشخاص هذا الذي يعيش في مجمع سكني محاط بالأسوار؟". بدا أن بعض الهواء تسرَّب منها مع هسيسها ذاك. "لا أعتقد أن جون بيرجر له أي علاقة بهذه المرأة. ليس من المستغرب بالنسبة إلى والدتي أن تكون قد فهمت كل شيء على نحو خاطئ".

قال لنا الحارس: "الدكتورة"، ودقَّ جرس أحد الأبواب. فتحت امرأة عجوز الباب، وقالت: "ألفريدو، كيف حالك؟". بدا مظهرها ملائمًا بالنسبة إلى كونها في عطلة، وهي ترتدي قفطانًا، وجوارب مرقطة لامعة ونعلًا مناسبًا لحمام السباحة. تبادل ألفريدو معها الحديث، فتأملتنا بعدها بينما مينا تشرح موقفنا بالإنجليزية، ثم قالت: "ادخلا".

كانت هناك كومة صغيرة من الأظرف على الطاولة في الردهة، وظهرت رسالة مينا أعلى الكومة. كررت مينا حديثها قائلة: "لقد

كتبت والدتي رسائل أيضًا، ورتبت كل شيء". فردت الدكتورة رسائل البريد التي كانت تجمعها لجارتها، وسحبت مينا مظروف والدتها من وسط الرسائل التي اتخذت شكل مروحة. قالت بأنعم نبرة لديها وأكثرها إثارة للخوف: "هذا كله خطأ والدتي، لو أنها فقط ترضى باستخدام الهاتف..." قضمت أظافرها، لكن لم يكن هناك ما يمكن القيام به، حيث أخبرتنا الدكتورة بأن المرأة التي تعيش في الفيلا المجاورة ليست موجودة. رحلت قبل أسابيع، ربما لتكون مع جون بيرجر.

ظهر كلب كبير يفتقر إلى التوازن، ومخالبه تنزلق على البلاط. قالت الدكتورة إنه يمكننا قضاء الليلة، إذا لم نمانع النوم على الأرض. كان وجود زوار من دواعي سرورها، وواصلت قائلة إنها هي أيضًا سافرت كثيرًا، ولوَّحت بذراعها لتشير إلى غرفة المعيشة التي تحتوي على العديد من المنحوتات والمنسوجات والدمى التذكارية من مجموعة من البلدان المتنوعة. جلبت لنا الدكتورة القهوة، وقالت: "والآن، فلتخبراني بكل شيء". بدا وجهها عريضًا، وقد اكتسب اللون البرونزي، وخلَّف عليه الزمن آثاره. غاصت في مقعدٍ وثيرٍ، بينما جلسنا نحن على أريكة صلبة مغطاة بقطعة قماشٍ مطرزة بالمرايا. أنزل الكلب نفسه بصعوبة فوق بساطٍ، وأصدر أنينًا ثم غرق في النوم. قالت الدكتورة إن اسمه دوندولو، وأنه تجوَّل آتيًا إلى القرية ذات يومٍ، "هُجر بعد أن تعرَّض للمعاملة بوحشية، وهو يعاني تلفًا في العمود الفقري. من يدري أي معاناة تحمَّلها؟".

دفع هذا مينا إلى أن تحكي عن مصير جينا لولوبريجيدا، فصاحت الدكتورة: "ماذا؟"، واعتدلت في جلستها فجأة بدرجة تسبَّبت في قفز عقدها الثقيل المصنوع من الكهرمان. "لماذا لم تخبراني بهذا على الفور؟ لا بد أن نطلب حضور ألفريدو ونرسله للبحث عن هذا الحيوان المسكين، سيكون عليكما توجيهه".

وضعت يدها، المغطاة بخواتم مرصَّعة بالأحجار، على الهاتف الكائن بجوار مقعدها بالفعل، وبدا الهاتف رائعًا بلونه الكريمي المذهَّب، مثل الهواتف التي تظهر في الأفلام.

قالت مينا: "وعد فيتوريو أنه سيصطحبها في طريقه للعودة إلى المنزل غدًا، فهو يعرف صاحب الأرض التي تركها عندها، وستكون آمنة تمامًا".

كررت قولها عدة مرات، حتى أعادت الدكتورة سماعة الهاتف. أخبرتنا أن سكان سردينيا شعب بدائي، يؤمنون بالعمالقة والجان، وأن السحب الصغيرة المختفية خلف القمر هي أرواح الأطفال الذين ماتوا من دون معمودية. كانت الفتاة التي تأتي للتنظيف في الثامنة عشرة من عمرها، ولديها طفلان، ومن دون أي أسنان، أما الدكتورة نفسها، فكانت من فنيتة، لكن الظروف ... بقيت الجملة من دون أن تكتمل.

واصلت قائلة إنها تزوجت ثلاث مرات، أولاها من رجل إنجليزي. "لقد نسيت اسمه، فرديناند؟ روني؟". وعندما سمعت أنني من أستراليا، تحمَّست مرة أخرى، ولم يكن من الممكن منعها هذه المرة. قالت عبر الهاتف: "ديريك؟ ديريك؟ يجب أن تأتي حالًا، لديَّ أسترالية هنا، هذا رائع، أليس كذلك؟".

أبدى ديريك المقاومة بعض الوقت، لكنه وافق أخيرًا على القدوم لاحقًا. قالت الدكتورة بعد أن وضعت السماعة: "بعد العشاء! من يستطيع أن يقول ما إذا كنَّا سنبقى على قيد الحياة بعد العشاء؟ الرجال عبيد للماضي والمستقبل، ولا يفهمون شيئًا عن الوجود في اللحظة الراهنة". علمنا منها أن ديريك يتمتع "بمنصبٍ رفيعٍ" في السفارة الأسترالية في روما. اعتاد زيارة سردينيا كلما سنحت الفرصة، وكان يستأجر بيتًا في القرية. قالت الدكتورة برقة: "يوجد شاب هناك، يعاني زواجًا تعيسًا". أدارت خواتمها في أصابعها، وحكت لنا

عن أسفارها. كانت والدتها روسية: "ذهبتُ إلى لينينجراد بعد وفاتها، وكانت ابنة عمي لا تزال هناك، تعيش في شقة مشتركة. شربنا الشاي، بينما الثلج يتساقط. قالت ابنة عمي: "يا عزيزتي، أنا على استعدادٍ لتصديق كل ما تخبرينني به عن الحياة في الغرب، ولكن لا يمكنني تصديق أنك تستطيعين أكل الطماطم الطازجة في الشتاء"". تنهدت الدكتورة، وواصلت قائلة: "لن تصدِّقا ما خضته من مغامرات، حتى إنني أنا نفسي بتُّ أشك فيها هذه الأيام. قضيت ليلة كاملة ذات مرة في جوادالاخارا، بمسدس ملتصق هنا". أغمضت عينيها وضربت بقبضتها على عظام صدرها، وبدت الأحجار الكريمة في خواتمها عتيقة، بلون القيح أو الدم المتخثر.

رفع الكلب رأسه، وحدجها بنظرة آمرة. أخبرتنا الدكتورة بأن هذا يعني أن أفكاره تحوَّلت نحو الطعام، وكان يشاركها نظامها الغذائي المكوَّن من شرائح لحم تارتار، والبسكويت الصغير الصلب المزيَّن بزهورٍ مصنوعة من السكر. وفي حين كان يزدري معظم أنواع المشروبات الكحولية، إلا أنه يقبل أحيانا كأسًا من الشمبانيا فائقة الجودة. بمجرد أن تعلو فرقعة السدادة الفلين، كان ينهض على قدميه وهو يتمايل على نحوٍ خطيرٍ بسبب وركه التالف. أخبرتنا الدكتورة أنه كلما كانت الفقاعات أصغر، كانت الشمبانيا أعلى جودة.

تبقى بعض حساء الحليب في الثلاجة، أعدَّته الفتاة التي بلا أسنان، وحثَّتنا الدكتورة على تجربته: "إنه يترك العقل صافيًا، ولا يسبِّب انتفاخ المعدة". اخترنا بدلًا من ذلك المعكرونة مع السردين المعلب.

خلال العشاء، أخبرت مينا الدكتورة عن الحجج التي ترغب في عرضها على جون بيرجر. سألتها الدكتورة: "ولماذا تستشيرين رجلًا بشأن الطريق الذي ستسلكينه في حياتك؟ اعتاد جميع أزواجي وضع

ثقتهم بالخرائط. كنّا نصل إلى مكان جديد، فيقف الزوج منهم على رصيف المحطة في محاولة لتحديد اتجاه الشمال، بينما أنطلق أنا في طريقي ببساطة". تأملتْ مينا، ثم تابعت الحديث: "ما الذي حدث للفتيات اللاتي في مثل سنِّك؟ إنكن تطاردن الرجال، بدلًا من التأكد من أنهم هم الذين يطاردونكن. وعلى الرغم من اهتمامك بالموضة، انظري إلى تلك الهيئة التي تبدو عليها ملابسك؛ إنها تشير إلى الافتقار الجوهري للخيال".

بدت مينا كما لو أنها تلقَّت صفعة. كانت ترتدي بدلة عمال لها لون أزرق داكن ملطخة ببقع الطلاء، اختارتها للتعبير عن التزامها حيال الطبقة العاملة، لكن ما أن انتهينا من تناول الطعام، بدأت تسحب الملابس من حقيبتها. ظهر معطفها الأخضر، وقميص صنعته من خلال تركيب النصف العلوي من قميص مخطط مع النصف السفلي من قميص منقوش بالمربعات، وقد خاطتهما معًا بغرزٍ زرقاء كبيرة. فرشت كل شيء على الأرض، ورتَّبت الملابس لتظهر كيف تتنافر مع بعضها. تفحَّصت الدكتورة كل شيء بعناية، ثم قالت أجل، تتمتع مينا بالذوق بالفعل.

بعد فترة من الوقت، صارت المجاملات بينهما متبادلة، وقالت مينا "الجوارب مع النعال رائعة للغاية". ثم شرعت توضح نظريتها بشأن تقبيح الملابس: "إنه شكل من أشكال التعقيد في الواقع، مما يجعله مناهضًا للسلطة. هل لاحظت كيف يحب الطغاة أن تكون الأشياء بسيطة؟". بعد ذلك بقليلٍ، سألتها الدكتورة: "هل تكرهين فريدا كاهلو؟"، فردَّت مينا: "بالطبع!". استلقيت على البساط بجانب الكلب النائم. قالت الدكتورة إنها لم تسمعه ينبح على الإطلاق، لكنَّ عواء مكتومًا أخذ يتصاعد منه الآن، وارتعدت سيقانه كما لو أن قطط العالم بأكمله تفرُّ أمام قوته.

وصل ديريك، وهو رجلٌ ضئيلٌ له شعرٌ مجعدٌ بلون أشقر رمادي، وبدا محشورًا داخل جلده. ارتدي سروالًا قصيرًا فضفاضًا، وحمل بيده زجاجة، وضعها على الطاولة الكائنة بجانب الباب، وعدَّل وضع سرواله وهو يصيح: "مرحبًا، مرحبًا، مرحبًا!". هل اعتاد تقديم التحية بهذه الطريقة دائمًا؟ سأل مينا: "كيف وجدتِ إيطاليا، يا عزيزتي؟ مختلفة بعض الشيء عن الوطن الشاسع؟".

عند الكشف له عن خطئه، نظر إليَّ ديريك، فظهر على وجهه التعجُّب، ثم تلته الحيرة. وخلال اللحظة التي دام فيها ذلك التعبير، أعلن بصراحة تامة كلافتة من النيون: "ليست أسترالية حقيقية". لم يسبق وأن رأيت ذلك التعبير في فرنسا، لأن الفرنسيين لا يعرفون شيئًا عن أستراليا، ولم يكونوا ليتعجبوا لو كانت بشرتي مخططة.

حيث إن ديريك تدرَّب على الدبلوماسية، فسرعان ما تمالك نفسه. أبعد دمية على شكل جيشا من فوق أحد المقاعد بضربة خبيرة من يده، ثم جلس مباعدًا ما بين ركبتيه. كرَّر تحيته مرة أخرى: مرحبًا، مرحبًا، مرحبًا! تلا ذلك الاستجواب المعتاد بخصوص كم من الوقت أمضيت هناك، ومن أين أتيت، إلخ. طوال حياته، ظلَّ ديريك يؤمن بشيء واحد فقط عن الأستراليين، والآن بدأ أشخاص مثلي يظهرون ويفككون هذا الاعتقاد. كيف لا ينظر إلينا بوصفنا مجرد حيلة للفت الأنظار؟ شعرت بالشفقة حيال ديريك، الذي كان عالقًا في شبكة عنكبوت الماضي، ونسخته المستقبلية ميتة، لكن في الوقت الحالي، جلب لنا زجاجة أخرى من الشمبانيا فائقة الجودة.

لم تكن الدكتورة تركب الحافلات على الإطلاق، إذ إنها "أسوأ حتى من الجمال"، لكن ديريك أكد لنا أن الحافلة المحلية ستغادر في ظهر اليوم التالي. أبدى حنانه حيال الدكتورة بشكلٍ متسلطٍ، وأخبرها أن

ما ترتديه في قدميها محض حماقة: "ستتعثَّرين فجأة على نحوٍ غير متوقعٍ وأنت ترتدين جوارب مع تلك النعال".

"الفن سحر أُنقذ من أكاذيب الحقيقة".

اتفق معها ديريك أن هناك شيئًا ما يلائم الجميع في أعمال أدورنو، واقتبس منه قائلًا: "يوجد الحب حيثما يمكن للمرء إظهار ضعفه، من دون أن يستفز ذلك الطرف الآخر لاستعراض قوته"، والتمعت عيناه بالدموع.

مدَّت الدكتورة يدها وأمسكت يده، وذكَّرته أن برنامج المسابقات المفضَّل لهما على وشك أن يبدأ. لماذا وجدتُ وجهها العريض الذي خطته التجاعيد باعثًا على الطمأنينة إلى هذا الحد؟ رفع دوندولو نفسه وترنَّح متجهًا نحو الباب، ووقف موليًا ظهره للباب بطريقة عفوية. قالت الدكتورة إن هذا يعني أنه يريد الخروج، فعرضنا أنا ومينا اصطحابه للتمشية. تبعنا صوت التصفيق الصادر من التلفزيون، وصيحات الدكتورة وهي تقول: "أحمق!"، بينما نحن في طريقنا للخروج.

كان هناك ممرٌّ من المجمع السكني، يمتد بطول الشاطئ الصخري. هبَّت الريح القادمة من البحر، وطيَّرت شعري في عيني، وظهرت نجمة أو نجمتان على ارتفاعٍ منخفضٍ. سألت عما إذا كان فيتوريو قد وعد حقًّا بالعودة لاصطحاب جينا لولوبريجيدا، لكن مينا أخذت تتأمل السماء: "انظري! أرواح أطفال موتى". عرج دوندولو وترنَّح خلفنا في الوقت الذي استغرقته مينا لتدخين سيجارة، وبدا الأمر كما لو أن كوازيمودو يتبعنا. تعالى هدير البحر مشجعًا إياه، فاختار صبارة تين شوكي ليقضي عندها حاجته، ثم استدار عائدًا نحو المنزل.

كنَّا سنشاركه غرفة نومه، المفروشة بوسائد أرضية وسجاد، وتعبق برائحة خميرة غنية. أخبرتنا الدكتورة أن اسمه ليس دوندولو في الواقع،

بل أتاها اسمه الحقيقي منذ زمن بعيد في واحدٍ من أحلامها: جلس والدها، الذي لم يدخن طوال حياته، على طاولة بجانبها، وخطَّ كلمة في بعض النبيذ المنسكب بجذع غليونه. لم يكن لديها أي فكرة عن كيفية نطق الكلمة أو ما تعنيه: "لكن بمجرد أن قابلت هذا الكلب، عرفت أنه اسمه. يمكن أن تكون الصلات الخفية هي أعمق نوع من الصلات". هل كانت الدكتورة فيلسوفة؟ دكتورة في الطب؟ عالمة أنثروبولوجيا؟ لم يخطر لنا أن نسأل عن السبب وراء لقبها. في أعيننا الشابة التي تفتقر إلى البصيرة، كانت شيئًا واحدًا فحسب: عجوزًا.

فردنا أنا ومينا أكياس نومنا، وبدأنا نبدِّل ملابسنا. قالت لي مينا: "لديك ثديان يشبهان ثديي حواء في لوحة كراناخ". بدت في حالة معنوية مرتفعة. كانت الدكتورة سترينا فساتينها الثلاثة التي من تصميم ماريميكو صباح اليوم التالي، لتنتقي مينا من بينها واحدًا لنفسها. أعلنت مينا قائلة: "أحبها!". مررت إحدى أذني دوندولو بين أصابعي، مما جعل أنفاسه تتباطأ، حتى بات زفيره نفثات صغيرة، وبدا أن هذا هو كل ما جرؤ على إظهاره للتعبير عن السعادة.

***

بعد أن غادرنا سردينيا، سافرت مينا إلى إنجلترا للانضمام إلى نيك، بينما قضيت بقية عطلتي في فلورنسا. في معرض أوفيزي، ذهبت للبحث عن لوحة كراناخ التي تصور حواء.

عقب عودتي إلى مونبلييه، وجدت نشرة إعلانية في صندوق بريدي. كانت نسخة مصورة على ماكينة تصوير لكف يدٍ، وقد برزت الخطوط البيضاء على خلفية الكف السوداء. كُتِب على إحداهما خط الحياة، بينما كُتب على الأخرى خط القدر. كما كانت هناك رسوم تصويرية أيضًا، على راحة اليد وعلى طرف كل إصبع: هلال،

والرموز الدالة على المؤنث والمذكر، وظهرت عبارة في الجزء السفلي تقول: "أراك لاحقًا!".

فكرت على الفور في ثرثرة رينالدي بشأن القدر، لكن بدا أن المنشورات الإعلانية تفوق حدود قدراته، إذ إنها انتشرت في كل مكان لفترة من الوقت: معلَّقة على مصابيح الإنارة، ومبعثرة في المداخل، أو ألصقتها الريح في الأعمدة. كانت هناك كومة صغيرة منها ذات مرة على طاولة المقهى الذي اعتدتُ ارتياده، فسألت المالك عنها، ولم يكن المالك يشبه ساندرين، لكنه ذكَّرني بها: الشفاه الجافة، والأعين المرحة في وجه خبر الحياة.

قال لي إنه وجد المنشورات خارج الباب ذلك الصباح، "ربما كان إعلانًا". بدا من الواضح أنه قارئ للكف، لكن لماذا لا تحمل المنشورات عنوانًا أو رقم هاتف؟ دار تفكير المالك على مستوى أعلى، إذ رأى أن المنشورات تهدف إلى إثارة الاهتمام بحدثٍ طليعي قادم: ربما مسرحية، أو فيلم تجريبي. كان هذا ما تعنيه العبارة المكتوبة: "أراك لاحقًا!". أكد لي أن أحد العملاء المعتادين بالمكان سيظهر ومعه تفسير. "سنكتشف كل شيء". لكن في المرة التالية التي ذهبت فيها إلى المقهى، لم يكن أحدٌ قد تقدَّم ليعلن مسؤوليته عن المنشورات، وألقاها المالك بعيدًا، حيث بات يشعر الآن أنها لا بد وأن تكون "مزحة من قِبَل بعض طلاب المدرسة الثانوية".

توقفت المنشورات عن الظهور، وطرأت على عقلي فكرة: لا بد أن أيًّا من كان المسؤول عنها، كان يتتبعني ويعرف أين أذهب. ظهرت المنشورات في أماكن كان من المؤكد أن أعثر عليها فيها، بالقرب من سوق السلع المستعملة، وفي شارع مينا، وعند محطات الحافلات بالقرب من المدرسة الثانوية، لكني أدركت أن هذا كان غباءً، فبالطبع لم أرها إلا في الأماكن التي أرتادها.

أتت عاصفة، جالبة معها ريحًا فضية عاتية، تركت الجو وراءها متقلبًا وعطرًا، ورفرفت بقايا نشرة إعلانية مهترئة على إحدى لافتات الطريق. خط الحياة، خط القدر، أراك لاحقًا! لم أستطع أن أقرر ما إذا كانت الرسالة مرحة، أم تنذر بالشؤم. بدت اليد صغيرة ورشيقة، يد امرأة باللونين الأبيض والأسود، مثل الغرير. الليلة التي طبخ فيها آل بيرتي غريرًا. وشبدت المنشورات مثل تلك الرائحة: شيئًا محيرًا، من دون تفسير.

***

لم يخطر لي أن أيًّا من هذا له أهمية كبيرة. انشغل تفكيري برسالة، موقعة باسم لوسيو، كانت في انتظاري في صندوق بريدي في المدرسة ذات صباح. بلغة إنجليزية مهلهلة، ذكَّرني لوسيو بأننا لعبنا لعبة سكوبا على متن عبَّارة، وكتب أن لديه "آمالًا عظيمة" للاشتراكية، ويفكر في المجيء إلى فرنسا للانتخابات الرئاسية في مايو، وسألني إذا كنت أرغب في رؤيته إذا جاء بالفعل.

سألتُ مينا: "هل تعتقدين أنه قاتلٌ متسلسلٌ؟".

"سيشكِّل مصدرًا كبيرًا للمتاعب إذا كان كذلك. كان بمقدوره خنقك على متن العبَّارة فحسب، ودفعك إلى البحر. لكن كيف عرف العنوان الذي يراسلك عليه؟".

"يبدو أننا جميعًا تبادلنا العناوين".

"أنت تعلمين أنه يريد مضاجعتك، وأعتقد أنه يمكن أن يقتلك بعد ذلك، أو قبل ذلك، إذا كان هذا هو ما يفضِّله. تذكري فقط أنني لن أكون في الجوار عندما تصرخين".

كانت الجولة الأخيرة من التصويت في الانتخابات ستُجرى في عطلة نهاية الأسبوع التي استمرت ثلاثة أيام، بمناسبة ذكرى انتصار الحلفاء على ألمانيا في الحرب العالمية الثانية. خطَّط نيك ومينا لقضائها في ليون، حيث يعيش أحد أصدقائهما.

انتشر ملصق الحزب الاشتراكي الذي ينتمي إليه ميتران في كل مكان في ذلك الوقت: قبضة يد وردية بلون لحم الخنزير، ملتفَّة حول وردة حمراء. وكان من المقرر أن يصل لوسيو يوم الجمعة، وهو اليوم الأول من عطلة نهاية الأسبوع الطويلة. في طريقي لمقابلته، قبلت وردة طويلة الساق عديمة الرائحة من ناشطٍ وقف يوزعها على سلَّم المحطة. كنت قد أرسلت إلى لوسيو بطاقة بريدية تتألَّف من جملة واحدة، وأرسل إليَّ هو بطاقة بها موعد قطاره. وعندما وصل القطار إلى المحطة، لم أكن أعرف أي من الإيطاليين سأراه. الطويل أم ذا النظارات أم الخجول؟ أدركت أن الوردة تشكِّل عبئًا غبيًّا. هل سيتعرَّف لوسيو على الشعار الاشتراكي؟ ماذا لو أخطأ الظن واعتقد أنها لفتة رومانسية؟ سيكون ذلك محرجًا أكثر بكثيرٍ مما لو كنت قد حضرت لمقابلته عارية. تفاديت المسافرين، وهرعت للبحث عن سلة المهملات. وفي النهاية، ألقيت الوردة على أحد المقاعد. عندما خلا رصيف المحطة، بقي فتى أسود الشعر يحمل حقيبة ظهر واقفًا بجوار آلة بيع. كان لوسيو هو الخجول، لكنه لم يكن خجولًا على الإطلاق في فراشي، وخلال الأيام الثلاثة التي قضيناها معًا، تعلمت عددًا غير قليل من الكلمات الإيطالية.

***

أقامت السينما آخر عرض لها قبل العطلة الصيفية: "فرابيه نعناع" للمخرج كارلوس سورا. كانت الشوارع التي سادتها الاشتراكية

حديثًا مظلمة عندما انتهى الفيلم، لكن السماء بدت غريبة وجميلة بلون أزرق مائل إلى الخضرة. بينما أنا أسير عائدة في طريقي إلى المنزل، تظاهرت أن لوسيو ينتظر في شقتي. انقضى أكثر من أسبوع منذ رحيله إلى الأبد، لكن الدفء كان لا يزال يغمر ثديَّ الصغيرين النافرين عندما أفكر فيه. اشترى لي باقة من زهور التوليب صباح يوم الانتخابات، وقد ذبلت وألقيتها بعيدًا بالفعل، لكنها بقيت متفتحة ويانعة في الذاكرة.

مرَّ نسيم هادئ بين الأشجار، وبدت رائحة الرطوبة في الجو. تمطعت خلايا جسدي كوحوشٍ تشعر بالرضا، وعندما اقتربت من التقاطع، ظهرت نجوم ضبابية على مبعدة. وصلنا أنا والشاحنة البيضاء عند إشارة المرور في نفس الوقت معًا. تحوَّلت الأضواء إلى اللون الأخضر، لكن لم تتحرك الشاحنة، ولم أتحرك أنا. كانت حقيبتي معلقة فوق كتفي بالعرض، فقبضت على سيرها المثبت به مشبك. كان داخلها مسدس أودري الجريئة: تلك اللعبة التي بلا فائدة. اركضي، أمرت نفسي، اركضي! لكنني وقعت في قبضة شعور عارم بالهدوء: كان ذلك الهدوء الذي يحلُّ بعد انقشاع الشعور بعدم اليقين مثلما ينقشع الضباب، حتى يلتمع بعدها بوضوحٍ الطريق إلى الأمام. بدا أن العام بأكمله كان يقود إلى هذه اللحظة، فكرت: ها هي الآن!

عادت الأضواء إلى اللون الأحمر، وحرَّرني ذلك التغيير، فهرعت عبر التقاطع، في مواجهة الأضواء، وحقيبتي تضرب فخذي. كان رينالدي خلف عجلة قيادة الشاحنة، والمرأة الشمعية متجمدة بجواره، ولم ينظر أيٌّ منهما نحوي، على الرغم من أنه كان من المستحيل ألا يلحظا وجودي. بدت أعينهما مثبتة إلى الأمام، كما لو أنها تتطلَّع إلى المستقبل. واصلت الركض، وفي أثناء الجري أدركت أن كوني جريئة ومثيرة وعصرية وذكية كلها أمورٌ لا صلة لها بالموضوع. الكلمة

الوحيدة المهمة هنا هي "امرأة". كان هذا هو السبب الذي اضطرني إلى الركض.

عندما سمعت أصوات آلات لعبة الكرة والدبابيس في المقهى الذي يعمل حتى وقت متأخر من الليل، توقفت عن الركض، ثم التفت خلفي نحو التقاطع وأنفاسي تمزق صدري، ولم يكن هناك شيء.

***

في المرة الأخيرة التي رأيت فيها ساندرين، دعتني إلى حفل زفافها، إذ وصلت أوراق رياض خلال ذلك الأسبوع. قالت: "الأوغاد يخشون العمال الآن، بعد أن وصل الاشتراكيون إلى الحكم، ويعتقدون أننا سنثور ونقطع أعناقهم". ثم ضحكت، وتابعت: "لا، أذهانهم أصغر من أن تتخيل ثورة، إنهم خائفون من أن نحرمهم من معاشاتهم التقاعدية".

أخبرتها بأنه في ليلة الانتخابات، كانت الأنوار مضاءة في كل غرفة في مقر الشرطة: صف فوق صف من النوافذ اللامعة، حتى السقف. قال شخص ما في الحشد: "لا بد أنهم يتصفحون جميع الملفات، ليتخلصوا من أي شيء يدينهم". تساءلت عمَّا إذا كان السيد بيسيه في مكتبه، يمزق الرسائل التي خُتمت بطابع "ملعون إلى الأبد"، لأن من كتبها أشخاص لم يحظ حرف L الذي يخطونه بالقبول.

في مساء يوم الأحد ذاك، ارتدينا أنا ولوسيو ملابسنا، وخرجنا عندما تعالت الصيحات والألعاب النارية. أخذ الناس يتدفقون إلى وسط المدينة، ودوت الأبواق من دون توقف، علامة للنصر، واندلعت الموسيقى من السيارات والمقاهي. عقدنا أذرعنا بأذرع غرباء، وانضممنا إلى سلسلة بشرية تعبر الطريق. تعالى هتاف: "لن يُهزم الشعب المتحد أبدًا!". لمحت ديتر، الذي صعد فوق قاعدة تمثال وأخذ يلتقط

صورًا للحشد. التفتَ عندما سمع صيحتي، لكن كان هناك الكثير من الأشخاص الذين يحولون بيننا، حتى انجرفنا أنا ولوسيو في الطريق.

تساقط المطر في زخات سريعة، فانعطفنا أنا ولوسيو إلى شارعٍ ضيقٍ، وصادفنا أدالبرت يحتمي في أحد المداخل. كان قد أقلع عن التدخين هذا العام، وبات وجهه محاطًا الآن بإكليلٍ صغيرٍ من الشحم. بدا أن الملازم الوسيم يفسح المجال لقائد فرقة في منتصف العمر، يداعب ذقنه المزدوجة وهو يوقع أوامر الإعدام.

أخرج أدالبرت محفظته وأظهر لنا صورة، وقال إن رامون مات. كلَّف إحدى الجارات بسقايته في عيد الفصح، لكنها لم تفعل، أو ربما أفرطت في الري، كان من الصعب معرفة أيهما. حاول أدالبرت رعاية رامون حتى يسترد عافيته، لكن بلا جدوى. بدا صوته ثابتًا، لكن وجهه أخذ يتشنج وهو يتكلم، وملأت الدموع عينيه. خفَّ هطول المطر، فحثثْتُه على القدوم معنا، لكنه رفض مغادرة المدخل الذي يقف فيه. بعد ذلك بسنواتٍ، ظهر أدالبرت أمامي، وهو فائق الوسامة ويثير الإعجاب بشدة. أطلَّ من إحدى النوافذ وهو ينطق عبارته الوحيدة خلال الفيلم: "يا له من خريفٍ رائعٍ، هذا الذي نتمتع به"، بينما كان اليهود خلفه يُسحَبون من داخل الخزانات ومن تحت الأسِرَّة.

بدت السعادة على ملامح ساندرين بدرجة لا توصف وهي تخبرني بأمر زفافها. تقرر أن يتم في يونيو، لكنني شرحت لها أنني لن أكون موجودة، إذ كنت ذاهبة بصحبة أصدقائي للتخييم لمدة شهر، وسأتوجه إلى باريس للانضمام إليهم في غضون أسبوع، في نهاية مايو. قالت ساندرين: "لكن سيفوتك موسم الفواكه الحمراء!"، وبدا في نبرتها الشعور بالصدمة، كما لو أن الاحتمال غير واردٍ. بدا الأمر سخيفًا، لكن غمرني إحساسٌ مروعٌ بأن شيئًا ما قد فاتني. تزاحم

في ذهني كل الوقت الذي قضيته في فرنسا وكل ما يحمله، الوجوه والشوارع والانطباعات والغرف، وانزلق أمامي بلا هوادة كما تُلمَح الحياة من القطار.

***

امتلأت الأيام المتبقية بالوداع، وبين كل وداع وآخر، انشغلتُ بحزم أغراضي وتنظيف شقتي. وفي يوم الأحد الأخير من الشهر، كنت سأذهب إلى سيت مع نيك ومينا، ونويت أن أستقل قطارًا متجهًا إلى باريس في تلك الليلة، بينما يتوجهان بالسيارة إلى إسبانيا في اليوم التالي.

في مساء الجمعة، عدت إلى المنزل في وقتٍ متأخرٍ بعد عشاء وداع تناولتُ فيه الكثير من الشراب مع ديتر ومعلمين آخرين من المدرسة. حملت مفاتيحي في يدي، وركضت صاعدة الدرج بخفَّة، مرورًا بباب رينالدي الصامت. عبق السلم برائحة دخان السجائر، لكنني كنت قد اقتربت بالفعل من المنعطف الأخير في الدرج حينما أدركت ما يعنيه هذا. نهض رجلٌ من على سلَّم دورة المياه. قال نيك: "ظننتُ أنك لن تعودي إلى المنزل أبدًا، أين هي؟ ماذا قالت لكِ؟". انطفأ الضوء. حتى إذا بقيت هناك إلى الأبد، فلن أعتاد النور على ذلك السلم وتحولاته التي تتسبب في توقف قلب المرء. واصل نيك الحديث في الظلام قائلًا: "عليك أن تخبريني أين ذهبت".

بمجرد دخوله، طلب كوبًا من الماء. جلس على طاولة المطبخ، والكلمات تتساقط منه، من دون أن يلمس المياه. عاد إلى المنزل منذ يومين، ليجد أن مينا قد رحلت، وقالت الرسالة التي تركتها إنها راحلة لتكون بمفردها، ولتحدد ما تريد أن تفعله في حياتها، ولم تكن تريد

رؤيته خلال الصيف، وعليه ألَّا يحاول العثور عليها. سأل مرة أخرى "أين هي؟".

حاولت أن أفهم أن مينا قد رحلت، غادرت بلا كلمة أو إشارة إليَّ. في عطلة نهاية الأسبوع، قمنا بزيارتنا الأخيرة لسوق السلع المستعملة، وارتدت مينا جوارب لامعة، وحذاء دوك مارتينز، وفستان طفلة بأكمام منتفخة، بعد أن خاطت في جوانبه أشرطة من قماش متنافر لتوسيعه. لفتت انتباهها في أحد الأكشاك صدرية طويلة رثَّة، مخطَّطة باللونين الأزرق والبرتقالي، ولها أزرار معدنية. ارتدتها فوق فستانها، وكانت النتيجة قبحًا خالصًا، لكنها لم تشترِ الصدرية. عرفت السبب الآن: كانت ستمثِّل شيئًا آخر إضافيًّا تضطر إلى تركه خلفها عند رحيلها. لماذا لم تسر إليَّ بما انتوته؟ "أريدنا أن نبقى معًا دائمًا". ألم تكن هي التي قالت ذلك؟ محادثاتنا المطولة، وأودري الجريئة، وسردينيا، كل هذا انزلق وسقط من حافة الهاوية. قلت لنفسي إن أيًّا من ذلك لم يكن له أهمية بالنسبة إليها. تشوَّش عقلي بفعل النبيذ والشفقة على الذات، ولم يكن هناك أي نبيذ في متناول اليد... سهو غبي.

كانت هناك قطعة من خبز الباجيت القديم على الطاولة. مزَّق نيك قطعة وأكلها، ثم أكل قطعة أخرى. وجدت قطعة من الجبن البري في الثلاجة، ووضعتها أمامه مع سكين. عندما سألته لماذا استغرق الأمر يومين ليخبرني عن مينا، قال: "اعتقدت أنها ستعود، إذ لم تأخذ ملابسها". ثم أضاف بنبرة مختلفة: "ملابسها اللعينة!". حشر في فمه قطعًا ضخمة من الخبز والجبن، وبين كل قضمة وأخرى، تغيَّر صوته، كان الصوت يتهم مينا بالأنانية والكذب، ثم يتحدث عن الخسارة. بدا صوتًا متناقضًا، وقال: "إنها لا شيء بالنسبة إليَّ، وهي كل شيء". وكان كلا التصريحين صحيحين.

تحدَّث الصوت عن رجل في ليون. كان بيت يُعِد فيلمًا وثائقيًّا عن العمال المهاجرين هناك، واعتقد الصوت أن مينا ذهبت إليه، "لقد رأيت الطريقة التي تنظر بها إلى بيت. إنه من ذلك النوع الهادئ، وهو يتصف بالضحالة، لكنه وسيم، سأعترف بذلك".

إلى أي مدى كان يتعيَّن على مينا توضيح ما تريده، حتى يصدقها؟ قلت: "لقد أخبرتك بأنها تريد أن تكون بمفردها، لماذا تتخيل أنها مع شخص آخر؟ إنها ليست طردًا يتم تبادله". قبل أن أنتهي من الحديث، شرعت أتثاءب، وتداخلت كلماتي. مينا ونيك ... لقد سئمت من كليهما، لكن نيك على الأقل، يمكن الاستفادة منه. سرى نفس الطنين الخافت الذي سمعته في غرفة جمال: كان صوت دمائي وهي تجري في عروقي، فدفعت مقعدي إلى الخلف، وقلت: "من الأفضل أن تأتي معي، سأذهب للنوم".

***

لم تكن هناك ملاءات على سريري، إذ أعدتهم إلى مدام بيسيه ذلك الصباح. قبل ذلك، أخذتهم إلى المغسلة حيث تم غسلهم وتنشيتهم وكيهم، قبل ثنيهم ولفهم بورق أبيض كالثلج. أعلنت المديرة وهي تضع اللفافة على الطاولة: "سبعة وأربعون فرنكًا". سبعة وأربعون فرنكًا! كم كلَّفتني تلك الملاءات على مدار العام؟ حاولت استرداد بعض الأرباح، حتى ولو مجرد في صورة مجاملة لذوق امرأة ميتة، وقلت: "إنها رائعة، أليس كذلك؟".

كشَّرت المديرة، وبدت وجنتاها مخضبتين بالحمرة، لكنني أرجعت السبب في ذلك إلى الحرارة في المغسلة. أخبرتني أن العمال لا يمكنهم تحمُّل تكلفة الكماليات، لكن هناك من يلقون بالمال كما لو أنهم يلقون بالكلمات المنمقة. أدركت أن وجهها تخضَّب من أثر الانفعال.

كانت تخاطبني من عام 1789: صار الباستيل عبارة عن أنقاضٍ حديثة، والدوقات ترتجفن في مخابئهن داخل خزائن المكانس. قالت المديرة: "أصبحت الأمور مختلفة الآن، وسيتعيَّن على الأغنياء توخي الحذر". انتشرت التصريحات في كل مكان بأن العالم انقلب رأسًا على عقب، في تلك الأسابيع المثيرة التي أعقبت الانتخابات، "لقد تغير كل شيء"، و"لم يعد شيء مثلما كان في الماضي". وكانت نبرة الصوت تتغيَّر تبعًا للمتحدث: مرحة، أو تحمل التهديد، أو تنذر بالشؤم. غادرت المغسلة في دوري الجديد كعدوة للشعب، وتبعتني المديرة إلى الباب ووقفت هناك عاقدة ذراعيها. راقبتني وأنا أصعد إلى منصة الإعدام، ملفوفة في ملاءة مطرَّزة بالأحرف الأولى لاسم أحدهم.

نمنا أنا ونيك على مرتبة عارية ليلة الجمعة، وكيس النوم في متناول يدنا لنتغطى إذا شعرنا بالبرد. رحل في وقتٍ مبكرٍ من اليوم التالي، وحزمت آخر صندوقين من أغراضي، وأخذتهما إلى مكتب البريد. كانت تحتوي على ملابس شتوية، وروايات، وعلبة "مطهو مرتين" منقوشة بالزهور، ودبوس كُتب عليه: "نووي؟ لا، شكرًا"، مع صورة شمس مبتسمة. هناك واحد من هذين الصندوقين لم يصل إلى سيدني قطُّ. فقدت معطفي الدافئ، وبطاقة رونيس، والفستان ذا اللمسة الفنية الذي صنعته لي مينا.

عاد نيك ليلة السبت ... بالطبع عاد. استيقظت في وقتٍ مبكرٍ جدًّا من يوم الأحد، وسمعته يتمتم في أثناء نومه. في المطبخ، شربت كوبًا من الماء، وأنا أشاهد أول آثار من الضوء في السماء، "لا حاجة إلى العجلة، لا حاجة إلى التألّق". تعلمت ذلك أيضًا من المكتبة الأمريكية، كهدية أخيرة. فكرت أن مينا كانت من النوع المتألق. لم يكن هناك سبب يمنعنا أنا ونيك من الذهاب إلى سيت من دونها لزيارة قبر فاليري. عند التفكير في الماضي، تتضح لي رغبتي التافهة في إظهار اختلافي عن مينا: أنا التي كنت على دراية بالأدب الفرنسي، مثل نيك.

تباطأنا في النهوض من الفراش ذلك الصباح، كما تباطأنا في ارتداء ملابسنا. لكن النهار بدا ساطعًا كالقصدير، ولم تكن سيت بعيدة. حملت حقيبتي على كتفي، ونزلنا الدرج. صدرت جلبة من شقة رينالدي: أصوات رجال، وطرقات، وما يمكن أن يكون أبوابًا أو أدراجًا تُغلق بعنفٍ. بدا الأمر كما لو أن لصوصًا صاخبين يفتشون المكان. تمنيت ذلك، لكن ربما كان رينالدي سينتقل من سكنه أخيرًا، ولديه أشخاص للمساعدة.

في الردهة، أسقطت مفتاحي في صندوق بريد آل بيرتي وفقًا لتعليمات السيد لافال. بدا صمتهما مخيبًا للآمال، ألم يدركا أنها فرصتهما الأخيرة في الضحك؟ قلت لهما بتعجرفٍ: "لقد فاتتكما الفرصة".

توقَّف نيك خارج بنايتي السكنية لإشعال سيجارة. حتى في ذلك اليوم الصيفي، ظلَّت رائحة الأحجار الباردة واضحة. نظرت إلى شقتي من الجانب البعيد من الشارع، حيث أغلقت مصاريعي الزرقاء قبل دقائق، وكانت المرأة الشمعية تبتسم لي من الأعلى. رأيت وجهها في نافذة دورة المياه، التي كانت أعلى من أن يُركب فيها مصاريع أو يطل منها وجه. قال نيك: "ما الأمر؟"، وأمال رأسه إلى الخلف ليطل على شقتي. لكن لم يكن هناك أحد عند النافذة، بل مجرد بقعة من ضوء الشمس على الزجاج.

هبَّ نسيمٌ منعش خلال السيارة بينما كنَّا نسرع عبر الساحل، كما لو أن الإلهة تمرِّن رئتيها. التمع البحر كالبصاق، واكتست كل الأمواج الصغيرة بالدانتيلا. لا أستطيع أن أحدِّد متى تمامًا أدركت أن تلك النزهة كانت خطأ. غنَّى نيك "ذات صباح مخملي..."، نسي الكلمات، ثم صمت. كانت مينا هناك على أي حالٍ، تقضم أظافرها في المقعد الخلفي، وهي غير مرئية، مرتدية ملابس غريبة، وتطرح أوامر صامتة. لا بد أنها هي ونيك قالا لبعضهما تلك الأشياء التي

يقولها الأشخاص الواقعون في الحب. ولا بد أنهما ظنّا أنهما فريدان، يختلفان عن أي عشاق آخرين في التاريخ. بعد يومين من رحيلها، تبعني إلى فراشي. وبينما هو يتأرجح بداخلي، قال إن هذا هو ما أراد فعله منذ أن رآني أول مرة، وكان لوسيو قد قال الشيء نفسه. تساءلت عمَّا إذا كانت فتاة إيطالية قد رحلت، ولم تترك له سوى رسالة، كما تساءلت عما إذا كانت تقضم أظافرها.

في سيت، ازدحمت المطاعم على طول الواجهة البحرية بالعائلات. في النهاية، وجدنا طاولة تحت المظلة. قال النادل، وهو يستعد لأخذ طلبنا: "سيدي، سيدتي، أنا مصغٍ إليكما". أحضر لنا قنينة من النبيذ الأبيض المثلج بينما كنّا ننتظر طعامنا. ماذا سيحدث لو كتبت اسمينا في التكثيف الظاهر على الزجاج، وأحطتهما بقلبٍ به سهم؟ رأيت نفسي أهرع على رصيف محطة ممتد إلى ما لا نهاية، محاولة التخلص من وردة حمراء ذات دلالة. كان الجنس مجرد حجة بالنسبة إلى شخص مثلي، تخفي الرغبة في العواطف. شرع عازف أكورديون أشيب يتحرك ببطء عبر الشارع، ويتوقف عند الطاولات. أخذ يعزف "موسم الكرز"، وكانت تلك الأغنية، المرتبطة بكومونة باريس، شيئًا آخر سمعناه في كل مكان خلال تلك الأسابيع من شهر مايو. لا أعرف لماذا، لكن الكرز الذي تصفه الأغنية بدا كأنه قطرات من الدم. قيل إنها تلهم الأمل، لكنها بدت أغنية عن الهزيمة.

مدَّ نيك يده إلى أسفل المنضدة، وتسلَّلت أصابعه أعلى ساقي. صارت بشرته مسمرة من الشمس مرة أخرى، وبدا أنحف وأكثر صلابة. تناولنا الطعام في صمتٍ. سيدي، سيدتي، أنا مصغٍ، لكن لم يكن هناك شيء ليسمعه. صرنا زوجين منهكين بعد ستة وثلاثين ساعة من رفقتنا، من دون كلمات نتبادلها. كان أهم ما يشغل بالنا هو الجنس، ومينا: ولم يكن أولهما يتطلَّب الكلام، بينما لم نستطع الحديث عن ثانيهما. بدا ماضينا ملغمًا بالفخاخ، لذا فتشت في المستقبل، وسألت

نيك إذا كان سيعمل على روايته خلال الصيف. قال: "أوه، لقد أخبرتكِ عن ذلك إذن؟". بدا مسرورًا، كما لو أن ذلك يثبت أن مينا لطالما كانت خبيثة. ظهر الصوت المتناقض: لم تحترم مينا كتاباته قطُّ، وكان مفهومها عن الأدب هو مجلة "ذا فيس". كانت طفلة مدلَّلة نشأت أمام شاشة التلفزيون، وتضع الصور في مرتبة أعلى من الكلمات. كانت أفعى، وكانت طائر سنونو. بكى الصوت: "ماذا سأفعل من دونها؟". في الفراش، تحدَّث نيك عن عائلته، قائلًا: "نحن من الطبقة المتوسطة الآن، لكن جدي الأكبر كان صيادًا. ذهب إلى البحر عندما كان في التاسعة، وهناك صورة له واقفًا على صندوق خشبي: مجرد صبي خائف". أخبرتني الطريقة التي قال بها "صبي خائف" أنه يتحدث عن نفسه.

عندما مسحت نفسي في مرحاض المطعم، خرجت الورقة وبها كتلة خيوط بيضاء لزجة، كما كانت هناك بقع لامعة على فخذي، حيث جفَّت قطرات من السائل المنوي. استحممنا أنا ونيك ذلك الصباح، ثم اتفقنا: "مرة أخيرة".

بعد الغداء، توجهنا إلى "المقبرة البحرية"، المسماة على اسم قصيدة فاليري الشهيرة. في موقف السيارات عند سفح التل الذي تقع عليه المقبرة، تبادلنا القبلات مرة أخرى. اتكأت على الإلهة، وامتزج في فم نيك نكهات النبيذ والطماطم والسجائر، وعلى نحوٍ خافتٍ للغاية، بشكلٍ فائق الجمال، نكهتي أنا.

في كوخ الحارس، تسلَّمنا خريطة توضح مكان قبر فاليري، وانطلقنا في طريقنا في ممرٍّ صاعدٍ إلى الأعلى. انتشرت أشجار السرو الداكنة، أكثر الأشجار بسالة، تحرس المكان. كانت هناك مقبرة تطل على البحر في سيدني أيضًا، وكان للموتى هناك نفس المقابر البيضاء، كما للسماء نفس الزرقة الحادة. لكن الحشائش والأعشاب المزهرة تفجرت من

تلك القبور في سيدني، وقطعت الممرات بينها، بينما هنا، تآمر الطوب والأسفلت الذي لا تشوبه شائبة لسحق الحياة الأبدية. ظلّت مينا تلاحقنا بهتافها الساخر: بول سيليري.

عثرنا على قبر فاليري عقب صعودنا إلى الأعلى ونحن نتصبَّب عرقًا. حتى تلك اللحظة، كنَّا نولي ظهرنا للمنظر، لكننا جلسنا الآن لبعض الوقت على حافة قبره الرخامي، نشاهد ما رآه هو: القوارب البيضاء مثل الحمائم، والبحر المتقلب. بينما كنت أستريح هناك والموت قريب في كل مكان، شعرت بالكبر لأن جسدي ينبض بالحياة.

أخذ نيك يحاول أن يتذكر كيف تبدأ قصيدة "المقبرة البحرية". تلا قائلًا: "هذا السقف الهادئ، حيث تسير الحمائم، بين أشجار الصنوبر..."، ثم بدا كما لو أنه علق. قال: "الجزء التالي هو بين القبور، لكنْ هناك فعل قبل ذلك". ضيَّق عينيه في وهج الشمس، وكرر قائلًا: "بين أشجار الصنوبر، بين أشجار الصنوبر...".

قلت: "الكلمة هي يختلج، يختلج بين أشجار الصنوبر".

وجَّه إليَّ نيك نظرة من الدهشة الخالصة، استمرت ثلاث ثوانٍ، بدت كما لو أنها دهرٌ. قال: "بالطبع"، ثم استدار ليواجه المشهد مرة أخرى. تابع قائلًا: "أحسنت". جفل البحر، وظل الضوء يتراقص. بدا كالضوء المنعكس من على سكين العربي عند ذلك الشاطئ في رواية "الغريب". من يستطيع القول ما إذا كان العربي حاصلًا على شهادة في الفرنسية، ويستطيع تلاوة فاليري عن ظهر قلب؟ المؤكد هو أن مورسو لم يكن يتوقع ذلك السكين، مثلما لم يتوقع نيك أن يجد شخصًا مثلي على دراية بخبايا القلب التاريخي.

بدأ كفُّه ينفرد وينغلق فوق ركبته، ينفرد وينغلق. ربما أخذ يحسب إذا كان هناك ما يكفي من الوقت لمرة أخيرة -لو اختبأنا خلف الشجيرات، أو على المقعد الخلفي الساخن بالسيارة- لكنه

على الأرجح كان منشغلًا بتوجيه الاتهامات إلى مينا. كانت موجودة بسروالها المصنوع من قماش الترتان، واقفة على سطح أحد المدافن وهي تتجاهله. همست إليَّ وسط طنين حشرات الزيز: "لدينا عمل يجب القيام به، فنحن فتاتان في مواجهة العالم، أتذكرين؟". الشيء الذي ظلَّت مينا تنساه هو أن واحدة منَّا فقط تمتلك بشرة لها أجمل لون. يمكننا استعادة الليل، والسير جنبًا إلى جنب، وكان لهذا أهمية كبيرة، لكن هل يمكن أن يصبح ذلك كافيًا على الإطلاق؟

أما بالنسبة إلى نيك، فهنيئًا له القلب التاريخي: كان مكانًا باردًا ومخيفًا، وغير مناسب لشخص مثلي، لكنني سأستمر في تفتيشه رغمًا عن ذلك، بحثًا عن لوحات كراناخ، وآثار رواية "المدعوة"، وقصائد فاليري، وزقزقات الطيور ساعة الظهيرة، ولن يوقفني أي شيء، سواء مسدس أو نظرة. كنت جريئة ومثيرة وعصرية وذكية، وسيضطر التاريخ إلى الركض حتى يتمكَّن من مواكبتي.

***

كنَّا أربعة فقط في المقصورة، بالقطار المتوجه إلى باريس تلك الليلة. تمددت امرأة وابنتها الصغيرة على أحد المقاعد الطويلة المكسوة بالفينيل، بينما ارتحنا أنا ورجل عجوز قدر استطاعتنا على المقعد الآخر. نمت نومًا عميقًا ونحن نتمايل وسط الظلام، وعندما استيقظت، كنَّا على مسافة أربعين دقيقة خارج حدود باريس. رحل الرجل، تاركًا وراءه نسخة من صحيفة "ميدي ليبر"، وتكوَّمت المرأة بجوار النافذة، غارقة في النوم، كما كانت ابنتها نائمة أيضًا، ورأسها في حجر والدتها.

أخذت الحقيبة التي تحوي ما أحتاج إليه للاغتسال، وغادرت المقصورة. وعندما عدت، وجدت الطفلة قد اعتدلت جالسة. من

أسنانها الأمامية الضخمة، خمنت أنها في السابعة من عمرها. رأتني أنظر إليها، فدفعت كلتا يديها في شعرها ورفعته، بحركة تشبه امرأة بالغة. تحركت والدتها بجانبها وتثاءبت. مددت يدي نحو الصحيفة المهجورة وقلبتها، فأطلّت أجمل امرأة في فرنسا مبتسمة تحت أحد العناوين: "جريمة مروعة في كلارينساك". أخبرني الصحفي أن جثة ماريان ساجارا المشوَّهة عُثر عليها في أرض قاحلة بالقرب من قرية على بُعد أربعين كيلومترًا من مونبلييه، بعد أن ظلّت في عداد المفقودين منذ أكثر من أسبوع، واحتجزت الشرطة مشتبهًا فيه، ومن المتوقع حدوث تطورات أخرى.

علمت أن عائلة ماريان ساجارا هاجرت إلى فرنسا من مالي. كانت في الرابعة والعشرين من عمرها، ومخطوبة لجندي. ربما أكون مخطئة في هذه التفاصيل. كان كل ما يمكنني رؤيته وأنا أقرأ هو تقاطع طرق، ولافتة هناك تشير إلى الطريق المؤدي إلى كلارينساك، وشاحنة بيضاء مترددة عند إشارة المرور. بين الحين والآخر، أتساءل عمَّا إذا كانت الطفلة ذات الشعر الأسود الكثيف تسأل والدتها: "هل تذكرين تلك الفتاة في القطار؟ التي بدت كأنها فقدت شيئًا حيويًّا؟". لكن في تلك الأيام، كنت أومن أننا يمكن أن نترك الماضي وراءنا، مثلما نترك بلدًا من البلاد. اعتقدت أن هذا الصباح المشرق كان بداية حياة جديدة. ظهرت أولى بنايات سكنية ذات أسقف أردوازية بجوار شريط القطار. حملني القطار قدمًا، وتغيَّر كل شيء من اللون الياقوتي إلى اللؤلؤي.

***

وصلتني رسالة في أوكسفورد ذلك الشتاء. وصلت إلى سيدني، ثم أرسلتها والدتي عبر نصف الكرة الأرضية. كانت مينا تعيش في نيويورك، وقد أمضت الصيف في اليونان، حيث تعاونت مع مجموعة

مـن الأمريكيـين الذيـن قابلتهـم في جزيـرة، واسـتأجروا منـزلًا أبيـض بـه شـجرة تـوت. ثـارت عاصفـة عندمـا كانـت مينـا عـلى مـتن عبَّارة، وعانـت دوار البحـر بشـكلٍ لا يوصـف. انقلبـت العبَّارة، واعتقـدت أنهـا سـتموت، حتـى أنقذهـا قـارب صيـد، وانسـلخ جـزء مـن جلـد مقدمـة سـاقها خـلال ذلـك. حـارب اليونـان الفاشـية بشـجاعة غـير مسـبوقة، لكنهـم اتصفـوا أيضًـا بالقسـوة غـير المـبررة ضـد الحيوانـات. ولـو كان بحوزتهـا مسـدس، لـدارت مينـا تطلـق النـار عـلى كل الـكلاب المضروبـة المقيـدة بالسلاسـل. دفعتهـا الأيقونـات إلى الشـعور بالرغبـة في ممارسـة الرسـم، بينـما جعلهـا نـوع حلـوى اسـمه بوجاتسـا تؤمـن بالجنـة. تألَّفـت رسـالتها مـن العديـد مـن الصفحـات الصفـراء المسـطرة، لكـن في المجمـل كان هـذا مـا يـدور حولـه حديثهـا.

ثم كتبت:

حملـت خـلال الصيـف السـابق لمونبلييـه، حيـث عملنـا في فنـدق في تولـون: كان نيـك نـادلًا، بينـما أنـا أسـاعد في المطبـخ. وفي فـترة مـا بعـد الظهـيرة، بـين نوبـات العمـل، كنَّـا نسـتلقي في غرفتنـا في العليـة ونتجـادل. لكـن الأسـوأ مـن ذلـك هـو عندمـا كان الصمـت يشـتد مثـل الحـرارة. كانـت الحـرارة أشـد مـن أن يرتـدي المـرء ملابسـه. أبقينـا المصاريـع مغلقة، لكننـي أذكـر وجـود قضبـان مـن الضـوء والظـلال عـلى أجسـادنا، كـما لـو أن هنـاك سـتائر معدنيـة عـلى النافـذة. لا بـد أن ذلـك كان حلـمًا. كنَّـا في شـهر أغسـطس، وانتابنـي الشـعور بالإعيـاء معظـم الوقـت. وفي أحـد الأيـام، أعطـوني كومـة مـن الخـس كي أغسـلها وأعدَّهـا للغـداء. قطعـت كل الحـواف الداكنـة، وألقيتهـا بعيـدًا، إذ ظننـت أنهـا تالفـة، عـلى الرغـم مـن أننـي كثـيرًا مـا أكلتهـا في السـلاطات. قالـت شـارلوت بيريانـد إنـه في كل قـرار مهـم هنـاك خيـار واحـد فقـط يمثِّـل الحيـاة، وقـال نيـك إنهـا عـلى حـقٍّ، قـال إننـا يجـب أن نختـار حياتنـا، لا أن نتخـلى عنهـا بسـبب خطـأ.

في النهاية، زرت طبيبة لترتيب عملية إجهاض. ساورها القلق بشأن ضغط دمي، كما لم أكن أعرف فصيلة دمي، مما أصابها بالدهشة، فأرسلتني إلى عيادة لإجراء فحص دم. إنهم يعشقون فحوصات الدم في فرنسا، إلى درجة أنني أشعر بالدهشة أن الشعب الفرنسي بقيت لديه أي دماء. في العيادة، اضطررت إلى خلع كل ملابسي في غرفة مليئة بالنساء الأخريات، وارتداء رداء المستشفى. ثم اضطررنا جميعًا إلى الانتقال إلى غرفة مختلفة، حيث كانت هناك حواجز للسيطرة علينا وإبقائنا في طابور مثل الماشية. واحدة تلو الأخرى، مدَّت كل امرأة ذراعها من خلال فتحة في الحاجز، بينما شخص غير مرئي على الجانب الآخر يتولى سحب الدماء. عندما جاء دوري، تجاوزت الحاجز وغادرت المكان.

في تلك الليلة، تعرضت للإجهاض. لم تكن آلام التشنجات أسوأ بكثيرٍ من دورة شهرية مؤلمة. نظرت إلى الأسفل، ورأيتها هناك في الحمام: لم يكن الرضيع الذي قضيت تسعة عشر يومًا أتخيَّله سوى مجرد بضعة كتل حمراء متخثرة.

كُتِب عنوانها في شارع بليكر، من دون ذكر أي شيء عما تفعله مينا هناك، ومن دون كلمة واحدة للسؤال عني. لكنها أرفقت مع الرسالة صورة لأودري الجريئة. عندما أخرجت تلك الصورة منذ عدة أيام، رأيت وجه طفلة مترقبة. لست متأكدة ما إذا كنت سأتعرَّف عليها، إذا اقتربت مني في الشارع، حاملة مسدسها على أهبة الاستعداد، تواجه العالم بثوبٍ محكمٍ عند الخصر، له تنورة واسعة. استخدمت مينا فيلمًا باللونين الأبيض والأسود، لكنها لوَّنت ثوبي باللون الذهبي. احتفظتُ برسالتها طوال هذا الوقت، لكنني أسقطتها الآن في سلة المهملات. دومًا ما كانت مينا توقِّع اسمها وتستخدم دوائر صغيرة، بدلًا من النقاط. وعندما سألت السيد بيسيه عما يعنيه ذلك، قال إنه يدل على النرجسية والخيال الجامح والكرب الكامن.

أحيانًا يدفعني صوتٌ أو إيماءة ما إلى التفكير في مينا، فأرى غديرتيها أو معطفها البرتقالي الهامس. يمرُّ ذلك في ذهني في لحظة، محمول على شريط من الضوء الأزرق الفاتح. هل أخبرها نيك عنَّا؟ قال وهو جالس فوق قبر إنه ملأ حقيبتين بملابس مينا، وتركهما في الشارع مع ماكينة الخياطة الخاصة بها. لم يكن الصوت المتناقض هو الذي قال ذلك، بل صوت متعب وبلا رحمة. تزوج نيك من فتاة قصيرة وذكية ونبيلة ورقيقة، كانت تحلم بتوفير مياه الشرب النظيفة للأفارقة، أو إنقاذ نوع من القوارض مهدَّدة بالانقراض، لكنها قنعت في النهاية بالعمل في وظيفة مكتبية. أسعدها نيك في الفراش، وأصابها بالقلق في كل مكان آخر. لكن كل هذه مجرد أوهام، إذ لم أسمع منه مرة أخرى على الإطلاق. مينا هي الشخص الذي أفتقده: علَّمتني أن اللون الوردي الساخن هو في الواقع لون محايد، كما علَّمتني أن أظهر وجهي.

في صيف عام 1983، كنت في باريس بهدف إجراء بحث. فتحت الراديو ذات ليلة، فوجدت كلاوس نومي يغني "كسوف كلي". عقب انتهاء الأغنية، أعلن منسق الأغاني أن نومي قد مات. دارت أحاديث هامسة متوترة في كل مكان عن مرض يقتل الرجال المثليين. كنَّا أنا وديتر قد تبادلنا بعض البطاقات البريدية، لكن مرَّت شهور منذ آخر تواصل لنا. شعرت أن الفترة التي قضيتها في مونبلييه كانت منذ زمن بعيد جدًّا، إلى درجة أنها بدت كما لو أنها تنتمي إلى كتاب قرأته ذات مرة. في الشقة المقابلة لشقتي، كان هناك طفلٌ يصرخ. انشغل والداه بحفل غداء على شرفتهما، وتجاهلاه تمامًا. تسبَّب إحساس بالبرد في وقوف شعر ذراعي. كان ديتر يحتضر، وبدا أن الطفل يؤكد ذلك، وهو يبكي بمفرده في الظلام. في اليوم التالي، اتصلت برقمه الهاتفي في برلين الذي كان بحوزتي، لكن المرأة التي أجابت الهاتف لم تسمع عن ديتر من قبل.

من على هذه المسافة، بدت صور لوسيو التي أحملها في ذهني تندمج مع صور نيك. يستلقي رجلٌ نحيلٌ على وسادتي، شاعرًا بالرضا، ولديه أذنان كالزهور ... أيهما يكون؟ كان لوسيو بالتأكيد هو من اشترى لي زهور التوليب. قال إن لونها الوردي المشوب بالأرجواني يذكِّره بفرجي. كلما رأيت تلك الدرجة من اللون الوردي، أرى الجو ممطرًا، ولوسيو بداخلي، ولو أدرت رأسي سأتمكَّن من رؤية إبريق مليء بزهور التوليب، وطبق زبدة.

لم أذكر كيف أضفى المطر بريقًا على الشوارع المرصوفة بالأحجار في تلك الليلة في العاشر من مايو، عام 1981: الليلة التي منحت ميتران قصر الإليزيه. تحوَّلت مونبلييه إلى لوحة صينية، كلها ألوان رمادية شاحبة. سرت نسمة خفيفة لطيفة، وعلا صوت أغنية "منفعل تمامًا" من مقهى حيث كان الناس يرقصون، وامتد الراقصون إلى ساحة بها نافورة وشجرة. كانت واحدة منهم امرأة أحاطت رأسها ببتلات صفراء من قماش التافتاه، وطارت تنورتها كرذاذٍ من النافورة، وأخذ باسكال يقذفها ويجذبها ببراعة ويسرٍ. ما زالت ديب ترسل إليَّ في كل عيد ميلاد بطاقة مليئة بالأخبار. كما خططت تمامًا، حصلت على مهر، وأنجبت ثلاثة أطفال: اثنين من أنجوس، وواحدًا من أقرب صديق له. وهي تدير مزرعة عضوية في كنت الآن، ووجهت إليَّ الدعوة للإقامة هناك.

في وقتٍ متأخرٍ من ليلة الانتخابات، تجمَّع حشدٌ عند نقطة المراقبة في ممشى دو بيرو. عندما انضممنا إليهم أنا ولوسيو، نقر أحدهم على ذراعي. لا أعتقد أن فيليبي عرف اسمي على الإطلاق. في المرة الثانية التي تحدَّث فيها معي، كان صريحًا ومحايدًا، تمامًا مثلما كان في المرة الأولى. تصادف وجودي هناك فحسب، عندما انعكس أخيرًا ذلك الفيلم الذي ظل يدور خلف عينيه باستمرارٍ. طارت

شقيقته من البئر بأقدام ممدودة، ولم يولد فرانكو قط. قال فيليبي: "لقد انتظرت هذا اليوم طوال حياتي".

كان هذا ما بدا عليه العالم عندما كنت في الثانية والعشرين من عمري. هتفنا: "لن يمروا!"، واعتقدنا أن الوحوش قد هُزمت. في كل مكان حولي، أخذ الناس يشعلون أعواد الثقاب والقداحات التي رفعوها عاليًا، مئات من ألسنة اللهب الصغيرة المرتجفة. بدؤوا في غناء نشيد الأممية، وغنى لوسيو بالإيطالية، في نشازٍ تامٍّ. على مسافة بعيدة، ظهرت أضواء صغيرة كرؤوس الدبابيس وسط واجهة ضخمة: أمسك السجناء في القلعة بأعواد الثقاب أمام نوافذهم. عندما رأيت كل تلك الأضواء المرتعشة تجيب بعضها بعضًا وسط الظلام، فكرت في بستان تلبسته نفحة حياة جديدة، على شكل زهور بيضاء. كانت واحدة من تلك الروابط الغريبة التي تلائم الأحلام، لكنني لم أشك أبدًا في وجود البستان بالفعل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة

أدب أسترالي حديث

ميشيل دي كريتسير

ترجمة: إيناس التركي

وحوش مخيفة

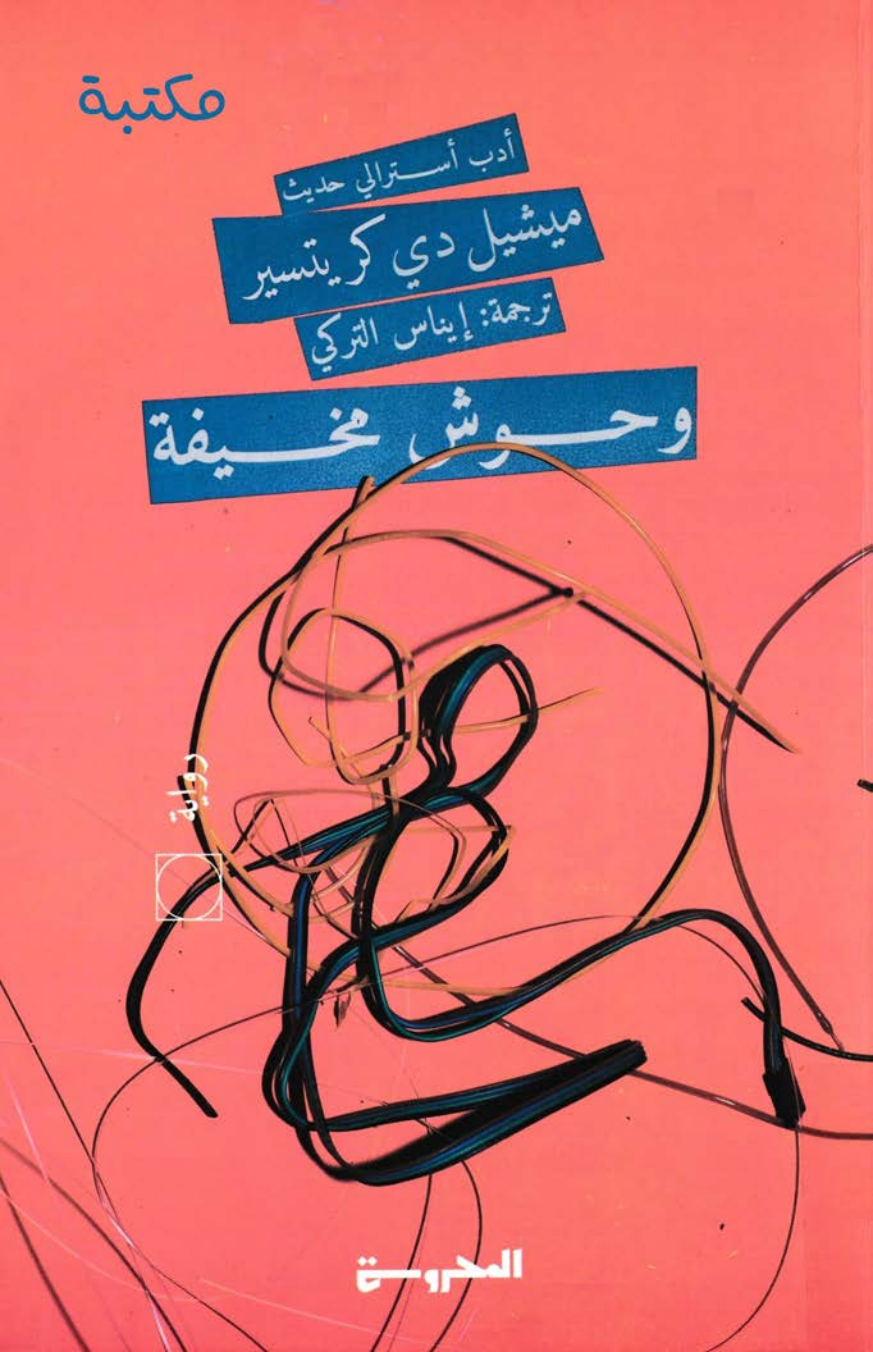

رواية

المحروسة

لايل

مكتبة
t.me/soramnqraa

انشغلت بالتفكير مؤخرًا في يوم وفاة آلان. كبر في السن، وعثرنا ذات صباحٍ على قطراتٍ متناثرة فوق الأريكة. كان ما تعيَّن علينا القيام به مؤلمًا، لكن كما أشارت شانيل، فهذا من أجل آلان نفسه. شانيل هي التي تستشرف الأحداث، وتتولَّى وضع الخطط، وتأخذ زمام المبادرة في جميع قراراتنا، سواء كانت كبيرة أو صغيرة.

جاء آلان ليعيش معنا عندما كان سيدني في السادسة. بينما نحن عائدون إلى المنزل من الحديقة يوم السبت، رأينا فريزر يخرج من منزله الواقع على بُعد أربعة أبواب من منزلنا في سبومانت كورت، وقد رُفِعت عنده لافتة تعلن أنه للبيع، كُتِب على اللافتة: "هنا بيت يتسع لأفراح عائلتك وأحزانهم".

ركض نايكي وآلان خارجين إلى الفناء، وتجاوزا فريزر. كان سيدني في نفس الفصل الدراسي مع نايكي، وأخذ الاثنان يتسابقان، ويصدران أصواتًا كالسيارات على نحوٍ هامسٍ. تجاذبت أطراف الحديث مع فريزر، الذي حمل مضرب تنس، وظلَّ يسدد الضربات لكرة غير مرئية بينما نحن نتحدث.

خلال العشاء، ذكرت أن جيراننا سينتقلون للإقامة في بيرث. قال سيدني: "لن يذهب آلان، بل قال نايكي إنه سيذهب إلى المزرعة، حتى يتمكَّن من اللعب مع الحيوانات الأخرى".

أطلقتْ ميل ضحكة خافتة.

قال سيدني: "ماذا؟".

قالت ميل: "سيدني غبي. أنت غبي جدًّا، يا سيدني، ولا تعرف أي شيء".

قالت شانيل: "لا تتحدثي مع أخيك هكذا".

واصلت ميل قائلة: "إنه غبي جدًّا، فهو لا يعرف حتى ماذا يعني الذهاب إلى المزرعة".

نظرنا جميعًا إلى ميل، التي غرست ملعقتها في البطاطس المهروسة، ودفعتها إلى صلصة الطماطم، وبدأت في نشرها بدواماتٍ حمراء وصفراء. لطالما كانت مبدعة للغاية. أبقت عينيها برموشها الطويلة كالسرخس مصوَّبة إلى الأسفل، وقالت: "سوف يقتل الطبيب البيطري آلان، وسيدني هو الشخص الوحيد في العالم كله الذي لا يعرف ذلك، لأنه غبي".

كان عشاء سيدني عبارة عن قطعتين من الخبز المحمَّص بزبدة الفول السوداني. رفض تناول أي شيء ذلك العام، سوى ما أسماه "الخبز المحمص مع زبدة الفول السوداني حتى الحواف". بينما كنَّا نراقبه، حوَّلت التجاعيد جبهته إلى حقلٍ صغيرٍ محروث، وسقطت دمعة على المنشفة تحت ذقنه. كان قد بدأ يزعجنا للحصول على حيوانٍ أليفٍ بمجرد أن تعلَّم الحديث.

كما علقت شانيل عندما ناقشنا الأمر في الفراش، فمن المفيد تعلُّم تعبير جديد. كنَّا نتحدث الإنجليزية بطلاقة بالفعل عندما وصلنا إلى أستراليا، ولكننا لم نتمكَّن دائمًا من فهم ما يقال هنا. "الذهاب إلى المزرعة"، من كان يمكنه تخمين ما يعنيه هذا حقًّا؟

استطردت شانيل: "الجميع هذه الأيام لديهم حيوانات أليفة أنقذوها، وإيرين لديها كلب بودل بثلاث أرجل. هل لا يزال آلان يمتلك أرجله الأربع؟".

"كان يمتلكها عصر اليوم".

"سأرسل رسالة إلى فريزر على أي حال. يمتلك الكثير من الأستراليين كلبًا أو قطة، وكان علينا اقتناء حيوان أليف في وقتٍ سابقٍ قبل هذا".

وهكذا أصبح آلان جزءًا من عائلتنا. عندما كانت شانيل تعمل في "مؤسسة الآخر"، كانت إيرين هي مديرتها، التي تمثِّل دليلًا موثوقًا حول كيفية معالجة الأمور هنا. قالت إيرين إنه من المقبول جدًّا إطعام آلان في الصباح، وتركه بالخارج للترفيه عن نفسه في الفناء. قالت لشانيل: "هذا الأسلوب يُسمَّى أطلقه وانساه". لم ينبح آلان كثيرًا حينما كنَّا نخرج صباحًا ونتركه بمفرده، إذ أَلِف أسلوب الحياة هذا.

بعد ذلك، انضمَّت آيفي إلى أسرتنا. آيفي هي والدتي، وقد اعتادت إبقاء آلان في الداخل طوال الوقت. حاولتُ أن أشرح لها أسلوب "أطلقه وانساه". علا صوت نشرة الأخبار، وشرع المتحدث الرسمي للحكومة المختص بخطاب الكراهية يخبرنا لماذا كان من الضروري احتجاز طالبي اللجوء الذين يحاولون تخطي الدور في جزيرة بعيدة عن الشاطئ إلى الأبد. قالت آيفي: "أعتقد أن هذا أيضًا يُطلَق عليه أسلوب أطلقه وانساه".

لكنني استطردت في الحديث بعيدًا عن موضوعي بخصوص اليوم الأخير لآلان. بدأ عقلي يظهر هذا الميل إلى ممارسة الألاعيب. احترق مصباحٌ ذات مرة، وعندما جلبت مصباحًا جديدًا من الخزانة، وجدت مكتوبًا عليه "أبيض دافع"، وفكرت كم هذا غريب، قبل أن أدرك أنها "أبيض دافئ". لا بد أن هذا بسبب الإجهاد من كثرة العمل، إذ إنني بتُّ أبقى في القسم حتى وقتٍ متأخرٍ أكثر وأكثر هذه الأيام.

من الطبيعي أننا لم نقل شيئًا لميل وسيدني بشأن ما يتعيَّن علينا القيام به. حلَّ يومي المرن في العمل، وكان صباحًا شتويًّا مشرقًا. كان الطفلان في المدرسة، لذا لم يتبقَّ في المنزل سوى آيفي. وجدتها جالسة في الجانب المشمس من الفناء ووجهها مرفوع نحو السماء، وبجانبها أنبوب كريم واقٍ من الشمس بمعامل حماية 73، وآلان على حجرها.

هذه ميلبورن: بلغت الحرارة ثلاث درجات في الخارج. ارتدت آيفي حذاء برقبة طويلة ماركة "أج"، وقبعة صغيرة، وسترة مبطنة بالريش، وقفازات. دائمًا ما كانت تشعر بالبرد، وتسبب ذلك في صعوبات عندما أتت للعيش معنا. بعد فاتورة الكهرباء الأولى لفصل الشتاء، اضطررتُ إلى الإشارة إلى أننا لا يمكننا الاستمرار في تشغيل التدفئة من أجلها فقط. كان عليها إطفاؤها عندما يتوجه الطفلان إلى المدرسة، ثم تشغيلها عقب عودتهما إلى المنزل. وعندما أقول "الإشارة"، أعني أنني كنت لبقًا في ذلك. تركت الفاتورة في مكان ظاهر، وتحدثت عن تكلفة التدفئة في العام السابق، وكيف ندفع الآن مبلغًا أكبر بكثيرٍ. حينها بدأت آيفي تخرج في أيام البرد، وتعبر المدينة على متن الحافلات والقطارات. ذهبت إلى أماكن لم يكن لدينا أي فكرة عنها: ألتونا، وبرونزويك! قبل خروجها، كانت تأخذ آلان في نزهة طويلة، حتى إنه أصبح ينام لساعات عقب العودة إلى المنزل، والآن بعد أن كبر وأصبح يئن عندما يُترك بمفرده، صارت تبقى معه مهما كان الطقس.

قلت لها: "حان موعد تطعيم آلان".

"هل أنت متأكد؟".

"لديَّ على هاتفي الرسالة التي تذكِّرني بالأمر".

مع تقدُّمها في السن، صارت آيفي تعاني ارتخاء في جفن إحدى عينيها، وبات نظرها غائمًا. حينها كانت عيناها لا تزالان واسعتين

ورماديتين، مما يعطي الانطباع بأنها تقضي وقتها وهي تتأمَّل الأفق. اعتادت شانيل القول إن عيني آيفي تجعلها تبدو كما لو أنها غبية، لكن آيفي يمكنها أن تكون في غاية الذكاء. للحظة، خشيت أن تصر على الذهاب إلى الطبيب البيطري معي، لكن آيفي لا تحب الأطباء البيطريين، فهم يشبهون الأطباء بدرجة أكثر من اللازم. بدا خوفها من مهنة الطب أمرًا غير منطقي على الإطلاق. تقول: "ماذا يعرف الأطباء؟ إنهم لا يعرفون إلا عن الدم، ومُقل الأعين، وما هو داخل رئتيك. ليس لدينا ما يقوله بعضنا لبعض". منذ فترة طويلة في وطننا الأم، عانت آيفي من حصوة في الكلى، وعندما أجروا الجراحة أخيرًا، وجدوا الحصوة كبيرة جدًّا إلى درجة أنها عُرضت في متحف طبي. قال الجراح إن الألم كان لا يمكن تصوره، وقد تحمَّلته آيفي لمدة خمسة أشهر بدلًا من استشارة الطبيب.

قالت آيفي: "فتى شجاع"، ثم قبلت الفراء الأبيض الشبيه بالزنبرك فوق رأس آلان، وأنزلته عن حجرها.

عندما عدت إلى المنزل، وجدت آيفي في المطبخ. رأتني أحمل مقود آلان وقد تدلَّى من طوقه الخالي، فترنَّحت جانبًا كما لو أنها تلقَّت ضربة. أخبرتها بالحكاية المريحة التي أعددناها أنا وشانيل. قلت إن قلب آلان توقف في اللحظة التي رفعه فيها الطبيب البيطري على الطاولة. "كان الأمر سريعًا وهادئًا للغاية".

قالت آيفي: "كان يجب أن أعرف؛ أظهرت بطاقات اللعب هذا الصباح بطاقة الأربعة البستوني، الدالة على الخداع".

قلت لها: "كان هذا من باب الرحمة، وأنت نفسكِ تعرفين كم صارت حركة آلان ثقيلة. هكذا لم يطُل الأمر، ولم يعانِ من الألم. كل ما حدث هو لصالحه".

قالت آيفي: "تقصد لصالح أريكتك".

تحدثت كما لو أني لا أكنُّ أي مشاعر لآلان، لكنني لم أنسَ أبدًا تلك المرة التي تحدث فيها سيدني عنه في المدرسة. قالت معلمته: "أوه، لديكم كلب؟ لسببٍ ما، اعتقدت أن عائلتك مسلمة". شعرنا بالخوف عندما سمعنا ذلك، فماذا لو ارتكب الآخرون نفس الخطأ؟ اخترنا أنا وشانيل صورًا للطفلين وهما يحتضنان آلان لشاشات هواتفنا المحمولة، واشترينا لافتة لبوابتنا كُتب عليها "احذروا الكلب". عقب حظر الإسلام وما تبع ذلك من اعتقالات، من يدري ما هي الصعوبات التي كان من الممكن أن نتعرض لها، لولا آلان؟ بالطبع حزنت عندما آن أوان رحيله.

تذكرتُ للتوِّ أنه عقب صدور الحظر، أخبرت آيفي الطفلين أن لا أحد يمكنه حظر الهلال، وقالت إن المسلمين سيتمكَّنون من النظر إليه ليستمدوا الشجاعة من رمز إيمانهم. اضطررنا إلى تحذير الطفلين من تكرار هذا الهراء لأي شخص. هذا هو نوع الأشياء التي تعيَّن علينا أن نتحمَّلها من آيفي على مرِّ السنين.

كان ما أخبرتها به عن آلان صحيحًا تمامًا، إذ كان الأمر هادئًا جدًّا عند النهاية، وتفهَّم الجميع في العيادة شعوري، وشغلت الممرضة موسيقى ناعمة مهدئة للأعصاب. أخذت الطبيبة البيطرية آلان بعيدًا لتركيب الكانيولا من دون أن تزعجني. وبعد أن انتهى الأمر، قالت إنه يمكنني الجلوس مع آلان بقدر ما أحب، وقدَّمت لي الممرضة كوبًا من الشاي.

الشيء الذي ما زال عالقًا في ذهني، حتى بعد كل هذا الوقت، هو عودة آلان إلى الغرفة والكانيولا في ساقه القصيرة، بعد تثبيتها في مكانها بشريطٍ متعدد الألوان، أحمر، وأصفر، وأخضر، بدا زاهيًا بجانب فرائه. لا بد أنه اعتقد أنه سيقضي اليوم في العيادة عندما اقتادوه بعيدًا، كما حدث مرة أو مرتين من قبل عندما لم يكن على

ما يرام. عندما وجدني في انتظاره، خفض أذنيه على سبيل التحية، ورفع رأسه وأسرع في خطوه، وبدا شجاعًا للغاية، وهو يهرول نحو الموت بألوانه المبهجة المعلَّقة على ساقه.

***

كان صباح يوم الاثنين، وأنا في مقهى "ذا كوفي سبوت"، الكائن في مركز التسوق الذي نرتاده، على بُعد مسافة قصيرة سيرًا على الأقدام على الجانب البعيد من طريق بلو نون. اعتدتُ المجيء هنا في أيام العمل المرنة منذ سنوات. بدأ الأمر عندما صمَّمت شانيل أن عليَّ الانضمام إلى صالة الألعاب الرياضية. جادلتُها أن الكثير من الرجال الأستراليين لديهم كروش، لكن شانيل قالت إن ذلك أكثر ندرة في مستويات الإدارة العليا. إنها أكثر طموحًا مني، وهذه هي النقطة الوحيدة التي لدينا فيها وجهات نظر مختلفة. قالت لي: "روس أحمق، وأنت بنفسك تقول ذلك، كيف إذن يكون مديرك، وليس العكس؟". إنها تعرف الإجابة كما أعرفها أنا: صهر روس هو وزير في الحكومة، لكن هذا لا يهمني، لأنني أعتقد أنه من الأفضل بالنسبة إلى الأشخاص الذين مثلنا ألَّا يطمحوا للوصول إلى مراتب عالية. فهذا يتسبَّب في إثارة الأحقاد، وجذب الانتباه غير الضروري. كانت نصيحتي الدائمة للولدين هي: ادرسا بجدٍّ كافٍ للوصول إلى المراكز العشرة الأولى، لكن ليس بدرجة زائدة عن الحد بحيث ينتهي بكما المطاف في المراكز الثلاثة الأولى. هذه هي وصفتي للسعادة. في العمل، أسعى جاهدًا لأكون غير مميزٍ، ولا غنى عني. إن كفاءتي المتواضعة التي لا تشكِّل تهديدًا لأحدٍ تحظى بالتقدير من قِبَل الإدارة، ولا أطمح فيما يزيد على درجة إدارية متوسطة، حيث صنعت لنفسي مكانًا. في أثناء مراجعة الأداء في العمل، قالت لي مديرتي السابقة ذات مرة: "أتدري يا لايل، أنت تفتقر إلى الرغبة في التنافس". كانت تحاول تحفيزي، لكنني

اعتبرتها مجاملة. ففي أثناء عمليات إعادة الهيكلة، يتم الاستغناء عن أولئك الذين يتسمون بالرغبة في التنافس. تتفهَّم شانيل حذري هذا، لكنه يثير سخطها، فهي من ذلك النوع من الأشخاص الذين يرفعهم ذكاؤهم وحماسهم إلى مراتب عليا. كما يدخل في الأمر أيضًا عامل الشركة التي تعمل بها، وهي شركة متعددة الجنسيات، تكافئ موظفيها على الإبداع وانعدام المبادئ، والاهتمام بالصحة الجسدية والرشاقة، وطعن الزملاء في ظهورهم.

لإرضاء شانيل، اشتركتُ في صالة الألعاب الرياضية المحلية. لكنني دائمًا ما كنت أتجاوزها في طريقي وأتوجه مباشرة إلى الجلوس في "ذا كوفي سبوت" بدلًا من ذلك. تقع طاولتي المفضَّلة في الركن الأيمن، بالقرب من حوض العصاريات البلاستيكية، وإذا وجدتها مشغولة، آخذ الطاولة المقابلة لها جهة اليسار. لكن في صباح يوم الاثنين، من المرجح أن يكون العملاء الآخرون القليلون أمهات شابات ومعهن أطفال في سن ما قبل المدرسة، وهن يفضِّلن الطاولات الأكبر حجمًا في المنتصف، حيث يمكنهن الالتقاء معًا، وهناك مساحة لعربات الأطفال والمقاعد المرتفعة. وإذا تصادف أن لم يكن أيٌّ من الطاولتين المفضَّلتين لي متاحًا، كنت أعتبر ذلك إشارة إلى وجود متاعب قادمة في طريقي.

إبَّان طفولتي، أحببتُ إحصاء عدد طيور المينا التي تنقر العشب أمام منزلنا: "واحد للترح، اثنان للفرح"... يغني الأستراليون هذه الأنشودة لطيور العقعق، لذا أفعل الشيء نفسه الآن. هذا الصباح، كانت هناك سبعة طيور عقعق في طريق بلو نون، "سبعة لسرٍّ لا يُباح به البتة". كان هذا فألًا حسنًا، علاوة على أن طاولتي في "ذا كوفي سبوت" كانت شاغرة. رفعت دلما حاجبيها عندما رأتني، وهززتُ لها أصابعي في المقابل. جلبت لي اللاتيه والكرواسون باللوز بمجرد جلوسي تقريبًا. سألتني: "كيف حالك اليوم؟ بخيرٍ؟"، ولم يكن الرد مطلوبًا، وهذا هو ما أقدِّره في دلما. يشعُّ منها الدفء، ويستمتع المرء بالقرب

منها من دون الاضطرار إلى تقديم أي كشف حساب. قد تكون دلما أصغر مني بعشر سنوات، أو أكبر بعشر سنوات. تتحرك في المكان بكفاءة، لكن من دون تعجُّل. قد يحدث أحيانًا أن يقلب طفل كوبًا من العصير، أو يضرب طفلًا آخر في عينه، فتأتي دلما على الفور وهي غاية في الهدوء، تمسح ما انسكب، وتهدئ الموقف، وسرعان ما ينتهي الاضطراب من قبل أن يبدأ حتى.

كان هناك رجلٌ عجوزٌ اعتاد المجيء هنا كثيرًا، يحب الجلوس بالقرب من ماكينات القهوة، وعصاه معلقة على ظهر كرسيه. اعتاد الجلوس هناك فحسب، وفنجانه أمامه، محدقًا إلى الأمام مباشرة. لا تستعجل دلما أحدًا بالرحيل، لذلك كان من الممكن أن يجلس هناك طوال اليوم. أشعرني منذ البداية بعدم الارتياح، وكلما فكرت فيه، تخيَّلته مرتديًا روبًا منزليًّا من قماش بني منقوش بالمربعات، به بقع مائلة إلى الاصفرار، وبدا الأمر بمنزلة صدمة صغيرة دائمًا، حينما كنت أراه مهندمًا ويرتدي سروالًا وسترة صوفية.

فَقَدَ السيطرة على نفسه ذات يوم، وبدأ الأمر بأنين منخفض تحوَّل إلى نوعٍ من العواء، ثم صرخ قائلًا: "هذا مجرد مسمًّى آخر للقتل!". ثم أمسك بعصاه وبدأ في ضرب مهاجمين غير مرئيين. عَلِقَت العصا على كرسي، وقلبته. حضرت دلما في الحال، ولمست مرفقه، فألقى بعصاه، وبإشارة منها، أحضر النادل فنجانًا جديدًا من القهوة. همهم العجوز بسيلٍ من الكلمات، فرفعت دلما الكرسي الذي سقط وجلست عليه. وعندما رحلتُ، كانت لا تزال تمسك بيده عبر الطاولة، وسمعتها تقول له: "لقد حان الوقت كي تتألق"، هذا هو نوع الأشياء التي تتفوَّه بها.

قبل أن يصبح كل شيء إلكترونيًّا، كانت الإدارة تقدِّم لي تقويمًا مكتبيًّا به عبارات تحفيزية. كان أول ما أفعله عند وصولي إلى العمل هو

قلب الصفحة وقراءة رسالتي لهذا اليوم، كما يقرأ موظفو المكاتب في جميع أرجاء البلاد تلك الرسائل، ومع ذلك بدا أن كل واحدة تخاطب القلب الفردي. تحيا في دلما روح تلك الرسائل. تقول لامرأة شابة: "لقد قمت بعملٍ رائعٍ"، لأنها على وشك الإصابة باليأس بسبب طفلها الذي ألقى أكياس السكر على الأرض. نعود جميعًا من عند دلما شاعرين بالاطمئنان والانتعاش، ومسلحين للنضال بكلماتها.

وقعت حادثة الصراخ تلك قبل عدة أشهر، ولم أرَ الرجل العجوز منذ ذلك الحين. أتوق إلى سؤال دلما عمَّا قاله لها، أو إذا كانت تعرف ما حدث له، لكنني متأكد أنها لن تفصح عن شيء. إذا حصلتُ على أمنية، فسوف أطلب أن تجلس دلما قبالتي ممسكة بيدي، بينما أتخفَّف من كل ما يثقل ذهني، وفي النهاية، ستقول: "كل شيء يحدث، له سبب"، أو "لقد قمت بعملٍ رائعٍ": أي شيء أحتاج إلى سماعه، شيء عادي ولطيف.

***

أذكر عندما انضمَّ ماركوس إلى القسم، حيث عُيِّن لرئاسة فريق التكنولوجيا. كان ماركوس دنماركيًّا، وصل لتوِّه إلى أستراليا، من كان ليخمن ذلك؟ بدا ماركوس طويل القامة للغاية، ولديه شعرٌ أشقر غزير، ويتحدث الإنجليزية بطلاقة. طوال الطريق على متن القطار وأنا عائد إلى المنزل، شعرت بالحقد على الدنماركيين، فهم يمتلكون ما يتوق إليه كل مهاجر: الخفاء. لن يبصق أحدٌ على ماركوس في الشارع، أو يصرخ في وجهه من السيارة. وإذا انتشر وباء قادمٌ من الدول الاسكندنافية، فلن يرمي أحد حجرًا عبر نافذته، أو يضربه في القطار. ولن يضطر إلى إبقاء نظرته على الأرض في السوبر ماركت، لأن التواصل البصري يمكن اعتباره نوعًا من الغطرسة. يمكن أن يصبح

الدنماركي قائدًا لفرق كرة القدم، ويقرأ نشرة الأخبار المسائية، ويدير نُزُلًا في إحدى الطرق النائية، ولن يشك أحد في أي شيء.

لن يصبح الأشخاص الذين هم على شاكلتنا غير مرئيين أبدًا، لذلك يتعيَّن علينا بذل جهدٍ هائلٍ للتأقلم. استوعبت شانيل هذا قبلي بوقتٍ طويلٍ، وكما قلت، فأنا أحذو حذوها فحسب. فلتأخذ أسماءنا على سبيل المثال: لم نكن دائمًا شانيل ولايل. اختارت شانيل أسماء جديدة لنا بمجرد أن حظينا بالموافقة على طلب الهجرة، وهي ليست بعيدة عن أسمائنا الأصلية، التي بالكاد يمكننا تذكُّرها الآن. أوضحت شانيل أن الطريق للمضي قدمًا هو نسيان كل ما نتركه خلفنا. قالت: "لا تنظر إلى الوراء، هذا ليس أسلوب الحياة المتبع في أستراليا، إنها دولة حديثة تتطلَّع إلى المستقبل". لم أقدِّر قوة نصيحتها حتى رحلتي الثانية للعودة إلى الوطن.مكتبة سُر مَن قرأ

انتقلت أخت شانيل إلى العيش في الولايات المتحدة، واستقر والدها أيضًا هناك مؤخرًا. وكانت آيفي هي السبب الوحيد لعودتي أنا وشانيل إلى وطننا الأم في تلك المرة الأولى. كنَّا نفضِّل استكشاف أستراليا في إجازتنا، لكن آيفي أرادت رؤيتنا، ورفض زوج والدتي السفر. كان مريضًا بالفعل، ورفضت آيفي تركه. (لطالما كان يُطلق على آيفي هذا الاسم، بالمناسبة، إذ إن لديها أسلافًا مختلطون للغاية).

عقب وفاة زوج والدتي، عدتُ للمرة الثانية. كانت شانيل حاملًا بميل حينها، ولم يكن سفرها آمنًا. في اليوم التالي للجنازة، سمعت آيفي تنادي من الحديقة، "تعال إلى هنا، أيها الأمير الصغير!". لمسني بشدة استخدامها لاسم التدليل ذاك الذي يعود لأيام طفولتي، فابتسمتُ، ومشيت إلى الخارج، ووجدت آيفي تداعب قطة.

لا يمكن الجمع بين الماضي والحاضر، رأيت ذلك حينها. كانت شخصيتي القديمة الكاملة قد غابت إلى الأبد. تؤدي الهجرة إلى كسر

الناس، ونحاول إعادة تكوين أنفسنا في بلداننا الجديدة، لكن ثمة أجزاءً منّا اختفت. المهاجرون هم أشخاص يعانون فقْدَ بعض الأجزاء. وأولئك منّا الذين يفترضون أنه لا يزال من الممكن العثور على تلك القطع، ملقاة في الأماكن التي غادرناها، يصبحون أشخاصًا يحملون الحقائب، ويواصلون العودة بحثًا عن طرقٍ لسد الفجوات.

أما أنا، فلا أرتكب نفس خطئهم. أسدت إليَّ آيفي معروفًا، من هذه الناحية. عندما رأيتها تدلِّل تلك القطة، أدركت أن الماضي لم يعُد دليلًا موثوقًا به للمستقبل. حينها أصبحت إنسانًا عصريًّا. بدا الأمر مخيفًا، ثم فكرت، أيهما يأتي أولًا، المستقبل أم الماضي؟ من المؤكد أن الماضي لا يكشف عن نفسه بالكامل إلا عندما ننظر إليه من اللحظة الحالية. لهذا فأنا جالس في "ذا كوفي سبوت" اليوم، أستعرض كل شيء، على أمل أن تصبح رحلتي حتى هذه اللحظة واضحة.

***

كان والدي صحفيًّا، كما كان يكتب أيضًا مسرحيات عن العمَّال المضطهدين. التقت به آيفي عندما تقدَّمت لاختبار أداء دور في إحدى هذه المسرحيات، إذ إنها نشأت على مشاركة تلك القناعات السياسية. وقد تُوفي والدي عندما انزلقت سيارة لتصطدم بدراجته النارية في صباح يومٍ ممطرٍ، وكنت رضيعًا، ولا أتذكره. بعد ذلك بعامين، تزوجت آيفي من رجلٍ أنتج بعض مسرحيات والدي، وينتمي إلى نفس المجموعة الليبرالية ذات التفكير التقدمي مثل والديَّ. كان زوج والدتي يفوق آيفي في السن بكثيرٍ، وهو أرمل ثري لديه ابنتان مراهقتان. كنَّا أسرة هادئة، وعاملني زوج والدتي مثل ابنه، وأظهر لي كل احترام. لاعبتني أختاي غير الشقيقتين ودلَّلتاني، وصبَّتا في أذن آيفي كل الحكايات الدرامية من المدرسة، وحكايات الحب.

بعد وفاة زوج والدتي، قُسِّم الجزء الأكبر من ممتلكاته بين الفتاتين، لكنه ترك في وصيته نصيبًا وافرًا لآيفي أيضًا. حصلت على مبلغٍ كبيرٍ، ومحفظة استثمارية صغيرة جيدة للغاية، علاوة على راتب شهري. كما ترك لها زوج والدتي أيضًا منزلًا على قطعة أرض كبيرة في جزءٍ مختلفٍ من المدينة، وعند وفاتها، كان من المقرر أن تؤول تلك الممتلكات إليَّ.

أبلغنا زوج والدتي بهذه الترتيبات قبل سنوات. كنت صبيًّا حينها، وبدت لي ترتيباته معقولة وعادلة، لكنني تساءلت لاحقًا ما إذا كنت أستحق المزيد. عندما ذكرت ذلك لآيفي، أجابت بأن زوجها دائمًا ما أنفق عليَّ بكرمٍ، وكان ذلك صحيحًا. لقد أحزنه قرارنا بالهجرة، لكنه دفع أجر السفر، وأتعاب وكيل الهجرة، ووقف في صفنا ضد آيفي، التي كانت حانقة بشدة. أقول "قرارنا"، لكنها كانت فكرة شانيل بالطبع.

وعندما صارت آيفي أرملة للمرة الثانية، كانت ترى أختيَّ غير الشقيقتين كثيرًا في البداية. ثم انتقلت الكبرى إلى مدينة في الشمال حيث ذهب زوجها للعمل، ولم يترك هذا لآيفي سوى الفتاة الصغرى، التي تزوجت من رجلٍ لم نحبه جميعًا، وأخذ يشتبك مع آيفي في كل مناسبة. وبدافع من الولاء والكبرياء، أخذت أختي غير الشقيقة صفَّ زوجها، وبردت علاقتها مع آيفي. في هذا الوقت تقريبًا أجرت آيفي العملية الجراحية لإزالة حصوة الكلى، وبعد ذلك، ومن دون سابق إنذار، بدت عجوزًا. ذات يومٍ، بدا ذلك واضحًا في صوتها وهي تنادي. وخلال فترة نقاهتها، ساورها القلق بشأن المستقبل، من سيتولى رعايتها؟ حثَّتها أختي الكبرى غير الشقيقة على الانضمام إليها، لكن آيفي رفضت العيش في الشمال لأن التلوث هناك كان بشعًا. وأظهر الزمن أن آيفي كانت محقَّة، فقد توفيت أختي غير الشقيقة في سن الخمسين بمرض في الجهاز التنفسي، وتبعها زوجها بعد فترة وجيزة.

كانا قد هربا من الشمال قبل بضع سنوات، لكن بعد وقوع الضرر بالفعل.

على أي حالٍ، كانت النتيجة أن آيفي جاءت إلى أستراليا للعيش معنا، وبدا هذا الترتيب مرضيًا للغاية في الواقع، إذا كانت تلك الأوقات عصيبة، حينما كنَّا أنا وآيفي نتعامل مع طفلين صغيرين، في أثناء محاولة ترسيخ مستقبلنا المهني. وبالإضافة إلى المساعدة في المهام المنزلية، اعتادت آيفي توصيل الطفلين إلى المدرسة كل صباحٍ، وجلبهما إلى المنزل عصرًا. وبعد انتقالهما إلى مدرسة أبعد، كانت شانيل توصِّلهما في الصباح، واضطرًا إلى ركوب حافلة للعودة إلى المنزل، لكننا ظللنا نعتمد على آيفي، إذ كانت تلتقي بالطفلين عند محطة الحافلات، وتتولى رعايتهما عند نهاية كل يوم.

صار الولدان في الحادية عشرة والتاسعة من عمرهما، عندما قررنا أنا وشانيل إرسالهما إلى مدرسة خاصة. أوضحت شانيل لآيفي: "نريد أن نوفِّر لهما أفضل تعليم ممكن، لهذا السبب أتينا إلى هذا البلد: كي نتمكن من منح أطفالنا الأفضل في كل شيء".

قالت آيفي: "ظننت أن هذا كان كي توفِّرا لأنفسكما الأفضل في كل شيء".

تتمتع شانيل بمخزون هائل من الصبر والمثابرة، فأجابت: "أنت على حقٍّ، هذا هو الأسلوب المتبع في إنجاز الأمور هنا، فلا يقنع الأستراليون أبدًا بما في حوزتهم، ودومًا ما يريدون -نريد- المزيد. نحن نطمح إلى ما هو أعلى، ونكافح، ويُطلق على هذا مسمى الطموح".

"كان يُطلَق عليه مسمى الجشع".

تتمسَّك آيفي بفكرة أن المشقة تمنح المرء ميزة أخلاقية، وهو موقف شائن بالنظر إلى أسلوب حياتها بعد زواجها من زوجها الثاني: منزل مليء بالأثاث الثمين الذي بدا كأنه ينظف نفسه بنفسه،

والوجبات التي تصل ثلاث مرات في اليوم بعد أن تحضرها أيدٍ خفية. وعندما انتقلت آيفي للإقامة هنا، سلمتها مفتاحًا للباب الأمامي، حدقتْ إليه بتعجبٍ. بدا الأمر غريبًا بالنسبة إليها، لأنه حتى ذلك الحين، كان هناك من يفتح لها الباب دائمًا. لكن آيفي أكثر ترفعًا من أن تكترث بالاتساق في المبادئ. في وطننا الأم، دومًا ما كانت تصوِّت لصالح الشيوعيين، وذلك على سبيل إظهار التقدير للموتى فحسب، ولا شيء أكثر من هذا. وليس لديها أدنى فكرة عن الحواجز الاقتصادية أو الاجتماعية، ويمكنها تبادل الحديث مع أي شخص. أما فكرتها عن الشيوعية، فهي غرفة كبيرة مبهجة مطلية باللون الأزرق السماوي أو الأخضر الباهت، حيث يتشارك الناس الطعام، ويتبادلون مناقشة الأفكار المثيرة والغزل. عندما كنت مراهقًا، سألتُ آيفي ذات مرة: "هل تعتقدين حقًّا أن الجميع متساوون؟"، فنظرت إليَّ متحيرة، وردَّدت لي نظرتها نفس ما يدور في تفكيري: "هل أنت أحمق؟".

على مرِّ السنوات، أعادت آيفي تشكيل صورة شبابها لتظهره كما لو كان عصرًا ذهبيًّا من التقشف والمثالية، "حينما كنَّا نقنع بالأشياء البسيطة، ولا نهتم إلا بالفن". وتعني بكلمة "الفن" مسرحيات والدي، التي عُرضت في مسرحٍ صغيرٍ خانق، مليء ببق الفراش، أما "الأشياء البسيطة" فيمثِّلها الفستان الأزرق الذي ارتدته عندما لعبت دور البطولة في العرض الأول. لعبت آيفي دور الوريثة التي طردتها عائلتها إلى الشارع، لقيامها بتشكيل نقابة للعمال في مصانع والدها. لاحقًا، وجدت الوريثة الحب الحقيقي مع ميكانيكي، وألقت خطبة في الجماهير حول المراحيض في الأحياء الفقيرة. وتحتفظ آيفي بجوار فراشها بصورة لها مرتدية الفستان الأزرق، ولن يصدق أي شخص يطالعها لمدة نصف دقيقة أنها تعرف أي شيء عن المصانع أو المراحيض أو الأحياء الفقيرة.

قلت لها: "في المدرسة المحلية، لا يتعلق الأمر فقط بنسبة الطلاب إلى المدرسين، ووجود عشرة دورات مياه لخمسمائة طفل. هل تعرفين ذلك الصبي الجديد في فصل ميل الذي يطلقون عليه اسم "حطة"؟ اسمه الحقيقي هو محطة الحافلة رقم 83. حملت به أمه هناك، على ما يبدو. لقد جاء من منطقة الإسكان الاجتماعي بالقرب من الطريق السريع، ولن تجدي أطفالًا من هذا النوع في المدرسة التي نفكر فيها".

قرأت شانيل من النشرة الدعائية بصوتٍ مرتفعٍ: "تقدم "فورتوناتاس كوليدج" ساحات عشبية خضراء، ومباني ذات أعمدة، تشجع على أفضل ممارسة للهدوء والفردية. وتستفيد الهيئة الطلابية المختلطة لدينا من مدرستنا التنفيذية (ميدان الرماية)، والمعمل الإبداعي (فن تخطيط الاستثمار)، ومركز التكنولوجيا (محطة طقس على السطح)، وحمام سباحة أوليمبي، وخمسة ملاعب كرة قدم مطابقة لمواصفات منظمة الفيفا، وملعبين لكرة القدم الأسترالية. في هذه البيئة الملهمة، يتحقق أفضل إنجاز في أحسن صورة ممكنة".

شغلتُ الفيديو الدعائي لمدرسة فورتوناتاس على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي. عندما تتحدث عن أيامها على خشبة المسرح، تقول آيفي بصراحة: "لم أكن بارعة بدرجة كبيرة"، فيعتقد الناس أنها متواضعة، لكنها تذكر الحقيقة فحسب. طُلب من والدي ذات مرة كتابة سيناريو فيلم. بدأ التصوير، لكن بعد ذلك انهار الأمر برمته، وهي واحدة من تلك الإخفاقات الشائعة في وطننا الأم. تمكَّن زوج والدتي من إنقاذ اللقطات التي تم تصويرها، وبعد سنوات شاهدناها معًا عصر أحد الأيام. بدت آيفي رائعة وفعلت كل شيء: استقلت قطارًا، ومسحت أنفها، وصفعت حبيبًا بمتعة كبيرة. كانت تمثِّل، وبدا من الواضح أنها تستمتع بالأمر.

لـذا كان كل مـا احتجـت إلى أن أفعلـه هـو أن أعـرض عـلى آيفـي ذلـك الجـزء مـن الفيديـو الـذي يظهـر صالـة العـرض متعـددة الأغـراض في فورتوناتـاس. تراجـع السـقف إلى الـوراء، وغمغـم صـوت المعلـق معلنًـا وجـود التكنولوجيـا المتطـورة، واختفـت حفـرة الأوركسـترا تحـت الأرضيـة المتحركـة. كاد أنـف آيفـي يلامـس شاشـة جهـاز الكمبيوتـر المحمـول. خمنـتُ أنهـا بدَّلـت ملابسـها وارتـدت فسـتانها الأزرق، ووضعـت نفسـها عـلى المسرح. كان شـعرها أسـود حريريًّـا، وتتحـرك بخفَّـة طائـر في الهـواء، وقـد أخبرهـا الكاتـب المسرحـي أنهـا تشـبه ليـز تايلـور. شـبكت يديهـا، وألقـت سـطورها كـما لـو أنهـا تخطـب في مظاهـرة: "فكـروا فقـط في طفـح تلـك المراحيـض! ألا تـرون أن هـذا القـذارة تشـبه حالـة قلوبكـم؟". وطـوال الوقـت، ظـلَّ كل رجـل في الجمهـور يفكـر في شيء واحـد فقـط: ثـوب أزرق ملقـى عنـد قـدم فراشـه.

مـن الأشـياء الرائعـة في أسـتراليا مقـدار المـال العـام الـذي تتلقَّـاه مدرسـة مثـل فورتوناتـاس. يحصـل الطالـب في المدرسـة الخاصـة عـلى تمويـلٍ حكومـي يبلـغ عـشرة أضعـاف مـا يحصـل عليـه الطالب في المدرسـة العامـة! لا يمكـن أن يحـدث ذلـك في وطننـا الأم. لكـن أسـتراليا مـكان يتسـم بالمسـاواة، فـلا يعـاني الأثريـاء التمييـز ضدهـم، ولا يُتركـون لتدبُّـر أمورهـم بأنفسـهم هنـا.

لكننـا لسـنا أثريـاء، للأسـف، بـل نحـن أسرة عاملـة عاديـة، ولا تـزال رسـوم المـدارس الخاصـة فادحـة التكلفـة. أعـدت تشـغيل الفيديـو، وعندما انتهـى، قلـت: "بالطبـع فـإن المدرسـة التـي لديهـا مثـل هـذه المرافـق باهظـة للغايـة، وسـنضطر إلى البحـث عـن مدرسـة أرخـص. ففـي النهايـة، تعتـبر دروس الدرامـا تشـتيتًا للانتبـاه عـن الدراسـة الجـادة". عـثرت عـلى ذلـك الجـزء مـن الفيديـو الـذي لـه صلـة بالموضـوع، وأعـدت تشـغيله مـرة أخـرى.

"كم يتكلف الأمر؟".

"أوه، لا يا آيفي، هذا غير مطروح للنقاش!".

"وما فائدة تلك الأساور والأشياء وهي موضوعة داخل درج؟".

كانت الأساور والأشياء هدايا من زوج والدتي، وأصرَّت آيفي على بيعها جميعًا. لم تحتفظ إلا بخاتم به نصف دائرة من الزمرد، كان من المقرر أن تمنحه لميل يوم زفافها. الشيء الغريب في مثل هذه المواقف هو أنني ما إن أكسب آيفي في صفي، حتى أشعر بالضيق، فقد جعلتني في موضع لومٍ. تفعل ذلك بشكلٍ غامضٍ، من دون نظرة أو كلمة. أطلقُ عليها في هذه المواقف آيفي السامة. ها هي تدفع نحوي عبر الطاولة صناديق جلدية وأكياسًا حريرية صغيرة، وأقسم إنها كانت تبتسم. لا تتمتع بأي عقل على الإطلاق! فابتسامتها هذه سلاح، تتوقع مني الأفضل.

خلال الوباء، أدرك مديرو مدينة ملاهي يابانية أن الصراخ على القطار الأفعواني يزيد خطر نشر العدوى، فطلبوا ممن يركب اللعبة: "رجاء، اكتفِ بالصراخ داخل قلبك". هذا ما يحدث عندما أواجه آيفي: تبتسم، وأبدأ بالصراخ داخل قلبي.

غطَّت مجوهراتها رسوم سنة واحدة، لطفلٍ واحدٍ، إلا أن آيفي تعتقد أنها تكفَّلت بتكاليف تعليم الولدين طوال فترة الدراسة، وتركناها تصدق ذلك، إذ إننا نتسامح معها دائمًا إذا استطعنا ذلك.

***

لم يكن اليساريون الذين قاموا بتربية آيفي يمتلكون الموارد المالية اللازمة لإرسالها إلى مدرسة مرموقة، ولا الشجاعة اللازمة كي يوكلوا تعليمها إلى الدولة. لذا انتهى بها الأمر في مدرسة الراهبات منخفضة

التكاليف، التي تديرها الراهبات الأنجليكان، وكان الشيء الوحيد المفيد الذي فعلوه هو تعليم آيفي الخياطة. وبعد أن أتقنت الخياطة اليدوية، سُمِح لها باستخدام ماكينة الخياطة الوحيدة في الدير، وهي ماكينة تعمل بالدواسة. قالت آيفي إنها كانت تفضل تعلُّم النجارة، لكن ذلك لم يكن متاحًا. اضطرَّت إلى ترك المدرسة في الخامسة عشرة من عمرها لأن والديها لم يعُد في إمكانهما إعالتها، وكسبت عيشها من خلال العمل بالخياطة. أعتقد أنني كنتُ آخر رضيعٍ على وجه الكوكب صُنعت له لوزام مخيطة يدويًا: قمصان صغيرة مطرزة، ومرايل مطرزة، وملاءات طُرزت على حوافها بط صغير.

عندما انتقلت آيفي للإقامة معنا، صنعت كل ملابس الطفلين. كانت الرائحة الكامنة في منزلنا دائمًا هي رائحة القماش المقصوص حديثًا. واعتادت آيفي أن تأخذ ميل للتسوق، وتتوقف عند متاجر الأقمشة أولًا. بعد ذلك، في قسم الأطفال في متاجر ديفيد جونز أو مايرز، كانت ميل تنتقي الملابس التي تعجبها، وتجرِّبها في غرفة القياس، حيث تخرج آيفي شريط القياس من حقيبتها.

هذه الأيام، صار لدى ميل قناة خاصة بها على يوتيوب. فهي تدرس الهندسة المعمارية في شيكاجو، وتشكِّل مقاطع الفيديو خاصتها جزءًا من مشروع إبداعي جارٍ. يبدأ كل فيديو بميل وهي توضح التزامها بما تسميه "هندسة الوجه". وعندما تتصل، تنشغل هي وآيفي بتحليلٍ آخر حلقاتها من "الجمال مع ميل". كانت "ملامحك الكلاسيكية: مربعات الوجه التسعة"، هي أكثر حلقة استقطبت مشاهدات حتى الآن، لكن الحلقة المفضَّلة لدى آيفي هي تلك التي تدور حول الحواجب. تلاشى حاجبا آيفي وصارا خفيفين، لذا ترسل إليها ميل أحدث المنتجات الأمريكية اللازمة لملئها، ثم تقيِّمان النتائج معًا.

كان حاجبا شانيل رائعين في بداية زواجنا، لكنها اعتادت نتفهما في أستراليا حتى باتا أشبه بخطٍّ رفيعٍ رُسِم بالقلم. وقالت إن النساء المهاجرات فقط هن من لديهن "تلك الحواجب الكثيفة الفظيعة". والآن، لم يعُد حاجباها ينموان مرة أخرى، وأشارت آيفي إلى أن الحواجب الكثيفة صارت هي الموضة. تحدثت عن "رسم شعر الحواجب"، وعرضت مشاركة قلم رسم الحواجب خاصتها مع شانيل. قالت: "قد يكون "المايكروبليدنج" هو الخيار المناسب لك".

في الفراش، قالت لي شانيل: "خمِّن من الذي أتخيل أنني أضربه، عندما أمارس تمارين الملاكمة".

هذه مزحة، فلا توجد خلافات في عائلتنا، ونهتم جميعًا بصالح بعضنا. على سبيل المثال، تجاوزت آيفي الستين عندما أرادت الهجرة، لذلك كانت في حاجة إلى احتياطي من رأس المال لإثبات أنها لن تشكِّل عبئًا على دافع الضرائب الأسترالي. لذا باعت الأسهم التي تلقَّتها من زوجها، بالإضافة إلى العديد من قطع السجاد والأثاث وما إلى ذلك لجمع المبلغ اللازم. وفي اليوم التالي لنزولها من الطائرة، أصرَّت على تحويل كل هذه الأموال إليَّ. قالت: "خذها، فأنت توفر لي سكنًا". اعترضتُ، لكنني استسلمت في النهاية. فقد كان الرهن العقاري لمنزلنا كالبالوعة، كما كان من الواجب وضع تعليم الولدين في الاعتبار.

لا تنس أنه بعد ذلك التحويل، كان لا يزال لدى آيفي مصدر للدخل، إذ ظلَّت تركة زوجها تدفع لها مبلغًا شهريًّا، كما كان هناك أيضًا الإيجار الذي تحصل عليه من المستأجرين المقيمين في منزلها. كان الدولار الأسترالي قويًّا في ذلك الوقت، لذلك لم يكن سعر الصرف في صالح آيفي، لكنها قالت: "لديَّ ما يكفي لاحتياجاتي".

احتياجات آيفي! ماذا كانت، تحديدًا؟ وفَّرنا لها المأكل والمسكن. كنت أعود إلى المنزل منهكًا بعد يوم في القسم، لأجد مزهرية بها

زهـور النرجـس أو زهـور الخشـخاش عـلى طاولـة المطبـخ. مـا الفائـدة منهـا؟ كانـت تذبـل وتمـوت، معلنـة أن الحيـاة قصـيرة، ولا وقـت لدينـا لنضيعـه. هـل كنـت في حاجـة إلى مـا يذكِّرني بذلـك؟ كان عـليَّ الاسـتيقاظ صبـاح اليـوم التـالي، وارتـداء بدلـة تفـوح منهـا رائحـة سـائل التنظيـف الجـاف، كي أسـلم نفـسي بعدهـا إلى بيئـة خاضعـة للتحكـم في درجـة الحـرارة، لأفعـل نفـس نـوع الأشـياء التـي فعلتهـا في اليـوم السـابق. بـدت حيـاتي طريقًـا يمتـد أمامـي مسـتويًا مـن دون أي ملامـح. وفي حـال مـا إذا كان هـذا يبـدو جذابًـا -يمكـن أن يظهـر أي شيء عـلى الطريـق- دعنـي أخـبرك أن نقطـة التـلاشي بـدت عـلى بُعـد سـت بوصـات مـن أنفـي. في هـذه الأثنـاء، كيـف تقـضي آيفـي يومهـا؟ كانـت تختـبر صـبر بائـع الزهـور، وهـي تتحـدث بحـماسٍ عـن زهـور الزنبـق والفاوانيـا، قبـل أن يسـتقر اختيارهـا عـلى باقـة مـن زهـور التوليـب المخفضـة لسرعـة البيـع، تسـقط نصـف بتلاتهـا في الحافلـة.

يجـب أن يكـون مـن الواضـح الآن أن آيفـي ليـس لديهـا أي حـسٍّ بقيمـة المـال. فلتطلـق عـلى ذلـك مسـمى السـذاجة، أو أطلـق عليـه خللًا في النظـام، أو أطلـق عليـه التاريـخ أو الحـظ. كانـت تحتفـظ ببرطـمان مـليء بعمـلات معدنيـة قـذرة، وتمنـح المتسـولين تلـك العمـلات، عـلى الرغـم مـن أننـي أخبرتهـا أنهـم بيـادق يسـيطر عليهـا أباطـرة المخـدرات مـن تايـوان. كان الـرد الصحيـح الرحيـم بهـم هـو الإشـارة إلى الطريـق إلى أقـرب بنـك طعـام. وإذا بقـي المتسـول عـلى الرصيـف خلـف قطعـة مـن الكرتـون كتـب عليهـا أكاذيـب، فمـن واجـب المواطـن الصالـح تنبيـه الشرطـة.

تحـب آيفـي القـول بأنهـا نشـأت بـين أنـاس يعتقـدون أن المـال شيء مخـزٍ، "إلا أن هـذا هـو مـا يتحـدث عنـه الجميـع الآن". أود الإشـارة إلى أنهـا لطالمـا كانـت محاطـة بأشـخاصٍ يفكـرون في المـال عـلى الـدوام. في

وطننا الأم، اصطفَّ الفقراء والمشوَّهون في الشوارع، وقلت لآيفي: "كنت تمرِّين أمامهم بالسيارة".

إن الكرم مثيرٌ للإعجاب، لكن فقط عندما يُوجَّه بحكمة. ماذا كان سيحدث لأموال آيفي لو لم تحوِّلها إلينا؟ كان محتال ما سيأتي إلى الباب وبحوزته صور لملاذٍ مخصصٍ لآخر مجموعة متبقية من حيوان الكوالا، أو أطفال أجانب ذوي هيئة رثَّة يقيمون في الخيام، وستتوقع آيفي منا أن نسعد بقرارها.

بعد التحويل، أكدنا لآيفي أننا سنتولى العناية بكل شيء نيابة عنها. قالت شانيل: "إنها حكمة بالغة منك، ألا تزعجي نفسك بإدارة الأموال، سنتولى أمر أي شيء تحتاجين إليه".

***

ذات مساء، لفتت انتباهي كلمة في أحد العناوين الرئيسية: "جثة"، وعندما رمشت بعيني، تحوَّلت إلى "جدة". كان يومًا طويلًا آخر في القسم، بقيت فيه حتى وقت متأخر لتحليل جدول بيانات لروس. أُصيبت عيناي بالإرهاق عندما رحلت، وكان الدخان سيئًا. لم أطالع أي شاشات على متن القطار في طريق العودة إلى المنزل، وأفرطت في استخدام قطرة العين المرطبة المجانية التي توزعها الحكومة، لتهدئة عيني.

بعد أن ترجَّلت من القطار، كان أمامي خمس عشرة دقيقة سيرًا على الأقدام حتى أصل إلى سيارتي. هنا على أطراف المدينة المتداعية، لا تستطيع البنية التحتية استيعاب كل القادمين الجدد الذين يتدفقون من المناطق الريفية. مهما أتيت مبكرًا في الصباح، كنت أجد موقف سيارات المحطة ممتلئًا عن آخره. كما أن هناك تقارير عن تعرُّض بعض الركاب للسرقة عند عودتهم إلى سياراتهم بعد حلول الظلام.

ومن المتفق عليه أن الريفيين هم المسؤولون، إذ إن الكثير منهم بلا مأوى، ويتجولون في الشوارع بمظهرٍ قذرٍ وشعر مشعث. كان أحدهم يقف تحت الغطاء البلاستيكي لهاتفٍ عمومي عندما غادرت المحطة. فلتعطني سببًا واحدًا يدفعني إلى الثقة في شخصٍ لا يستطيع تحمُّل تكلفة شراء هاتف محمول. حملت مهماز الماشية في وضع الاستعداد، حتى وصلت إلى السيارة بأمان، وأطلَّت عليَّ عيناي الحمراوان المسكينتان من مرآة الرؤية الخلفية بينما أنا أقود السيارة عائدًا إلى المنزل في سبومانت كورت.

في الماضي، كنت أقف ويدي على الباب لأستمتع بلحظة دخولي إلى منزلنا، وسط الظلام والهواء البارد لا يزال يلفح وجهي، حتى أدخل إلى الغرف المضاءة. سيكون الولدان في الطابق العلوي يعملان على حلِّ واجباتهما المنزلية، بينما شانيل وآيفي منشغلتان بإعداد العشاء. وإذا تأخرت أكثر من المعتاد، سأجدهم يشاهدون التلفزيون، وربما كانت آيفي منشغلة بحبك الصوف، لكن هذا لا يعني ما قد توحي به الكلمة من نشاطٍ تمارسه عجوزٌ لطيفة بصوفٍ ذي ألوان باستيل مبهجة. إذ إن الجوارب والأوشحة والسترات الصوفية السميكة التي قدمتها لنا آيفي على مرِّ السنين لم تكن ملابس، بل كانت بمنزلة إعلانات زاعقة الألوان تضمن اجتذاب النظرات المحدقة من الآخرين. حرصنا على عدم ارتدائها في الأماكن العامة أبدًا، وبعد فترة، كانت شانيل تتخلص منها بهدوء، بعد أن تتوقف عند صناديق التبرع بالملابس في طريقها إلى العمل، وكانت آيفي تنشغل بهديتها البشعة التالية، فلا يبدو أنها تلاحظ اختفاء سابقتها.

حبك الصوف شيء آخر تعلَّمته آيفي من الراهبات. وإذا سأل أي شخص لماذا اعتبروا هذه مهارة مفيدة للأطفال الذين يعيشون في المناطق الاستوائية، فستقول آيفي: "كانت الأخت بيربيتوا تتمتع بموهبة الرؤيا". وهي تعتقد أن الأخت بيربيتوا نظرت إلى المستقبل،

ورأت آيفي وجميع الفتيات الأخريات ذوات الأذرع النحيلة يسرن في شارع رمادي كئيب، بلا مأوى وبلا نهاية، ولا يمتلكن سوى ملابس المنزل الخفيفة غير المجدية لتدفئة أجسادهن البائسة.

كثيرًا ما تقول لنا آيفي: "كنتُ أنا المفضَّلة لدى الراهبات"، وتتحدث من دون أي أثرٍ للكبر أو العجرفة، معتبرة إعجابهن حقًّا مكتسبًا لها. لطالما اجتذبت آيفي النساء اللواتي تفتقر حياتهن إلى الإنجاز. وهي تستمتع بصحبتهن، لكنها لا توليهن أي أهمية، إذ إن الأهمية بالنسبة إلى آيفي حكرٌ على الرجال الوسيمين. أما أكبر معجبيها، فهي فانتا، مصفِّفة شعرها. في الماضي، فازت بهذا الشرف بالتناوب، امرأة قابلتها آيفي في درس الرقص الخاص بكبار السن، والمرأة التي تشرف على تنظيم مجموعة المشي المحلية، والمرأة التي كانت شريكة آيفي في لعب البريدج. مضى وقتٌ منذ أن ذهبت آيفي في نزهة منظمة، أو ذهبت للرقص أو لعب البريدج، لكن هؤلاء النساء ظللن على اتصالٍ بها، وتعتقد آيفي أن معرفتها تجلب لهن السعادة، ويبدو أنهن يعتقدن نفس الشيء.

لكن ها أنا قد استطردت بعيدًا عن الموضوع مرة أخرى. أحاول أن أنقل الشعور الهادئ بالفرحة الذي كان ينتابني عند العودة إلى المنزل: وأنا واقف وبشرتي باردة كالمدينة، بينما النساء في المنزل في الضواحي، وأضواء الهالوجين المثبتة في السقف تضفي وهجًا على المشهد. كانت متعة تقتصر على تلك اللحظات القليلة، وصرتُ أفتقدها. ومع رحيل الولدين، تغيَّر كل شيء. أجد المنزل مظلمًا عند دخولي، والتلفزيون يحدق شاحبًا. يلتمع شيء على طاولة المطبخ الرخامية: علبة صدور الدجاج التي سنشويها على العشاء. باتت أسرتنا التي انكمشت تستهلك كمية أكبر من اللحوم الخالية من الدهون، والقهوة الخالية من الكافيين، والكرنب المجمد، وكميات أقل من الحليب كامل الدسم والمكرونة والجبن.

في هذه الأيام، صارت آيفي تتناول المكرونة أو الحساء على العشاء، وتنسحب إلى غرفتها بحلول موعد عودتي إلى المنزل. تقول إن المنزل "يشبه المشرحة"، لذا تشغل بطانيتها الكهربائية وتأوي إلى الفراش في الساعة السابعة. تسلي نفسها هناك لبقية المساء عن طريق ... مشاهدة قناة ريتروفليكس؟ حل السودوكو؟ ممارسة الفودو؟ في الحقيقة، صار من المريح عدم رؤيتها مؤخرًا.

في حال ما إذا عادت شانيل إلى المنزل أولًا، سأجدها تمارس التمارين على بسطة السلم، حيث تحتفظ بجهاز التمارين الرياضية والأثقال. كانت تحتفظ بهم في الغرفة الاحتياطية، لكننا نستغل هذا المكان الآن لتخزين الطعام والأدوية وورق التواليت، استعدادًا للوباء القادم. اشتركت شانيل في قناة يوتيوب لمدرب أمريكي، ولا تنتبه حتى لعودتي. أصعد الدرج، وأسمعها تقول: "هيا يا ركبتيَّ، فلتمنحاني تمرينًا صحيًّا رائعًا اليوم!". أتساءل أحيانًا، كيف وصلنا إلى هذا الحال؟ متى أصبحت زوجتي امرأة تتحدث إلى ركبتيها؟

عندما انتقلنا للإقامة في سبومانت كورت، بدا لنا كمكان من دون تاريخ، ووفَّر صوت حركة المرور على الطريق السريع موسيقى تصويرية حديثة لأيامنا. كانت جميع المنازل المنفصلة المؤلفة من خمس غرف نوم، والمطلية بلون أبيض كمعجون الأسنان، أكثر ارتفاعًا من الأشجار، ولا تزال كذلك، إذ إن الأشجار في شارعنا لم تزدهر أبدًا في الواقع. شعرنا بالفخر الشديد بحيِّنا الجديد، وبامتلاك منزل أخيرًا. كان الرهن العقاري الباهظ بما يكفي لإصابة المرء بنوبة قلبية خطوة أساسية إلى الأمام في رحلتنا نحو الانتماء، حيث إن الإيجار ليس أسلوب الحياة المُتبَع في أستراليا، بكل تأكيدٍ.

اشترينا منزلنا من الملَّاك الأصليين، وهم مهاجرون مسيحيون من الشرق الأوسط. ولو كانوا مسلمين، لأدى ذلك إلى انخفاض السعر،

لكن وكالة العقارات قدمت لنا ضمانًا. كان الملّاك زوجين من كبار السن رحل أبناؤهما منذ فترة طويلة، وعرضا أن يبيعا لنا أثاثهما، لأنهما سينتقلان إلى منزل أصغر، لكننا رفضنا. فالأشياء المستعملة لها حكايات، وروائح، وتشجع على الحنين إلى الماضي. وعندما كنّا أنا وشانيل نستعد للهجرة، عرض زوج والدتي شحن أي شيء قد نود الحصول عليه من منزله. رأت شانيل الخطر في الحال: بدء الحياة في بلدٍ جديدٍ بأثاثٍ من البلد القديم، يمكن أن يؤدي إلى تضارب في الولاء. تلك الطاولات الجانبية الداكنة الضخمة، وتلك الأسِرَّة، ستخيم فوق حياتنا كأسلاف متجهمي الملامح. يجب أن يزن الماضي أقل من صورة، وقد تخلينا عن معظمها أو حذفناها أيضًا.

نستبدل أثاثنا كل ثماني سنوات. في البداية، ذهبنا إلى متجر "فانتاستيك فرنتشر"، ثم ارتقينا لمستوى أفضل وذهبنا إلى متجر "فريدوم". بعد ذلك، عقب ترقية شانيل الأخيرة، دعانا أحد كبار مديري المؤسسة إلى تناول العشاء. كدت أرى المال يقطر من كل زاوية من زوايا ذلك المنزل، حيث كان كل الأثاث من طرازٍ حديثٍ، يعود إلى منتصف القرن، لذا سلكنا نحن أيضًا نفس الطريق، وصار جميع أثاث منزلنا مستنسخ، ابتعناه من متجر "مات بلات"، وهو الحل المثالي: أثاث جديد مصمم على طراز قديم. كما أننا نجدد الحمام كل سبع سنوات، والمطبخ كل عشر سنوات. وهذه النفقات ضرورية، إذ تعد الديون الأسرية وتحسينات المنزل من القيم الأسترالية الرئيسية. لا نشعر أنا وشانيل بالاندماج أكثر مما نشعر به في تلك اللحظات التي نستيقظ فيها ونحن نعاني الصداع من أثر رائحة الطلاء، أو عندما يعمل سباك متدرب على التأكد من أن الصرف في حوضنا الجديد لن يعمل.

في المرة الأولى التي أعدنا فيها تجديد مطبخنا، عثر عامل البناء على رزمة صغيرة مخفية خلف الفرن المثبت في الحائط. فتحنا

القماش المشمع، فظهرت صورة مسيحية. ربما كان هناك تقليد في الوطن الأم للملّاك السابقين يقتضي الاحتفاظ بأيقونة في الموقد، وكان إخفاء أيقونة خلف الفرن الكهربائي هو أقرب تصرف ممكن يشابه تلك الطقوس. كان الدين أحد الأشياء التي اخترنا أنا وشانيل تركها وراءنا، لكن آيفي أخذت الصورة ووضعتها في غرفتها، ولا تزال هناك، في إطارها المعدني الأسود. كما أن لديها أيضًا صورة منسوجة للمسيح على غطاء وسادة، وتمثالًا بلاستيكيًا لجوان يين إلهة الرحمة، وصورة لبوذا محاطة بإطارٍ من المصابيح الكهربائية الصغيرة. لم تتخلص آيفي أبدًا من الممارسات الرجعية التي غرستها فيها أولئك الراهبات، لكن غرائزها الطبيعية أقوى، هذا هو كل ما في الأمر. وفي كل صباح تخلط مجموعة من أوراق اللعب، وتسحب واحدة منها، للتنبؤ بما يحمله اليوم.

يتحدث الناس إلى آيفي بسهولة، فهي تبدو مسالمة على ما أعتقد. وفي الماضي عندما كانت صحتها تسمح لها بالتحرك، اعتادت التطوع في بنك الطعام. يا للحكايات التي كانت تعود بها إلى المنزل! كانت هناك فتاة تعيش في وحدة تخزين تابعة لشركة موورابين، لأنها لم تكن تستطيع تأجير سكن سوى ذلك. وفي مرة أخرى، كان هناك رجل عجوز يطبخ من العصيدة ما يكفي لمدة أسبوع، ويحتفظ بها في الدرج. هكذا اعتادت والدته أن تفعل في أبرديين، ولم ير أي سبب للتغيير.

كانت آيفي تعطي كلَّ من تتبادل معه الحديث رقم هاتفها، ورتب معها رجل العصيدة لمقابلتها، ثم التقيا في المدينة، وذهبا إلى أحد مطاعم "هير كريشنا" في شارع سوانستون لتناول الغداء. بعد ذلك، صارا يلتقيان كل أسبوع. شعرنا أنا وشانيل بالذعر، إذ كانت آيفي ترتدي خاتمها المرصع بالزمرد في تلك اللقاءات. ماذا لو انتزعه من إصبعها؟ ومن كان يدفع ثمن غدائه؟ عندما سألنا آيفي عمَّا

يتحدثان، قالت "جمال الجبر". علمنا أنه كان طفلًا بارعًا في الرياضيات، وعانى انهيارًا عصبيًّا في سن العشرين، ولم تعُد حياته إلى مسارها الصحيح أبدًا. تساءلنا عما إذا كانت آيفي ستعطيه المال اللازم لشراء ثلاجة. لكن لحسن الحظ، فُرض الحظر بسبب الوباء، فتحوَّلا إلى الاتصال ببعضهما، حتى أخبرها ذات يوم، بين نوبات السعال، أنه يشعر بالحرارة في جسده كله، وقد تمكَّن بالكاد من استجماع قواه لرفع سماعة الهاتف. وبعد ذلك، لم يعد أحد يجيب حينما حاولت آيفي الاتصال. أخبرتنا أنه عند نهاية غدائهما الأخير، نزل على ركبتيه المتورمتين اللتين تصدران صريرًا، وعانق قصبة ساقها، حيث كان ذلك أكثر أمانًا من المصافحة أو تقبيل وجنتها. أشرنا، بلطفٍ شديدٍ، إلى أن الوباء كان بمنزلة رحمة لشخص مثله، فأي حياة تلك التي يعيشها، في غرفة مستأجرة مع عصيدة في الدرج؟

***

تصاب آيفي بالتعب بسهولة هذه الأيام، والخمول هو أحد الأعراض التي تعانيها، لكنها مرتاحة تمامًا، ويعمل برام على التأكد من ذلك. برام هو ابن عم شانيل، وكانا مقربين من بعضهما في طفولتهما، حتى انتهى الأمر ببرام بأن تبعنا إلى هنا. في وطننا الأم، كان يُعَد شابًّا متهورًا -يقود السيارة بسرعة، ويبدِّل الفتيات بمعدل أسرع- لكنه مع ذلك تخرج في كلية الطب. أتى هنا كي يتخصص في مجاله، وصار الآن طبيبًا متخصصًا في أمراض الجهاز الهضمي. يكسب برام الكثير من المال، وينفقه بغير حكمة. ولفترة من الوقت كان يمتلك "ساقًا واحدة من حصان سباق"، كما كان يحب أن يقول.

سرعان ما صارت آيفي تعتمد على برام. وعندما علم بإحجامها عن استشارة الطبيب، شجعها على استدعائه كلما شعرت أنها ليست

على ما يرام. لقد كتب لها وصفات طبية، وأعطاها لقاحات، وجمع عينات، واستمع إلى رئتيها، وهو يمازح آيفي ويشاكسها، ويقبِّل يدها. ويساعد هذا آيفي على التظاهر بأنه لا يزورها بصفة مهنية. يحكي برام عن النساء اللاتي تبدين الاهتمام به، ويسأل عن رأي آيفي في هذه أو تلك. وهو ضئيل القامة ومهندم، قبيح الشكل، يعلو رأسه شعر كثيف مموج مهوش. تقول آيفي إن تمويجات شعره هي مفتاح نجاحه مع النساء، فيخبرها أنهن يرغبن في العبث بشعره. ولكي تظهر امتنانها لبرام، أوصت آيفي بالتبرع بعينيها لأغراض علمية. هل يريد العلم عيني امرأة عجوز مصابة بإعتام عدسة العين؟ لم يخطر ببال آيفي أن تطرح هذا السؤال.

كان برام هو من أوصى بطبيب الأمراض الجلدية الذي يعالج شانيل من البقع الشاحبة التي ظهرت على بشرتها، وأخبرنا بوجود أمراض غامضة منتشرة. قال برام: "ليس هناك بالضرورة شيء يستدعي القلق، لكن يبدو أن الفيروسات الجديدة تظهر من العدم هذه الأيام". كان غموضه متعمدًا، لأنه من غير الحكمة التحدث مباشرة عن عواقب التغيُّر البيئي. وعندما انتقل سيدني للإقامة في الشمال من أجل الحصول على درجة الدكتوراه، جعلناه أنا وشانيل يقطع وعدًا بعدم التحدث عن منطقة الحرائق الدائمة، وأن يقول بدلًا من ذلك منطقة تطهير الأدغال. كان هذا هو الاسم المصرح به، ويُظهر أن الحكومة تهتم بصحتنا العقلية. فمن يريد ما يذكِّره بوجود منطقة حرائق دائمة؟ نأمل أن يضع سيدني في اعتباره أن إرهابيي اللواء الأخضر فقط هم من يستخدمون مسمى منطقة الحرائق الدائمة، وأنه يمكن أن يعرضنا جميعًا للخطر إذا استخدم المصطلح.

***

كنت أستمتع بالذهاب إلى العمل، ورؤية الأشكال التي يخلفها الضوء وهو يتلاعب فوق المنازل المأهولة بالسكان، وكاميرات المراقبة، والحدائق المقاومة للجفاف المفروشة بالحصى في سبومانت كورت، وجيراني يخرجون بسياراتهم الطويلة البراقة كما لو كانوا متوجهين إلى الحرب، وجميعنا جاهزون للمعركة. وفي الصباحات الربيعية الصافية، كان الطريق بطول شارع بلو نون الذي تحفُّه الأشجار يكاد يُسمع فيه قرع الطبول. ولا تزال أشجار اليوكاليبتوس والشجيرات المزهرة تحدد مدخل محرقة الجثث هناك، لكن في هذه الأيام، صار المرور يتكدس بامتداد عدة مربعات سكنية عند التقاطع، وبمجرد وصولنا إلى طريق كولد داك، نتحرك ببطء متجاوزين مطاعم الوجبات السريعة، ومعارض السيارات، ومتاجر الملابس المخفضة، ومحطات خدمة السيارات. وعندما تشرق الشمس، يعمل زجاج النوافذ الأمامية للسيارات على تكثيف شدة الوهج. وإذا كان الدخان أسوأ من المعتاد، ستضيء لافتات التحذير العلوية: "ارفع النوافذ، وقُم بتشغيل خاصية إعادة تدوير الهواء". ثم يعقب ذلك فوضى محاولة العثور على مكان لوقوف السيارات على مسافة قريبة من المحطة.

أما بالنسبة إلى القطار، فلم يعُد يوفِّر لي فاصلًا هادئًا لوضع السماعات في أذني، والسماح لفريق "كولد بلاي" بحملي بعيدًا، شاعرًا بالاسترخاء مع الرائحة المركبة المؤلفة من معجون الأسنان ومزيل رائحة العرق والقهوة. أضطر في معظم الأحيان الآن إلى الوقوف طوال الطريق. وذات صباح، انتزعت فتاة تجلس بالقرب مني كمامتها، ثم حنت رأسها بين ركبتيها وتقيأت. خفضنا نظراتنا جميعًا ونحن نفكر، هل سيبدأ الأمر من جديدٍ؟ تسري شائعات مفادها أن الوباء القادم سيصيب الجهاز الهضمي. شغلنا أنفسنا بمعقم اليدين، ووجدنا ضباطًا يرتدون ملابس واقية ينتظرون في المحطة التالية لنقل الفتاة. تلقينا أوامر بالنزول إلى رصيف المحطة، واضطررنا إلى الوقوف تحت أشعة

الشمس الحادة بينما أغلق موظفو السكة الحديد العربة. وصل المزيد من الضباط لتسجيل كل المسافرين الذين كانوا في العربة الملوثة، والتحقق من هويتنا، واستغرقت الضابطة التي تفحص هويتي وقتًا طويلًا. دائمًا ما يقول سيدني إن تقنية التعرُّف على الوجوه تعمل مع أصحاب البشرة البيضاء فقط. عندما رحلت الضابطة، شعرت بصداع بدأ يتسلل عبر جبهتي، وسعلت بتوترٍ في مرفقي، فالتفت الناس محدقين إليَّ في غضب. أعلن مكبر الصوت أننا قد نضطر إلى الذهاب إلى عيادة مؤقتة كي نخضع للفحص. وبعد السماح لنا باستئناف رحلتنا، اضطررنا إلى حشر أنفسنا في عربات مزدحمة، وحاولت حبس أنفاسي لبقية الطريق. تأخرت عن العمل ثلاث ساعات، وبحلول وقت الغداء، شعرت كما لو أن أحدهم يدق المسامير بين عيني. وجهت نظري إلى الأسفل، وهناك عند طرف سروالي رأيت بقعة صغيرة من القيء.

حتى القسم لم يعد كما كان من قبل، ومن ضمن أسباب ذلك هو رحيل لورنا. كانت تعمل في قسم التقييم، الذي أعمل أنا به، حيث نشتغل كغرفة تبادل معلومات للأمن، وإذا كانت القضية تتعلق بالإرهاب، يتم تجاوزنا، وتتوجه سلطة التحقيق مباشرة إلى زملائنا في الطابق العلوي. ولكن مع زيادة عدد الأعمال والمنظمات المحظورة، يزداد أيضًا عدد القضايا التي يصير للأمن اهتمام محتمل بها، ولكن ليس بشكلٍ واضحٍ. تصل مثل هذه القضايا الضبابية إلى مكتبنا كل يوم، ونقيِّم مدى ما تمثِّله من مخاطر. كم مرة حاولت أن أشرح ذلك لسيدني؟ في رأيه، فإن العمل في القسم يعني التواطؤ مع الدولة البوليسية، وهو يلقي بعبارات مثل "السلطة القسرية" و"المراقبة غير القانونية للمواطنين العاديين"، فأكرر قائلًا: "أنا أعمل في الإدارة فحسب"، ويمكن لأي شخص عاقل أن يرى أنني لا أُكره أحدًا على شيء. أنا أصدر التوصيات فحسب، والتوصيات ليست قسرية، أكثر من كونها أشبه بالاقتراح. الجهات الأمنية هي التي تتخذ كل

القرارات المهمة. أما هنا في قسم التقييم، فكل ما نفعله هو مجرد التقييم، وهذا كل ما في الأمر.

كانت لورنا مساعدتنا التنفيذية، وهي امرأة قوية البنيان يغطي وجهها النمش، جعلها فكُّها البارز تبدو كأنها تتحرق شوقًا إلى القتال. سمعتها ذات مرة تقول إنها تحب التجول في حديقة بالقرب من منزلها، والتوقف كي تلمس جذوع الأشجار. ألقيت نظرة خاطفة على يديها عندما قالت ذلك، ورأيت الجلد المجعد عند مفاصل أصابعها. وعلى مر السنين، عرفت القليل عن حياتها. كان لديها ابن يُدعى تكس مصاب بالتوحد الشديد، وكان زوجها فرانك يعمل في شركة طيران. لكن الوباء وضع حدًّا لذلك، ولم يتمكَّن من العثور على عمل مرة أخرى. ثم صارت لديه مشكلة تتعلق بلعب البوكر عبر الإنترنت، أو هكذا قالت الشائعات التي سرت همسًا.

يطل المبنى الذي يضم القسم على مناظر من ثلاث جهات، كلها رمادية. لكن في مساء الأيام الشتوية الخالية من سحب الدخان، يظهر غروب الشمس. وعندما كانت لورنا هنا، اعتادت أن تتوقف للاستمتاع بالغروب، متباطئة بجانب النوافذ في طريقها من المطبخ حاملة كوب الشاي الخاص بها. وكنت أنضم إليها هناك في بعض الأحيان حتى أفرد ظهري. ذكَّرني غروب الشمس بمنزل كنت أمرُّ أمامه بالسيارة كل يوم في شارع كولد داك، منزويًا بين فرع لمتجر "فورتي وينكس"، ومتجر لإطارات السيارات. بدا مظهره متداعيًا كما هو حال المنازل المستأجرة: له ستائر معدنية مكسورة، وجدار من الطوب المحطم حيث اصطدمت به إحدى السيارات، والبوابة الحديدية يتساقط منها الصدأ. لكن في كل شتاء، كانت الشجرة الموجودة في الفناء تكتسي بزهور وردية ضخمة. قضى الجفاف على الشجرة قبل بضع سنوات، وجُرف المنزل الشهر الماضي. وبينما ينتظر الموقع التطوير، ظهرت لوحة إعلانية: "هل يسبب لك الحديد الإمساك؟ اسأل".

بعد رحيل لورنا، حرصتُ على الابتعاد عن مشهد الغروب، إذ إن له نفس القدرة على إثارة النفوس مثل تلك الزهور الشبيهة بكؤوس من الضوء الوردي. عند رؤيتها، كان شيء ما بداخلي يتمدَّد، ويصير الأفق بعيدًا ومشرقًا أمام عيني. تساءلت عما إذا كان الغروب يؤثر في لورنا بنفس الطريقة، ويجعلها تعي وجود شيء أعظم. كانت ذقنها التي تتحرق إلى القتال ترتفع بينما هي واقفة بجانب النافذة، لكن أي رغبة في القتال كانت موجودة لديها فيما مضى اختفت منذ زمن بعيد. سألتني ذات يوم: "ماذا سيحدث لتكس عندما أموت؟ أو عندما أصبح أكبر سنًّا من أن أستطيع العناية باحتياجاته؟". ارتشفت من كوبها وواصلت قائلة: "لا يمكن الاعتماد على فرانك".

خلال عملية إعادة الهيكلة الأخيرة، فُصِلت لورنا من عملها، وكان أكبر سبب وراء ذلك هو ضغط النفقات: دائمًا ما يكون كذلك. لكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد، إذ بدأت لورنا تأتي إلى العمل بادية الإرهاق، بشعر مشعث. كما أنها في الآونة الأخيرة بدأت تنسى القيام بأشياء أو تفسدها، وأخذت تفوت المواعيد النهائية لتسليم العمل، وتعتذر عن الحضور بحجة المرض. بعد ذلك أصيبت بالمرض بالفعل، ودخلت المستشفى بسبب الإصابة بالدوسنتاريا. لم تكن قادرة على تحمُّل تكلفة المياه المعبأة، وأهملت في ترشيح الماء. وعندما عادت للظهور مرة أخرى، بدت كما لو أنها في حاجة إلى طبقة من الطلاء. لم يُفاجأ أحد عندما استُدعيت لرؤية روس.

خرجت لورنا من مكتب روس، وتوجهت إلى مكتبها. وضعت صورة تكس في حقيبتها، ثم ارتدت سترتها وأغلقت الأزرار ورفعت الياقة إلى أعلى. تسلل إليَّ إحساسٌ غريبٌ بالخواء، كما لو أنني أفقد أكثر بكثيرٍ من زميلة. وحتى يومنا هذا، لا أحب التفكير في الأمر، حيث لم يبدُ منطقيًّا على الإطلاق.

***

اضطرَّت أيكيا أيضًا، المسؤول الإداري في قسم التقييم، إلى الرحيل في نفس تلك الفترة تقريبًا. اكتُشِف أن شقيقها يرتاد مسجدًا سريًّا، واتضح أن أيكيا كان اسمها زينب في السابق. وقد غيَّرت اسمها، كما فعل الكثير من المسلمين عندما صدر قرار الحظر. ونظرًا إلى أن ممارسة الإسلام جريمة إرهابية، فقد أُعيد جميع أفراد العائلة قسرًا وفي الحال إلى وطنهم الأم.

عقب رحيل أيكيا/زينب، دُمِج منصبها مع منصب لورنا، وشغل الوظيفة ليريك،[1] وهم في سن الشباب، وعلى درجة عالية من الكفاءة، ويسيرون بهدوء مرتدين حذاء رياضيًّا أبيض كبير المقاس. تعرفتُ على عطرهم على الفور، إذ كان هو العطر المفضل لدى شانيل أيضًا، واسمه "بيوير"، أي احترس. تصف شانيل العطر بأنه "حميمي وعاطفي أيضًا بدرجة لا تصدق".

الشيء الذي حيَّرني هو إثنية ليريك، لكنني لا أحب طرح الأسئلة، ولم أستطع اكتشاف الأمر، فقد حُلق نصف شعرهم، وقد يكون الباقي أزرق مع بقع برتقالية، ويتغير اللون كل بضعة أسابيع. أما بشرتهم فبرونزية اللون، وعظام وجنتهم حادة بدرجة يمكنها التسبب في جرحك، وعيناهم المسحوبة مائلة نوعًا ما. وفي بعض الأيام، تكون تلك العينان بلون التوباز، وفي أيام تكون بلون أزرق مائي، بينما في أيام أخرى تكون خضراء بلون بذور اليقطين. وكان حاجباهم ناعمين وممتلئين، وكذلك شفاههم. وبدا وجههم في نعومة الزجاج، ومضيئًا تحت بعض الأنوار.

وصفتُ ليريك لميل، فقالت: "أبي! هذا وجه انستاجرام، لقد أعددت حلقة كاملة عن الموضوع منذ أسابيع". لذا بحثت في جوجل

(1) شخصية ليريك محايدة جنسانيًّا، وعلى هذا الأساس استخدمت ضمير الجمع "هم"، كضمير محايد جندريًّا، للدلالة على شخص مفرد.

عن "وجه انستاجرام"، وبدا الأمر كما لو أنني أطالع صورًا لليريك. من أين أتي قومهم؟ من أمريكا اللاتينية؟ الشرق الأوسط؟ إسبانيا؟ اسمهم الوحيد هو ليريك فقط، وهذا لا يساعد في شيء.

كنت أشعر بالغيرة من الدنماركيين، لكنني صرت أشعر حيال ليريك الآن بقدر أكبر من الغيرة. إن مظهرهم بمنزلة أسلوب جديد تمامًا للاندماج، يجعل من المستحيل تحديد خلفيتهم، ويجعل كل شيء مختلطًا. وفقًا لميل، "يتطلب الأمر الكثير من مساحيق التجميل لعمل وجه انستاجرام، أي عشرين منتجًا مختلفًا تقريبًا". لكنني لا أعتقد أن وجه ليريك تغطيه أي مساحيق تجميل، رغم أنني لا أجرؤ على النظر من كثب. أذكر نفسي قائلًا: "احترس، احترس".

ربما سيشبه الجميع ليريك يومًا ما. ربما كان من الخطأ البحث عن أصولهم، وربما يتعين عليَّ البحث عن الزمن الذي ينتمون إليه بدلًا من ذلك. قد يكون ليريك مبعوثون من المستقبل من عصر ما بعد الإثنيات، وما الذي يمكن أن يكون أفضل من ذلك؟ فهمت شانيل الأمر على نحو صحيح، ونحن على متن الطائرة القادمة إلى هنا: "لا تنظر إلى الوراء، هذا ليس أسلوب الحياة المتبع في أستراليا". وهذه هي مشكلة السكان الأصليين، فهم بمنزلة تذكير حي بالماضي. ومن عساه يشعر بالارتياح في مواجهة الأخطاء القديمة؟ وهذا هو سبب حظر الصور التي تظهر التدهور البيئي. لو كنت أعرف أيًّا من السكان الأصليين، فسوف أقول لهم: "من فضلكم، توقفوا عن تذكير الجميع بأنكم تنتمون إلى أقدم حضارة على وجه الأرض. ألا ترون كيف يعد هذا عيبًا؟ فأنتم مجرد ماضٍ". إن بيت القصيد من أستراليا هو الرهان على المستقبل، أما بالنسبة إلى ليريك، فقد نجحوا تمامًا في فهم الأمر.

***

دائمًا ما كانت سياستي هي أن أجعل نفسي لا غنى عني لرئيس قسم التقييم. ومنذ تعيين روس، أعتقد أنه بالإضافة إلى عملي الخاص، فقد صرت أؤدي عشرين في المائة تقريبًا من عمله أيضًا. أظن أنه ينظر إليَّ بوصفي شيئًا أشبه بزرٍّ للوظائف الإضافية على لوحة مفاتيح جهاز الكمبيوتر المحمول خاصته، يمكنه النقر عليه، ليجعل العمل يختفي.

انتقل روس إلى ملبورن بعد أن كانت بنايته السكنية واحدة من تلك التي انهارت في ميناء سيدني، لكنه كان أوفر حظًّا من معظم سكان سيدني الذين حاولوا إعادة بناء حياتهم هنا. رغم أن خلفيته في مجال التسويق، لكنَّ صهره، الوزير بالحكومة، انتهز إعادة الهيكلة لتعيينه في القسم. كما كان روس محظوظًا بشكلٍ مضاعفٍ في اختياره لزوجته، لأن بورش هي فتاة من ملبورن. كان هناك منزل بانتظاره في كيو، كما أن قضاء عطلة نهاية الأسبوع في مزرعة عائلتها في شبه جزيرة مورنينجتون كان من أسهل ما يمكن.

لدى بورش وروس ابنة صغيرة، ورغم أن روس لديه أطفال أكبر سنًّا من زيجة سابقة، فإنه وجد الأبوة أكثر صعوبة هذه المرة. أسرَّ لي قائلًا بعد فترة قصيرة من ولادة برادا: "هؤلاء الزوجات الشابات أمرهن مختلف تمامًا، يا صاح، فهن يتوقعن منَّا المشاركة في تربية أطفالنا".

قلت: "لديك دعمي الكامل، من فضلك لا تتردد في الذهاب كلما احتاجت إليك بورش، وسيكون من دواعي سروري تولي أمر أي شيء عاجل".

كانت الساعة الثالثة عصرًا، عندما غمز لي روس ووكزني بإصبعه، قائلًا: "مرحى، يا صاح، إنها تلك المربية من مولدوفيا، لا يمكنها اتباع أبسط التعليمات. في الأسبوع الماضي سمحت لبرادا بالزحف

على أرضية نُظفت بالمكنسة فقط من دون مسحها. هل تذكر الأيام الخوالي؟ كانت الفتيات الألمانيات والفتيات السويديات يصطففن للحصول على تأشيرات العمل، والآن، حتى الألبان لم يعودوا يرغبون في المجيء إلى هنا".

كان ليريك قد أمضوا بضعة أسابيع في القسم، عندما أرسلوا إليَّ رسالة بريد إلكتروني يطلبون عقد اجتماع. وصلوا إلى غرفة الاجتماعات أولًا، واضطررتُ إلى الجلوس في مواجهة النافذة، وضوء الشمس يمتد عبر الطاولة وحتى عيني. قال ليريك من دون مقدمات: "لقد قمت بتسجيل الدخول إلى كمبيوتر روس الليلة الماضية، لماذا؟".

كانت تلك وقاحة، إذ لم يكن لهم الحق في استجوابي، لكنني اضطررت إلى ممارسة ضبط النفس كثيرًا منذ مجيئي إلى هذا البلد، وأصبح الأمر تلقائيًا الآن. أوضحت أن روس طلب مني أن أتحقق له من أحد التقارير، وكان "التحقق من أحد التقارير لروس" يعني كتابته نيابة عنه، وكنَّا أنا وليريك نعلم ذلك.

"لماذا احتجت إلى تسجيل الدخول على جهاز الكمبيوتر خاصته؟ فمن المؤكد أن روس أرسل إليك أي ملفات كنت في حاجة إلى العمل عليها".

"بالطبع، لكن لا يمكننا دائمًا أن نعرف مقدمًا كل الوثائق التي سأحتاج إلى مراجعتها، وفي الليلة الماضية كنت في حاجة إلى معلومات غير موجودة في الملفات التي بحوزتي".

انعقد الحاجبان الرائعان على نحوٍ يكاد يبدو مثيرًا، وقال ليريك: "لا يجب أن يعطي روس كلمة المرور الخاصة به لأحدٍ، فهذا يخالف القواعد بالنسبة إلى مستواه الإداري، فلديه حق الوصول إلى معلومات محظورة".

أجبت قائلًا: "أشعر بالفخر لأنني أحظى بثقة روس، وأعتقد أن هذا ينبع من سنوات عملي العديدة هنا، لكن ربما يجب مناقشة هذا الأمر معه".

"اليوم هو يومه المرن في العمل"، وكان هذا أيضًا شيئًا يعرفه كلانا. رحل روس في وقتٍ مبكرٍ من بعد ظهر اليوم السابق، متوجهًا إلى المزرعة لقضاء عطلة نهاية أسبوع ممتدة. واصل ليريك الحديث: "سأتناول الأمر معه بمجرد عودته".

فكرتُ: "حظًا موفقًا في ذلك الأمر"، لكنني قلت بصوتٍ مرتفعٍ: "هذا حقًا من الحكمة"، وحنيتُ رأسي لإظهار التواضع، فحدق إليَّ ليريك، بعينيهم الشبيهة بعيني طائر، وبدا كما لو أنهم يتأملونني من مسافة بعيدة.

في صباح الثلاثاء، عندما كان من المفترض أن يعود روس إلى العمل، اتصل بي وسألني عما إذا كان من الممكن أن أتفقد عرض باور بوينت من المقرر أن يقدمه بعد ظهر ذلك اليوم، إذ تعيَّن عليه الآن اصطحاب برادا إلى درس السباحة، فماذا لو واجهت صعوبات في المسبح؟ ولم تكن المربية المولدوفية تعرف حتى كيفية سباحة الكلب.

ذكرت أمر كلمة المرور خاصته (وهي Babygirl16)، فقال روس: "نعم، رأيت تلك الرسالة، يبدو أن هذا يمثِّل هوسًا بالنسبة إلى ليريك. قالت لي بورش إن ذلك النوع يعاني العقد، إذ يرتاد أحدهم تلك الحانة التي كانت تفضِّلها". صرخ طفل في الخلفية، فواصل قائلًا: "عليَّ أن أهرع يا صاح، لكن لا تقلق، سأتحدث مع ليريك".

في المرة التالية التي استخدمت فيها كلمة مرور روس، لم يصدر عن ليريك أي رد فعلٍ. فما الذي يمكنهم أن يفعلوه؟ يمكنهم إبلاغ قسم الأمن بالموضوع، وماذا بعد ذلك؟ كان رئيس قسم الأمن يرفع تقاريره إلى صهر روس، ومنذ وقتٍ ليس ببعيدٍ، تنافس ليريك مع

جميع الآخرين من المتفوقين الذين يحملون مؤهلات زائدة عن المطلوب، للفوز بالعمل بدوامٍ جزئي في مستودعات المتاجر الكبرى. ومن غير المحتمل أنهم يريدون أن يجدوا أنفسهم هناك مرة أخرى.

***

عقب إقرار تعديل القانون منذ عدة سنوات، شاهدت نشرة الأخبار مساء ذلك اليوم. وقعت احتجاجات أخرى خارج البرلمان، شارك فيها بعض العاملين في مجال الصحة، والاشتراكيون المعتادون، ومجموعة صغيرة من المسيحيين الذين رفعوا لافتات تعِد بالانتقام الإلهي الرهيب. تحدث وزير الصحة من موقعه على سلم البرلمان، وأكد لنا أن الضمانات لا تزال قائمة، وأن كل ما فعله التعديل ببساطة هو تسهيل حياة وموت كل شخص، من خلال التخلص من اللوائح البيروقراطية الزائدة عن الحاجة، التي كانت تثقل كاهل القانون الأصلي الذي أقرَّه البرلمان. كرر الوزير قائلًا: "الكرامة، وحرية الاختيار، والسرعة". ثم واصل الحديث وتحدث عن الضرر المستمر للاقتصاد الذي سبَّبته أمواج تسونامي الرمادية، وضرورة تحرير سوق الإسكان. وأشار إلى تكلفة المرافق السكنية، وشدَّد على الراحة التي تلوح في الأفق للأسر العاملة العادية التي تنوء تحت عبء رعاية المسنين. تعالت هتافات الاستحسان من الناشطين المُعتَمَدين لجماعة بشر ضد الكهول، وضربوا الأرض بأحذيتهم.

بعد ذلك، أُجريت مقابلة مع والد الوزير، الذي يعاني من التليُّف الرئوي، وبدا سعيدًا بالتشريع الجديد، قال: "سآخذ بالتعديل الجديد بأسرع ما يمكن، ولو كان أولئك العاملون في المجال الطبي الواقفون أمام البرلمان يهتمون حقًّا برفاهنا، فسيدعمون عزم هذه الحكومة على وضع حدٍّ لمعاناتنا وآلامنا بسرعة ومن دون ألم".

كانت هذه هي المرة الأولى التي سمعت فيها التعبير القائل "يأخذ بالتعديل"، ولم أعِر الأمر انتباهًا حينها، لأنني كنت مشغولًا بمسألة عاجلة تتعلَّق ببرام. اعتاد الذهاب إلى نفس درس اليوجا الذي تحضره شانيل، وكثيرًا ما تناولا الإفطار معًا بعد ذلك، وفي آخر مرة، اعترف بأنه واقع في مأزقٍ رهيبٍ. حكت لي شانيل عن محادثتهما بالتفصيل، عندما أخبرتني عن الأمر ونحن في الفراش تلك الليلة.

في أثناء تناولهما الميوزلي وعصير الكرنب، أخبرها برام أن محاسبه، جاريد، قد اعتُقِل، وذكَّرها بأن جاريد لفت انتباهه ذات مرة إلى فرصة مثيرة: فرصة للاستثمار في دار للجنازات. اعتزم أحد عملاء جاريد تولي إدارة الشركة، وكان يؤلف اتحادًا. قال جاريد لبرام إن العمل في مجال الجنازات صار مزدهرًا، وفوق ذلك كان لدى عميله إستراتيجية نمو مضمونة للمشروع الجديد. كان ينتوي تقديم خدمات منخفضة التكاليف، وأن يعرض على من فقدوا أحباءهم أسعارًا رائعة، وعروضًا خاصة مذهلة مقابل الدفع نقدًا، قال برام: "كان العائد المتوقع عشرين في المائة".

قالت شانيل: "أذكر هذا، وقد سألتك كيف يقدم عشرين في المائة، في حين أن النسبة المعتادة تتراوح ما بين أربعة إلى خمسة في المائة؟".

"كان ذلك رائعًا للغاية، وقد ساهم حقًّا في إنقاذي".

(أراهن أن برام مرَّر يده خلال شعره حينها، لكن شانيل تتمتع بحصانة ضد شعره المموج، وكانت سترفع حاجبها الذي لا يتماشى مع الموضة، وتنتظر كي يواصل الحديث).

كرَّر برام قائلًا إنه لم يستثمر في دار الجنازات، وقالت لي شانيل: "ليس لأنني نصحته بعدم القيام بذلك، لكن لأن الموضوع أُثير مباشرة عقب فشل ذلك المنتجع البيئي الفاخر الذي كان برام يمتلك أسهمًا فيه، أتذكر ذلك؟ كنت قد حذرته من المشاركة في ذلك أيضًا، لكنه

قال إن المنتجع يقع في غابة مطيرة قديمة لم تمسها النار من قبل قط. كانت واحدة من إستراتيجيات جاريد الاستثمارية الباهظة التكلفة. على أي حال، أبعدت تلك الكارثة برام عن المشاركة في ذلك الأمر المتعلق بدار الجنازات".

والآن، تزعم الشرطة أن الغرض الحقيقي من دار الجنازات هو غسيل الأموال. كان رجل الأعمال الذي يقف وراء المشروع شخصية من عالم الجريمة، يُشتبه في عمله في تهريب الألماس. صدرت مذكرة ضبط باسمه، لكنه اختفى، وصار جاريد رهن الاحتجاز، مع جميع المساهمين في الدار، وعلم برام كل شيء من شقيقة جاريد، التي كانت واحدة من مرضاه.

تكمن المشكلة في أنه في أيام ذروة النجاح، عندما كان المنتجع البيئي يحقق أرباحًا، لم يبلغ جاريد عن حقيقة دخل برام بالكامل. أقسم برام إنه لم يطلب من جاريد فعل أي شيء من هذا القبيل. قال لشانيل: "أنت تعرفين كيف تسير الأمور، توقِّعين النموذج الذي يقول إن كل شيء في إقرارك الضريبي صحيح، وإنك تحققت من كل شيء بنفسك، لكن من يفعل ذلك بالفعل؟ لهذا نستعين بخدمات المحاسبين، ودعيني أخبرك، بأن خدمات جاريد لم تكن رخيصة الثمن".

قالت لي شانيل: "كان برام يعرف جيدًا ما يفعله جاريد، لكن كما تعلم، إنها الضرائب، ومن منَّا لا يحب تحدي السلطات؟ سألني برام: "كم يبلغ عدد البلايين من الدولارات الضريبية التي ساعدتِ المؤسسة على عدم دفعها هذا العام؟"، ولم يكن لديَّ ما أقوله للرد على ذلك".

عند ذكر التهرب الضريبي، نهضتُ من الفراش، والرهبة ترتج في بطني كحساء خفيف بارد. ستراجع الشرطة الأسماء المدرجة في قائمة عملاء جاريد، للبحث عن المزيد من الأدلة على أي نشاط إجرامي،

وسيتتبعون كل بصمة رقمية ويفحصون كل وثيقة رسمية. قلت لشانيل: "لديهم برامج خاصة، وإذا أدخلوا إقرارًا ضريبيًّا في واحد منها، ستظهر أي تناقضات".

يخشى كل وافد جديد إلى هذا البلد أن يُعاد قسريًّا إلى وطنه الأم، وحتى أولئك الذين وُلدوا هنا لا يتم إعفاؤهم إذا لم يكن آباؤهم أو أجدادهم قد وُلدوا هنا أيضًا، إذ يكفي وجود جد مهاجر واحد من بين كل أربعة. وهو شرط دائمًا ما يذكّرني بحصان السباق الذي كان برام يمتلك نصيبًا فيه، والذي كسر ساقًا واحدة فقط من سيقانه الأربعة، فصار لا مفرَّ من قتله. كان اسم الحصان "كاتاكومب"، لكن شانيل اعتادت أن تطلق عليه "كاتاتونيك"، أي مشلول، لأنه دائمًا ما كان يأتي في آخر ثلاثة مراكز. لم تجلب سيقان ذلك الحيوان له شيئًا سوى سوء الحظ.

قالت شانيل: "لسنا من أفراد العائلة المباشرين، وعلى أي حال قد لا يُعاد برام إلى وطنه، فهو يعرف الكثير من الأشخاص ذوي النفوذ، ويحظى بتقديرٍ كبيرٍ في مجاله".

"وماذا عن لاعب كرة القدم الذي تعرض والده لمشكلات؟ إذا تمكنوا من إعادة بطل رياضي إلى وطنه الأم...".

"برام ليس مسلمًا، ولم يكن كذلك قط. ستعد تلك نقطة في صالحه. وقد يخرج من الأمر بغرامة فقط".

"حتى الآن، فإن المهاجرين الوحيدين الذين نالوا غرامة فقط هم من البيض".

لاحظتُ بين الصور الموضوعة على الخزانة ذات الأدراج صورة لي في شبابي، وفكرت كم هذا غريب، ألم نتخلص من كل تلك الصور عند رحيلنا؟ ثم أدركت أنها صورة فوتوغرافية لسيدني. إن سيدني طويل ونحيل كالعمود، ويشبه والد شانيل، ولا يبدو مثلي على الإطلاق.

قالت شانيل: "نحن محظوظون للغاية لأنك تستطيع أن تعتني بالأمر".

توقعت ذلك كما أتوقع أزمة قلبية، فرفضت. رفضت في الحال، وواصلت الرفض.

قالت شانيل: "لقد أخبرت برام بالفعل أنه يمكنه الاعتماد علينا، إنه من أفراد العائلة".

"ليس من الأقارب المباشرين، وقد ذكرت هذا بنفسك".

"لكنه لا يزال مع هذا فردًا من العائلة. فكر في كل ما فعله من أجل آيفي، لقد أخبرته أننا سنساعده".

"تقصدين أنكِ أخبرته أنني سأساعده".

مكتبة
t.me/soramnqraa

"نعم".

"لا".

قالت شانيل: "حتى لو نال غرامة فقط، فأنت تعلم ما سيحدث، ستوضع في سجل برام، وستوضع علامة بجانب اسمه، واسمنا أيضًا، لأننا ضمنًا طلبه حينما تقدم للهجرة. فكر في الولدين".

استلقيت على جنبي، وحدقت إلى خزانة الملابس. اصطفَّت بذلاتي وقمصاني خلف الأبواب ذات المرايا. عند الذهاب إلى المكتب، دائمًا ما أختار الألوان الطبيعية التي لا تلفت الانتباه: ألوان الطين، والغيوم، والسماء التي يشوبها الدخان. عندما كانت ميل مراهقة، نظرت إليَّ ذات صباح وقالت: "إذا وقفت بجوار خزانة ملفات، ستصبح غير مرئي". بالضبط! والآن، ها هي شانيل -شانيل- تتوقع مني تعريض كل شيء للخطر، بما في ذلك الهوية الخفية التي جاهدت لبنائها. شعرت بغصة في حلقي. بذلاتي العزيزة! كان وضعها، وهي معلَّقة هناك، خاوية وسط الظلام، يدعو إلى الرثاء. أردت أن أربت على أكمامها،

وأؤكد لها أنها محبوبة، وفي أمان. بدا أن شانيل تتحدث، هل سمعتها تقول "نطلب تسديد الدين يومًا ما"؟ لست متأكدًا من ذلك. ربما قالت شيئًا، أو لا شيء على الإطلاق. لكن آمل أن أكون قد أوضحت أن شانيل استثنائية، ومن المحتمل أنها حتى في تلك اللحظة، كانت تفكر في المستقبل.

***

أول ما فعلته في اليوم التالي هو أنني نزَّلت تطبيق لعبة "اضرب مُـلًا". يدَّعي المتحدثون الرسميون باسم الحكومة أن اللعبة ما هي إلا وسيلة تسلية لا ضرر منها، ويصرون على أن التطبيق غير خاضعٍ للتتبُّع، لكنني حرصت على اللعب عدة مرات يوميًّا خلال فترات الانتظار، إذ قد يشكِّل هذا نقطة صغيرة في صالحي إذا ضُبطت متلبسًا بمساعدة برام.

في الفترة التي تلت ذلك، صرت أستيقظ كل ليلة في الثالثة. وقبل استيقاظي مباشرة، يظهر أحد معارفي القدامى من المدرسة، ويطاردني بطول مساحة ضيقة لا نهاية لها: زقاق؟ ممر؟ خندق؟ ويصيح قائلًا: "أراك لاحقًا! أراك لاحقًا!". عقب استيقاظي، كنت أتسلل إلى الطابق السفلي، من دون الاهتمام بإضاءة نور السلم. عند التفكير في الأمر الآن، أتساءل عما إذا كنت أرغب لا شعوريًّا في السقوط وإيذاء نفسي، حتى لا يتوقع مني أحد شيئًا. في المطبخ، كنت أعد القهوة، ثم أستقر في غرفة المعيشة لتهدئة نفسي من خلال مشاهدة قناة ريتروفليكس. استغرقني فيلم وثائقي عن حركة راجنيش. قرب النهاية، فرَّ زعيمهم أوشو على متن طائرة من مجمعهم في أوريجون. وكان عرش أوشو من بين المتعلقات التي نُقلت على متن الطائرة. الغريب في الأمر هو

أن العرش بدا كأنه كرسي رثٌّ له ذراعان، مغطًّى بقماشٍ خشن. هل أُخفيت الأموال أو الأحجار الكريمة بين ثنايا القماش؟

ربما أتذكر شكل العرش على نحوٍ غير صحيحٍ. في تلك الليلة، كنت قد وصلت لتوِّي إلى منعطف الدرج، عندما خرجت آيفي من غرفتها عند طرف الردهة. لم ترَني، لكنها مضت في طريقها متعثرة، ويداها ممدودتان كما لو أنها تبحث عن شيء ما. لا بد أنها استيقظت وهي في حاجة إلى الحمام، وكانت مشوَّشة من أثر النوم، فتوجَّهت نحو الباب الأمامي بدلًا من ذلك. انفك شعرها، وسقط حول كتفيها في خصلات بيضاء رقيقة. الشعر المفكوك، ورداء النوم الصيفي القصير، وخطوات آيفي المترددة المتعثرة، كلها جعلتني أفكر في طفلة. وبدت الطفلة في حاجة إلى الحماية، لكن عند تأمُّل هذه الفكرة لاحقًا في أثناء مشاهدة أوشو وهو يستقل طائرته الخاصة، رأيت أنها مثيرة للضحك.

في ذلك الوقت، كان سيدني يدرس علم الأحياء البحرية في جامعة ملبورن. عاش في منزل مشترك، وبدأ يرسل إلينا صورة كل يومٍ. أذكر صورة تظهر رقعة النفايات الكبرى في المحيط الهادئ، وأخرى عن إزالة الغابات في الأمازون. شعرنا بالامتنان أنا وشانيل، لأن سيدني التزم بالحظر المفروض على نشر أو مشاركة الصور الأسترالية من هذا النوع، واكتفى بإرسال صور لأجزاء أخرى من العالم. وعندما سألناه عن سبب إرسالها إلينا، أجاب أنه يأمل في توضيح الشرور المترتبة على غياب أي سياسات للحكومة الأسترالية للتعامل مع التغيُّر المناخي. بدا كأنه يعتقد أن حكومتنا كانت وراء تجويع الدببة القطبية، والتلوث الصناعي في الصين! أما بالنسبة إلى ما أسماه "المسؤولية الشخصية"، فقد ذكَّرناه بأننا نملأ سلة إعادة التدوير كل أسبوعين، ونأخذ المواد البلاستيكية اللدنة التي تنتجها شركة "كولزوورث" إلى السوبر ماركت لتحويلها إلى مواد جديدة.

نحن فخورون للغاية بسيدني، فها هو وقد بقي له عام واحد فقط حتى ينتهي من رسالة الدكتوراه التي تدور حول أسماك شيطان البحر، لكننا نخشى ما قد يحدث بسبب هوسه الشديد بالبيئة. تمنينا أن يدرس الطب، ونلقي باللوم على تحيُّزات آيفي التي أبعدته عن ذلك الطريق. كما كانت هناك أيضًا أفلام ديفيد أتنبورو الوثائقية التي اعتادا على مشاهدتها معًا عندما كان سيدني طفلًا. لم نبدِ أي اعتراض في البداية، معتقدين أنها أفلام تعليمية. ثم بدأت الكوابيس تراود سيدني، وليلة بعد ليلة بدأ يصرخ تحت لحافه المنقوش برسوم سبايدرمان، لأن العديد من الحيوانات قد اختفت أو صار محكومًا عليها بالفناء.

كان الخطأ الآخر الذي ارتكبناه ذات مرة هو أننا ذهبنا بعيدًا في ذكرى زواجنا، وتركنا آيفي مسؤولة عن الطفلين. غبنا ثلاث ليالٍ، وعدنا لنجد رجلًا ريفيًّا وعنزته في فنائنا. الرجل الملتحي، والحيوان ذو العينين الشبيهتين بجوهرتين، والمرأة العجوز، والطفلان اللذان يتواثبان في الأرجاء: بدا المشهد كأنه من قصة خيالية، وأعني بهذا أنه كان غريبًا ومثيرًا للخوف. عندما رآنا آلان، شرع في النباح والقفز خلف بوابة الفناء. رفعت آيفي صوتها فوق الضجيج، وأوضحت لنا أن الرجل فَقَدَ أسرته في حريقٍ للغابات، كما فَقَدَ عمله عندما نفد الماء من بلدته، فدفعت له المال مقابل تعليم الطفلين كيفية حلب الماعز. ناولني نشرة دعائية مغلَّفة بالبلاستيك، ملوَّثة بالبصمات، تدَّعي أن التجربة "تشجِّع الطفل على التعاطف مع البيئة"، كما كانت هناك أيضًا دعاية حول فوائد منتجات ألبان الماعز. رفع سيدني علبة آيس كريم من ماركة ستريتس، قديمة للغاية، إلى درجة أن البلاستيك الأحمر ظهرت به بقعٌ ضبابية بيضاء، وقد رأيتها آخر مرة وهي مليئة بالماء القذر المتبقي من غسيل النوافذ، لكنها صارت تحوي الآن الحليب الملوث بارتفاع بوصة. كانت العنزة ترتدي منديلًا رثًّا على

رأسها، وقد أكلت زهور الجازانيا خاصتنا حتى مستوى سطح التربة، وتناثرت في الفناء حبيبات تشبه كرات قدم صغيرة. تفوَّهت شانيل ببضع كلمات، وتحدثت بابتسامة وبهدوءٍ، فرحل الريفي عن منزلنا من دون إثارة ضجة، لكنه ظلَّ يقود عنزته في أرجاء الحي لعدة شهور، وطوال تلك الفترة، اضطررتُ إلى التوجه إلى كل مكان بالسيارة، لأنني خشيت أن يناديني ذلك الريفي لو صادفني في الطريق. وحتى يومنا هذا، تذكرني به البرك البنية الطويلة التي تتشكَّل بعد المطر، وليس لديَّ أي فكرة عن السبب.

***

مع صور سيدني الفظيعة التي بلا معنى، والحرمان من النوم، والتفكير فيما ينتظرنا، كان وقتًا عصيبًا، وكدت أشعر بالارتياح عندما آن أوان التصرف. ذات يومٍ، في الساعة الثانية بعد الظهر، وقف روس عند مكتبي حاملًا مفاتيحه في يده. كان يرتدي قميصًا أرجوانيًّا ويحمل على ذراعه سترة من الكتان. هذه ملبورن، وقد بلغت الحرارة في الخارج ثلاث درجات. نظَّف أذنه بالمفتاح، وطلب مني "مراجعة ذلك الشيء الذي وصلنا من الشرطة الفيدرالية، وتوزيع المهام اللازمة"، إذ لم يعُد يكترث باختلاق أعذارٍ لمغادرة العمل. حتى قابلت روس، لم يسبق وأن رأيت وجهًا مثل وجهه على رجلٍ بالغٍ. تخفي النظارات الشمسية أفكاره، وعند خلع النظارة، تلتقي عيناه بعينيك صراحة، وتسألك: "من؟ أنا؟ أنا لم أقترف أي خطأ، يا صاح". يؤكد ذلك الوجه قناعتي بأن الأستراليين لم يقترفوا أي أفعال سابقة في حياتهم.

قبل انضمام روس إلينا، كان رئيس القسم دائمًا هو من يجري التقييم الأولي للقضايا الواردة، لكن روس لم يكلف نفسه عناء إجراء التقييم الأولي للقضايا الواردة منذ سنواتٍ، وانتقلت تلك المسؤولية

إليَّ. كان ما أرسله إليَّ بعد ظهر ذلك اليوم هو قائمة عملاء جاريد. توقعت أن أشعر بالخوف، وقلت لنفسي إنه عندما تحين اللحظة، سيكون من الضروري تجنُّب الأخطاء الناتجة عن التوتر، لكن عندما فتحت ملف روس ورأيت محتوياته، لم أشعر إلا بالارتياح. كان أمامي هنا، وعرفت ما يجب أن أفعله بالضبط، وبدا الخطر ضئيلًا.

وردت عدة مئات من الأسماء في القائمة: أفراد، وشركات، ومنظمات. وقد وضعت الشرطة الفيدرالية رمزًا باللون الأحمر على عشرة في المائة تقريبًا من عملاء جاريد، وجميعهم من الأفراد. كان تقييم تلك القضايا على رأس أولوياتنا. اكتشفنا أن بعض الأشخاص حصلوا على رمز أحمر لأنهم كانوا مسلمين سابقين، وقد ظهروا في كل قائمة تلقيناها، بينما قد يكون للآخرين روابط عائلية مع ناشطٍ من دون ترخيصٍ، أما الباقون فمن المحتمل أن يكونوا قد تهوَّروا في نشر شيء على مواقع التواصل الاجتماعي، أو وقَّعوا التماسات معينة، أو تم تصويرهم في احتجاجات معينة، أو قدموا تبرعات لمنظمات معينة، أو أثاروا القلق بطريقة أو بأخرى. وبجانب كل اسم أحمر في قائمة جاريد، ظهر أيضًا رمزٌ رقمي واحد على الأقل، وليس من المستغرب أن يسود رقم محدد، وهو ذلك الذي يرمز إلى التهرب الضريبي.

وُضِع على معظم الأسماء بالقائمة رمزٌ باللون الأصفر، وكانت هذه أسماء العملاء المشتبه في قيامهم بنشاطٍ غير قانوني، لكنه لا يمثِّل خطرًا وطنيًّا. مرة أخرى، ساد الرمز الذي يشير إلى التهرب الضريبي في كل مكان، أخيرًا، وُضع على بعض الأسماء -سبعة وعشرين اسمًا في المجمل- رمزٌ باللون الأبيض. رفض هؤلاء العملاء المثيرون للدهشة خدمات جاريد المشبوهة أو تهربوا منها، ولم يجد تحقيق الشرطة أي سبب للاشتباه فيهم في أي شيء آخر.

وُضع على اسم برام رمز باللون الأصفر، كما حمل بجانبه رقمين. خشيت أن تكون الشرطة قد اكتشفت شيئًا آخر ضد برام: قضية إهمال طبي تم التكتم عليها، أو منشورًا على وسائل التواصل الاجتماعي حول نقص تمويل الرعاية الصحية. لكن تهور برام يقتصر على الأمور المالية فحسب، وكانت الأرقام المخصصة له تدل على التهرب الضريبي، وعلى كونه مهاجرًا.

بمجرد الانتهاء تمامًا من تقييم القضايا التي لها أولوية، ينتهي الأمر بإعادة تخصيص رمز بالأصفر أو الأبيض لبعضها. ويقوم روس بذلك، بعد اتباع التوصيات التي قدَّمها موظفُّوه، ثم يرسل جميع الأسماء التي لا تزال تحمل رمزًا أحمر إلى الأمن. وبمجرد تقييم جميع القضايا التي تحمل رمزًا أصفر، تُرسل هي أيضًا إلى السلطات المناسبة، وبالنسبة إلى معظم عملاء جاريد، سيكون هذا هو مكتب الضرائب. كان ما يتعين عليَّ فعله بسيطًا حقًّا. أدخلت كلمة مرور روس، مما مكَّنني من تعديل جدول البيانات، وغيَّرت رمز برام من الأصفر إلى الأبيض. بعد ذلك، حذفت رقم التهرب الضريبي الخاص به، ولم يتبقَّ سوى الرقم الذي يحدد وضعه كمهاجرٍ، وهو ما يدل عليه اسمه على أي حالٍ.

عندما أخبرت شانيل بما أخطط للقيام به، سألتني: "لماذا لا تزيل اسم برام من القائمة فحسب، عندما تحصل عليها؟"، فأوضحت لها أن ليريك يحتفظون بنسخة من كل مستندٍ يأتي إلى قسمنا، إلى جانب نسخة من كل مستندٍ صادرٍ من القسم. لم يكن هناك سبب يدفعهم إلى مقارنة عدد القضايا الواردة في القائمة المُعاد تقييمها، بعدد القضايا الموجود في القائمة التي تلقيناها، لكنني لن أجازف على الإطلاق في ذلك الأمر، لذا اكتفيت باختيار رمز أبيض بريء لبرام.

أول ما فعلته هو تغيير لون الرمز، وكان الأمر سهلًا. بعد ذلك، شرعت في تقسيم جميع القضايا للتقييم، وهي مهمة حساسة، فإلى جانب تخفيض عدد الموظفين، سرت بعض الهمسات المتذمرة من الإرهاق بسبب كثرة العمل. لذلك أجريت تقييمًا سريعًا لكل قضية، لتحديد المدة التي قد تستغرقها. وإنه لمن دواعي اعتزازي الاهتمام بتوزيع العمل بشكلٍ عادلٍ قدر الإمكان، مع الاحتفاظ لنفسي بأكثر القضايا تعقيدًا، وقد لوحظ هذا، وأعرب العديد من زملائي عن تقديرهم. وقال زميل أو اثنان أشياء من قبيل: "من المثير للحنق أن يتم تجاوزك في الترقية لصالح روس"، لكن هؤلاء من الأشخاص الذين يتصفون بالطموح الشديد، ولن يطول بهم الوقت هنا.

بدأ قسم التقييم يخلو بينما واصلتُ أنا العمل، وانحسرت مساحات كاملة من طابقنا عقب إطفاء الأنوار. تفقدتُ الوقت، فوجدته تجاوز السابعة. ثم شممتُ الرائحة: احترس، احترس. لا أشعر بالارتياح عند اقتراب ليريك إلى هذا الحد. يبدو الأمر شبيهًا بالمتسوقين الذين كانوا يزيحونني جانبًا ويندفعون لأخذ آخر لفافات من ورق التواليت في أثناء الوباء، وأريد القول: "من فضلك، ابتعد، وقف هناك".

"هل تعمل حتى وقت متأخر مرة أخرى؟ ما الذي لا يمكنه الانتظار الآن؟".

أجبتُ بنبرة هادئة ومتحفظة، قائلًا إنني أعمل على توزيع مهام القضايا، فسألوا: "لماذا احتجت إذن لاستخدام كلمة مرور روس؟".

قلتُ مبتسمًا، كما لو أنني أرحب بالاهتمام البادي من ليريك بعملي: "كان هذا على سبيل الاحتياط، فمن وقتٍ إلى آخر، تحدث بعض الأخطاء في تخصيص الرموز. منذ يوم مضى فحسب، ظهر اسم شرق أوسطي برمزٍ أبيض، فأعدت ترميزه باللون الأحمر".

"ليس كل من يحمل اسمًا شرق أوسطيًّا كان مسلمًا سابقًا، كما تعلم".

"صحيح، لكنني قيَّمتُ الحالة بنفسي، واكتشفت أن سلطة التحقيق قد ارتكبت خطأ". أسعدني أن ذلك كان صحيحًا تمامًا، إذ إن من مبادئي الالتزام بالحقيقة حيثما أمكن ذلك. تابعتُ الحديث: "في عملنا هذا، لا يمكننا المبالغة في توخي الحرص، إن الآثار الأمنية بالنسبة إلى أستراليا المترتبة على خطأ في الترميز...".

"إذا كنت قلقًا بشأن الأمن، فلا يجب أن تستخدم كلمة مرور روس"، وأشاروا بأصابعهم في الهواء لرسم علامات تنصيص، وتابعوا: ""كإجراءٍ احترازي"، لا يحق لك استخدامها إلا عند الضرورة".

قلت: "أنتم على حق"، ثم مسحت عيني بكفِّي وتنهدت. "شكرًا جزيلًا للفت انتباهي لهذا، يجب أن أتذكر تقديم الاعتذار لروس. لقد واظبت على العمل لساعات طويلة مؤخرًا، إلى درجة أنني أنسى الالتزام بالحذر من وقتٍ لآخر".

ولا شك في أنني ممتنٌّ لليريك بالفعل. في الماضي كان قسم التكنولوجيا هو المسؤول عن مراقبة كلمات المرور، وهم يحتفظون برقم الأمن في قائمة الاتصال السريع، وكانوا سيبلغون عني على الفور، لكن قسم التكنولوجيا بات يعمل فوق طاقته بسبب كل التهديدات التي يتعرض لها أمننا المعلوماتي، بحيث أصبح كل قسم مسؤولًا عن إدارة كلمات المرور الخاصة به الآن.

هل ذكرت أن ليريك أضافوا إلى مجموعة ألوان عينيهم لون الأوبال الناري؟ إنها أحدث صرعة، وأينما تلفَّت، تجد الشباب يحدقون إليك بأعين براقة متعددة الألوان. جرَّبتها ميل، لكنها خلصت إلى أنها لا تناسب لون بشرتها. تلألأت فوقي نظرة ليريك باللونين الوردي والأزرق،

وأخيرًا، قالوا: "لا تتأخر كثيرًا". مرَّت دقيقة، ثم سمعت المصعد يُفتَح ويُغلَق، وأدركت أن إبطيَّ يتصببان عرقًا.

التمعت عينا برام بالدموع وهو يشكرني، لكزته بإصبعي وغمزت قائلًا: "تذكر كل الرعاية التي أوليتها لآيفي. أنت فرد من العائلة، وأعلم أنك ستفعل نفس الشيء لنا".

***

لم يمض وقتٌ طويلٌ بعد ذلك، حتى أرسل إلينا برام رسالة: "هذه ليست أخبارًا جيدة، يا رفاق. أظهرت عينة براز آيفي وجود آثار للدم، ومع الأخذ في الاعتبار بالأعراض الأخرى التي تعاني منها (فقدان الوزن، وما إلى ذلك)، فلا يمكنني استبعاد احتمال وجود خلايا سرطانية في الأمعاء، وهذا قابل للعلاج بدرجة كبيرة في حال الاكتشاف المبكر، لذا فإن فحص القولون بالمنظار هو الخطوة العاجلة التالية، وأعتقد أننا جميعًا نستطيع تخمين رد فعل آيفي! ما رأيكما لو أتيت مساء غد، وناقشت كل شيء معها؟ سيكون من الرائع أن أحظى بدعمكما".

حدَّثتُ شانيل عن مشاعري في الفراش تلك الليلة. انشغلت شانيل بممارسة تمارين يوجا الوجه، إذ إنها تمارس عدة مهامٍ في نفس الوقت متى تمكَّنت من ذلك. إليكم جدولها الصحي: نصف ساعة من التمارين لتنشيط القلب، وعشر دقائق من رفع الأوزان، واليوجا في الصباح مرة واحدة أسبوعيًّا، والسباحة وقت الغداء مرة واحدة أسبوعيًّا، وتمارين البيلاتيس المسائية مرة أسبوعيًّا، ومساج بالأحجار الساخنة مرة كل أسبوعين، واتباع أسلوب فيلدنكريز مرة شهريًّا، وجلسات التصريف اللمفاوي مرة كل ثلاثة أشهر، وتمرينات البار يوم السبت، وتمرين الملاكمة يوم الأحد، وخمس دقائق من تمارين قاع الحوض، وخمس دقائق من المشي إلى الخلف بطول الردهة. وكل هذا

مـن دون ذكـر مواعيدهـا الشـهرية للعنايـة بالشـعر والأظافـر والتجميـل. في الغالـب نسـيتُ شـيئًا، لكـن شـانيل لديهـا جـدول بيانـات لتتبـع كل شيء.

هـل يبـدو كل هـذا مبالغًـا فيـه؟ أوضحـت شـانيل السـبب في أن هـذه ليسـت مبالغـة: إن الرجـل الـذي يقـدم لزملائـه معلومـات موثقـة يسـتمد كل السـلطة التـي يحتـاج إليهـا مـن أناقـة بذلتـه، لكـن الأمـر مختلـف بالنسـبة إلى المـرأة، مهـما بـدا مظهرهـا قياديًّـا. هـل يمكـن لامـرأة بذراعـين مترهلتـين وخـصر سـميك ومؤخـرة أقـل مـن مثاليـة أن تسـيطر عـلى أعضـاء مجلـس إدارة؟ ربمـا، لكـن شـانيل لا تعمـل مـع منظمـة ألمانيـة غـير حكوميـة. لا توجـد سـوى امرأتـين في مناصـب قياديـة في المؤسسـة، كلتاهما مـن أصحـاب البـشرة البيضـاء، ولهـما شـعر امتـزج في خصلاتـه اللونـان الأشـقر والبنـي، وتتمتعـان بقـوامٍ انسـيابي، كـما أنهـما لا تتنـاولان السـكر وليـس لديهـما أطفـال عـلى الإطـلاق. بـدت هيئتهـما في صلابـة البنـادق. ركـزت شـانيل عـلى هـدف واحـد: منصـب المديـر المـالي. كـما أنهـا تحـرص عـلى ارتـداء الملابـس الداخليـة التـي تعمـل عـلى شـد جسـدها بقـوة، لأن حلمهـا سـينتهي في اليـوم الـذي لا تتمكـن فيـه مـن حـشر جسـدها في ملابـس مقـاس 10.

قبـل سـنوات، خضعـت شـانيل لجراحـة لتصغـير الثـدي. كانـت حينهـا لا تـزال تعمـل في "مؤسسـة الآخـر"، وكان العمـل في طريقـه إلى الانكـماش، لكـن نصائـح شـانيل الصارمـة كانـت عرضـة للتجاهـل. أعلنـت عـن الخسـائر والحاجـة إلى خفـض التكاليـف، في حـين أن ثدييهـا يوحيـان بالرعايـة والامتـلاء، وكانـا يكلفانهـا احـترام المديريـن التنفيذيـين. وقـد حقق اسـتثمار شـانيل في نفسـها أرباحًـا ممتـازة، إذ لم يمـضِ سـوى سـتة أشـهر بعـد عمليـة تصغـير الثديـين، حتـى اتصـل بهـا مديـر التوظيـف بالمؤسسـة.

بينـما كنَّـا نتحـدث عـن رسـالة بـرام، وسَّـعت شـانيل عينيهـا حتـى تمكنـتُ مـن رؤيـة كل مـا حـول قزحيـة العـين، وجعلهـا هـذا تبـدو

متشككة، لكن كان عليها أن تبقي عينيها هكذا حتى تدمع. قلت: "لطالما علمت أنني سأضطر إلى مواجهة هذه الخسارة يومًا ما، لكن عند رحيل آيفي، سأصبح يتيمًا، وأشعر أنني... مكشوف للغاية". بدأت الدموع تنهمر على وجنتي شانيل، لكنها زمت شفتيها وأرسلت إليَّ قبلة، وكان ذلك أيضًا جزءًا من روتينها ليوجا الوجه، لكن حتى مع ذلك، شعرتُ بالدعم والارتياح.

***

عدت إلى المنزل من العمل في وقتٍ أبكر من المعتاد في اليوم التالي لأجد أن فانتا صفَّفت شعر آيفي، ولفَّته خلف رأسها. بدأت تأتي إلى المنزل، وتلغي أي مواعيد مسبقة عندما تتصل بها آيفي، كما وضعت لآيفي أيضًا مساحيق التجميل وتولَّت العناية بأظافرها، استعدادًا لزيارة برام.

رأيت آيفي ذات مرة تحمل مجموعة من أوراق اللعب على شكل مروحة، وتدعو فانتا إلى اختيار واحدة. قالت آيفي: "الألماسات الخمس، هذا يعني التغيير للأفضل"، فتغضَّن وجه فانتا فرحًا. ما الذي يمكن أن يعنيه التغيير إلى الأفضل بالنسبة إلى فانتا؟ إنها مسلمة سابقة من إحدى تلك البلدان تعيسة الحظ التي نراها في الأخبار، وتبدو كما لو أنها مكونة من الأوساخ، وحتى ناطحات السحاب ليست سوى أنقاض تنتظر الانهيار. لن تتمكَّن فانتا من الهرب من وطنها أبدًا، فهي شخص التصقت بيده حقيبة سفر، ولا يعني هذا أنها تعود إلى هناك للزيارة، فما الذي يوجد هناك كي تعود إليه؟ دار للأيتام تهب فيه الريح دافعة أمامها القمامة عبر الممرات، وحيث يدور المغتصبون بين المهاجع، وتنمو الأعشاب الضارة في الساحة الخرسانية المشققة؟

يبدو شعر فانتا كسفينة شراعية، لكن كتفيها يذكّران المرء بالحصان، وتبدو كل ملابسها كملابس النوم. وقد علّمت نفسها اللغة الإنجليزية من مقاطع يوتيوب، فكانت تقول: "تبدين رائعة للغاية!"، و"ما أجمل أستراليا!"، و"إلى اللقاء، سعدت جدًّا بمقابلتك". وفي يوم زيارة برام، أحضرتْ لآيفي أصيصًا من السكلامين. تتناثر هداياها في غرفة آيفي: شمعة معطرة، وشوكولاتة على شكل أصداف، وإناء زجاجي يحتوي على مسحوق شاي أعشاب من موطن فانتا، تقسم إنه يحمي من كل شيء، ويبدو مثل الأوساخ.مكتبة سُر مَن قرأ

كانت بعض الفوضى البسيطة في الأسواق العالمية تعني أن شانيل ظلّت عالقة في المؤسسة، عندما وصل برام ذلك المساء. تحب آيفي استقباله في الردهة، إذ يساعد هذا على التظاهر بكونها زيارة اجتماعية. وللمرة الأولى، تبعتْ برام إلى غرفة آيفي، ولم تثِر هي أي اعتراض. جلست وعمودها الفقري على بُعد بوصة من ظهر الأريكة، إذ كانت طريقة جلوسها شيئًا آخر تدين به للراهبات، وارتدت أفضل ما لديها: خاتمها المرصع بالزمرد، وفستانًا لامعًا بلون وردي زاهٍ، يصل طوله حتى حذائها الطبي. تتمتع آيفي بذهنٍ صافٍ، لكنها تعتقد أنها لا تزال في السادسة والعشرين من العمر. كانت المرة الأخيرة التي ارتدت فيها هذا الفستان الوردي هي لحضور حفل تخرج ميل، وعندما ساعدتها على خلع معطفها، رأيت الناس يتساءلون لماذا ترتدي هذه العجوز ملابس تصلح للأوبرا في العاشرة صباحًا.

يمكن الاعتماد على برام مثل السيارة التويوتا. أثنى على فستان آيفي ولون أظافرها المتماشي معه، ثم أمسك بيدها، وتحدث معها عما كشفه الاختبار، وأخبرها بطريقة مباشرة أن منظار القولون هو الخطوة التالية.

"لماذا؟".

"لتحديد ما إذا كان السرطان موجودًا أم لا، تؤخذ عينة للتحليل...".

قالت آيفي: "لا أريد أن أعرف".

"أحتاج إلى معرفة الوضع، كي أتمكَّن من تحديد العلاج. يظهر سرطان الأمعاء في عدة أشكال، لكنه قابل للعلاج بدرجة كبيرة إذا اكتُشف مبكرًا".

"أي نوع من العلاج؟".

"هذا يعتمد على ما يظهره منظار القولون، سيتم استئصال الورم جراحيًّا، وستكون هناك متابعة...".

"لن أوافق على الخضوع للجراحة مرة أخرى أبدًا".

استمر الحديث دائرًا بينهما، وكان برام يرتدي إحدى القطع التي غزلتها آيفي بالصوف، وهي سترة خضراء بلون العشب الصناعي، لها ياقة وأزرار جلدية. أعتقد أنه يحتفظ بها في سيارته، ولا يرتديها إلا عندما يأتي إلى هنا. كما أمتلك أنا أيضًا نفس السترة بلون أحمر زاهٍ، وأرتديها في أثناء أداء مهام متفرقة في أرجاء المنزل، بينما تظل باقي الوقت معلَّقة في المرآب، حيث يتجمع العث في الربيع.

أمسكت آيفي منديلًا أبيض مطرزًا بالورود البيضاء، وبينما أخذ برام يحدثها، لمست به زاوية فمها. آلمني الأمر أكثر من أي شيء آخر: كنت سأفقد آيفي. غلبتني العاطفة، فقاطعت ما كان يقوله برام، وقلت لآيفي: "نحن جميعًا هنا من أجلك كعائلة، وهذا يشمل برام، كلنا نريد لك الأفضل فحسب".

تجاهلتني آيفي، ووجهت حديثها إلى برام قائلة: "من الأفضل عدم الأخذ بالنصيحة. هذا ما أخبرتني به بطاقة السبعة البستوني اليوم".

في النهاية، قال برام إنه سيأتي للزيارة مرة أخرى في غضون أسبوع. وإذا ظلَّت آيفي متأكدة من أنها لا تريد إجراء منظار القولون، فهناك

خيار آخر، "إن اختبار وجبة الباريوم إجراء غير مؤلم وغير جراحي، كل ما عليك فعله هو ابتلاع سائل مثل مخفوق الحليب المنكَّه، ويُفحص بعد ذلك بالأشعة السينية. لن يخبرنا بقدر ما يخبرنا به منظار القولون، ولكن...".

قالت آيفي: "الشيء الوحيد الذي أريد معرفته هو كم تبقى لي من الوقت". أخبرتنا أن زوج شريكتها في لعب البريدج شُخِّص بسرطان الأمعاء عندما كان في السبعين من عمره: "كان ذلك قبل تسعة أعوام، وما زال على قيد الحياة. إن ثوي في الثامنة والستين من العمر فقط، وهي تريد الطلاق، لكن الأولاد ينزعجون عندما تذكر ذلك".

قال برام إنه لا يستطيع أن يقدم لها أي تكهنات من دون اختبارات تشخيصية: "يتضمن الأمر الكثير من العوامل، إذا كان لديك ورم، فنحن في حاجة إلى تحديد حجمه وموقعه ومدى انتشاره. كيف يمكنني تحديد جواب إذا كنت ترفضين مساعدتي؟".

بدت في نبرته لمحة من نفاد الصبر، ولمست آيفي شفتيها بمنديلها مرة أخرى، فتدارك برام نفسه في الحال، وقال وهو يبتسم بلطفٍ: "سأظل عالقًا معك لسنوات، على الأرجح".

عندما نهض للرحيل، قال لآيفي: "أيًّا كان قرارك، تذكَّري أنني سأعتني بك، وسأحرص دومًا على التأكد أنك تشعرين بالراحة، فنحن ماهرون للغاية في هذه الأيام في أشياء مثل إدارة الألم".

مدَّت إليه آيفي يدها حتى يتمكن من تقبيلها، وقالت: "لم أخَف قط من الألم".

***

كما هو متوقع، رفضت آيفي إجراء المزيد من الفحوصات للتحقق من أعراضها. ومنذ ذلك اليوم، بات برام يقصر زياراته على الأشياء الروتينية مثل حقن الإنفلونزا وفحوصات ضغط الدم. أذكِّر نفسي باستمرارٍ أن آيفي مسؤولة عن الوضع الذي تجد نفسها فيه الآن، ولا أحد غيرها يتحمَّل اللوم، فعنادها وحده هو ما جعل من المستحيل على برام استبعاد السرطان.

لماذا إذن أجد نفسي أفكر في أمرٍ سخيفٍ حدث بعد وقت قصير من قدومنا إلى أستراليا؟ أرسل إليَّ صديقٌ قديمٌ من المدرسة رسالة بريد إلكتروني، واتضح أنه هو أيضًا وفد حديثًا، ورتَّبنا للقاء وتناول المشروبات بعد العمل. كان أحد هؤلاء الأشخاص الذين يبدون دائمًا متعرقين بعض الشيء، وملأت وجهه ندبات حب الشباب. لكن أسلوبه في الحديث كان ذكيًّا وبسيطًا وجذابًا، وقضينا ساعة ممتعة نتحدث عن الأيام الخوالي، والوقت الحالي. وقبل أن نفترق، ابتسم ابتسامة عريضة ومد يده قائلًا: "تا تا!"، حيث كانت تلك هي الطريقة التي اعتدنا أن نودع بها بعضنا عندما كنا في المدرسة، شعارنا الذي يميزنا عن باقي الأولاد. صافحت يده قائلًا: "أراك لاحقًا"، فانمحت الابتسامة عن وجهه.

لماذا لم أستخدم تعبيرنا الحميمي القديم؟ لأنني لم أسمع أحدًا قط في وطننا الأم يقول "أراك لاحقًا"، وأردت إظهار تمكُّني من أسلوب الحياة في أستراليا. حسنًا، ربما انطوى الأمر على التفاخر بعض الشيء، لكنني بالتأكيد لم أقصد صدَّه. صحيح أنني لم أسمع منه مرة أخرى، ولم أحاول الاتصال به، لكن هذا لا يعني شيئًا، لأن سُبلنا تفرقت بالفعل بعد المدرسة. مع ذلك، ما إن قلت "أراك لاحقًا"، حتى شعرت بحرارة في عينيَّ. تولَّد لديَّ انطباع أنني ألحقت الضرر بشيء رقيق لا يُقدَّر بثمن. تضاءل هذا الشعور بمرور الوقت، لكنه لم يختفِ تمامًا.

لا يمكن أن تكون هناك صلة بين ما حدث في ذلك اليوم وما سيحدث غدًا، لكني أشعر رغم ذلك بوجود علاقة بينهما.

***

ذات مرة، كنتُ على وشك مغادرة غرفة الاجتماعات، في نفس لحظة دخول ليريك. ارتدوا قميصًا ضيقًا يُظهر ذراعيهما القويتين، وفتحتُ الباب وتراجعتُ إلى الخلف، فقالوا: "لديَّ القدرة على فتح الباب، يا لايل".

أجبت قائلًا: "كنت أحاول المساعدة فحسب"، لكن ما خرج من فمي كان: "كنت أحاول المعاندة فحسب". من الصعب تحديد أينا كان أكثر دهشة، أنا أم ليريك، وتلفَّت حولي آملًا الإيحاء بأن شخص آخر قد تحدث، فسألني ليريك: "هل أنت بخيرٍ؟".

لا، لم أكن بخيرٍ، لكن لم يكن في وسعي إخبارهم عن ذلك الغموض الذي يكتنف بشرة شانيل. قالت إن الأمر لا يسبب لها أي إزعاج، لكنه أخذ ينتشر، وظهرت البقع في منطقة أبعد، أسفل ساقها، كما بدأت بعض البقع الصغيرة على بطنها تنتشر وتتقارب من بعضها. هناك مرض من أمراض المناعة الذاتية يُدعى البهاق، يتسبب في فقدان التصبغ، لكن نتائج اختبار شانيل لذلك المرض جاءت سلبية. كانت تستخدم كريم كورتيكوستيرويد بدا عديم الفائدة، لكن تشينج، طبيب الأمراض الجلدية الذي يتابع حالتها، شجعها على الاستمرار، وأخبر شانيل أن العلاج في مثل هذه الحالات طويل وصعب. أي حالات؟ اعترف تشينج أنه لم يرَ أي شيء مشابه من قبل، وشرع يتشاور مع زملائه من جميع أنحاء العالم، لكن حتى الآن، لم يفد أحدهم بشيء. نصح تشينج شانيل بارتداء قبعة والابتعاد عن أشعة الشمس. إنها تدفع له ما يفوق الخصم الذي يقدمه لنا التأمين الصحي بنسبة

ثلاثين في المائة، ولا تتلقى منه سوى ذلك: نصائح يمكنك قراءتها على أي ملصق عام حول سرطان الجلد. إذا لم يحدث تحسن، فهناك علاجات أخرى يمكن تجربتها: الحبوب، والتعرض للأشعة فوق البنفسجية، والليزر، لكن كل شيء له آثار جانبية. أكد تشينج لشانيل أنه لا يوجد دليل على كون المشكلة معدية، لكنه بات يقدم لها الاستشارات عبر برنامج زووم.

كإجراء احترازي، بدأت أنام -أو لا أنام- في غرفة سيدني. وجدت لحافه المنقوش برسوم سبايدرمان في خزانة ملابسه، مختفيًا أسفل بذلاته الرياضية، لا بد أنه أخفاه لإنقاذه من شانيل، التي كانت تتخلص من أي فوضى بلا هوادة. عندما فردت الغطاء، انتشر الماضي باللونين الأحمر والأزرق. رأيت عصر يوم حينما كان سيدني صغيرًا، وكنا نلعب بالكرة في الحديقة، حتى أخذت الغيوم تتجمع بعد فترة. علا صفير الريح، وبدأت ترج بعض الشجيرات المتقزمة. جذب سيدني يدي، قائلًا إنه يتعين علينا الرحيل في الحال. في طريق العودة إلى المنزل، أخبرني قصة سمعها في المدرسة: خرجت امرأة للتنزه في الغابة منذ زمنٍ طويلٍ، ووجدت نفسها عالقة وسط عاصفة. وعندما اقتربت من شجرة ضخمة، شقَّ البرق الشجرة، وكان داخلها رجل يحمل رمحًا، إلا أن الرجل كان مؤلفًا من عظام. ارتفع صوت سيدني وهو يكرر: "كان هناك رجلٌ مؤلفٌ من العظام داخل الشجرة"، وبدا عليه الشعور بالخوف والإثارة بنفس القدر. من يروي مثل هذه الحكاية لطفلٍ؟ لا أستطيع التوقف عن التفكير في الأمر الآن، وفي الطريقة التي يمكن أن تعاود بها الأشياء القديمة المنسية الظهور فجأة. كان سيدني محقًّا في شعوره بالخوف، فالأمر مخيف بالفعل، يجب أن يبقى الماضي في الماضي.

لا يمكن التخلص من فوضى الذكريات. ها هي ذكرى أخرى، تعود إلى مساء يومٍ منذ وقت طويلٍ للغاية، حينما كنَّا جميعًا نشاهد

برنامجًا حواريًّا. سأل أحد الضيوف ما الذي سيتذكره الآخرون في الدقائق الأخيرة من حياتهم، وجاء فاصل إعلاني، فقالت شانيل: "هذا سؤال جيد حقًّا! أنا في حاجة إلى التفكير في الأمر". وقلت أنا: "ماذا عنك يا آيفي؟ ما الذي تعتقدين أنه سوف يتبادر إلى ذهنك؟".

كانت آيفي منشغلة بحبك الصوف، وقالت: "اللحظة التي احتضنتك فيها لأول مرة"، وبدت نبرتها كما لو أنها تقرر أمرًا واقعًا. وصلت إلى نهاية صفٍّ بلون أخضر مشعٍّ، وبدأت في عد الغرز. لا يوجد سببٌ يدفعني إلى تذكُّر هذا، إذ إنه مجرد مثالٍ على خداع آيفي لذاتها.

نحيتُ تلك الذكرى جانبًا، بجوار شيء آخر تذكرته. عندما كنت في الخامسة من عمري تقريبًا، كان هناك حفل لعيد ميلاد زوج والدتي، وارتدت آيفي سروالًا فضيًّا فضفاضًا ناعمًا، ومسحت العطر على عنقها ومعصميها، وظلَّت تصفر طوال الوقت. كنت أسمعها تصفر كثيرًا في تلك الأيام، ويمكنني القول إنني أحببتها، لكن هل سيكون ذلك صحيحًا؟ لم تكن الكلمة نفسها تعني شيئًا حينها، كان "الحب" بالنسبة إليَّ شيئًا مثل العطر، ومثل اللحن.

بدأ الحفل، وتجولتُ بين الضيوف، وتناولت الطعام من فوق الصواني، وكان هناك بيانو في إحدى الغرف، أحببت العزف عليه من خلال الضرب بقبضتي فوق المفاتيح. شغلت عمة عجوز من عمات آيفي البيانو، فتوجهتُ إلى غرفة نوم -غرفة من؟- وزحفت تحت الفراش، وعبثت بالجلد المحيط بأظافري. سرعان ما سيفتقدونني، ويا للضجة التي ستثور! ستصاب آيفي بالذعر، وستركض في أرجاء المنزل وفي الحديقة، منادية باسمي، وسروالها يلمع بين الأشجار.

عندما استيقظت، بدا المنزل هادئًا، وسرت عبر ممرٍّ، فوجدت زوج والدتي مع مجموعة صغيرة، وكراسيهم متقاربة وقد استغرقوا في تلك

الهواية الكئيبة للبالغين التي لا نهاية لها، وهي تبادل الحديث. مررت من دون أن يلحظني أحد وتوجهت إلى الشرفة، وهناك في الطرف البعيد، كان السروال الفضي. اتكأت آيفي على الدرابزين مع صديقة لها، امرأة شكَّل شعرها حبلًا ذهبيًّا التفَّ حول رأسها، وعند مرأى الفضة والذهب، قلت لنفسي: النجوم والشمس. نادتني آيفي قائلة: "هل ظللتَ مستيقظًا حتى هذا الوقت المتأخر، أيها الأمير الصغير؟"، لكنها واصلت الحديث مع صديقتها. عندما يختبئ الأطفال، فهذا يعني أنهم يطلبون العثور عليهم، من عساه لا يفهم ذلك؟ عندما كانت آيفي طفلة، هل لعبت لعبة تسمى الغميضة والتجاهل؟

لا تظنوا أنني ضيعت أي وقت في الإشفاق على ذلك الصبي، فقد تركته هناك، ملتفًّا في الظلام وسط الغبار، ولا علاقة له بالشخص الذي أصبحتُ عليه الآن، كل ما في الأمر هو أن الماضي يجثم منتظرًا، ثم يثب من مخبئه وسط الحشائش الطويلة.

في بعض الليالي، أستيقظُ شاعرًا بالاضطراب بدرجة أعجز معها عن النوم، وحيث إن الشاشات تؤدي إلى تفاقم الأرق، لذا ففي المرة الأولى التي أصابني فيها ذلك، التقطت كتابًا من أرفف سيدني، وانفتح الكتاب على صفحة مخططة بقلم تمييز أصفر: "بحبي وآمالي أستحضرك، فلا تضيع البطل الكامن في روحك". هذا النوع من الكتب هو ما منعني من أن أصبح قارئًا. لدى شانيل مجموعة من الكتب الصوتية الجذابة، وأكثرهم تفضيلًا لديها على الإطلاق هو "أهم 127 نصيحة سرية للغاية لا بد من معرفتها لتنمية سلوكك غير الأخلاقي، ثبت فاعليتها، وقوتها التنفيذية، وانتصارها!"، لذا شرعت أستمع إلى تلك الكتب بدلًا من ذلك.

***

بعد انتهاء ميل من دراستها في مجال الفنون، عملتْ بدوامٍ جزئي كما هو معتاد في عدة أماكن: في حانة، وفي متجر، وفي وكالة لخدمات المرافقة. وقد شعرنا بالقلق بشأن هذا العمل الأخير، لكن ميل أوضحت أنها وكالة راقية وتقدمية لا تسمح بالتلامس. مرَّ الوقت، إلى أن اتصلت ذات يوم لتخبرنا أنها تقدمت بطلب للالتحاق بكلية في شيكاجو، وتم قبولها لدراسة الهندسة المعمارية. قالت: "لطالما كانت دراسة الهندسة المعمارية في شيكاجو على قائمة طموحاتي".

تسابقت في ذهني الأفكار حول الرسوم الدراسية، وأسعار الصرف، وتذاكر الطيران، وسألتها: "لماذا لا يمكنك دراسة الهندسة المعمارية هنا؟".

"أبي! أنت تعرف كيف تسير الأمور، سأجد عملًا أفضل في أستراليا إذا حصلت على شهادة جامعية أمريكية. يا له من أسلوب ذكوري حقًّا وأنت تحاول تدمير مسيرتي المهنية من قبل أن تبدأ حتى".

كما قالت شانيل لاحقًا، بدا هذا تكرارًا أكثر حدة لذلك الموقف حينما أرادت ميل ثلاثة فساتين جديدة مميزة: واحدًا لحفل مدرسة فورتوناتاس الرسمي للصف العاشر، وواحدًا لحفل عيد الميلاد بنادي التنس، وواحدًا لهاواي، حيث كنَّا سنلتقي بعائلة شانيل لقضاء العطلة. واشترطت ميل ألَّا تصنع آيفي أيًّا من الفساتين، حيث سيكون ذلك "أكثر من مأساوي".

سألتها شانيل: "ألا يمكنك ارتداء نفس الفستان؟ سيكون هناك أشخاص مختلفون في تلك الأماكن الثلاثة".

انفجرت ميل في البكاء. "يا إلهي، لا أستطيع أن أصدق ذلك!". لهثت لالتقاط أنفاسها وسط نحيبها، "ها هي والدتي تتلاعب بعقلي، رباه!".

"لا أفهم، يا عزيزتي، ما الخطب؟".

"هل يجب عليَّ توضيح كل شيء؟ أي أحمق هذا الذي لم يسمع بعد عن انستاجرام؟ هل تريدين أن يراني العالم بأكمله وأنا مجبرة على الذهاب إلى كل مكان مرتدية نفس الفستان، مثل ريفي فاشل؟".

دائمًا ما تكون صورة ميل التي تتبادر إلى ذهني أولًا هي تلك التي تضع في شعرها زهرة جازانيا صفراء، وتبتسم بينما تحيط عنزة بذراعها. لا بد أن هناك سلَّمًا ممتدًّا بين صورة ميل تلك، وهذه التي يمكن رؤيتها الآن على يوتيوب، مرتدية بذلة من اللاتكس، لكن بعض درجات السلم مفقودة. تخبر ميل مشاهديها أنها تبنَّت الموضة المستدامة، وتوضح أن مادة اللاتكس نباتية وصديقة للبيئة وأخلاقية. عندما رأت آيفي البذلة، أشادت بميل لاعتزازها بجسدها، وقالت: "كنت سأستغل تلك الحرية إلى أقصى حدٍّ، لو تمتعت بها وأنا فتاة!".

بينما كنَّا مترددين بشأن شيكاجو، أخبرتنا ميل أن العمل في مجال الضيافة وتجارة التجزئة لم تعد "خيارات وظيفية صالحة" بالنسبة إليها، الأمر الذي لم يترك سوى وكالة المرافقة. وقد أُغلق الفرع الراقي التقدمي بسبب عدم رضا العملاء، لذلك ستعمل ميل في الفرع القديم الذي يقدم عروضًا خاصة، حيث كان كل شيء مسموحًا به. في اليوم التالي، وافقنا على تمويل دراستها في الولايات المتحدة. كما أوضحتْ، كان في إمكانها اختيار مدرسة في نيويورك أو كاليفورنيا، لكنها اختارت شيكاجو حتى تتمكَّن من العيش مع خالتها وتجنبنا تكلفة السكن. عند التفكير في الأمر من جوانبه كافة، يتضح أن ميل كبرت لتصير شابة عميقة التفكير، كما يُظهر قرارها بارتداء اللاتكس، وأنا وشانيل فخوران جدًّا بالطريقة التي تُظهر بها ابنتنا الاهتمام بالآخرين، من دون التخلي عن التركيز على أهدافها.

في عيد الميلاد، عرضنا على ميل تذكرة للعودة إلى المنزل لقضاء العطلة. قالت: "ماذا سأخبر أصدقائي؟ لقد أنشأت حسابات جديدة

على منصات التواصل الاجتماعي عندما وصلت إلى هنا، أتذكر ذلك؟ ومعظم الناس لا يعرفون حتى إنني من ملبورن، فقد تركتهم يعتقدون نوعًا ما أنني نشأت في نيوزيلندا، أو شيئًا من هذا القبيل. إنه لمن المخزي للغاية أن تكون أستراليًا، إذ يفترض الجميع فحسب أنك عنصري معادٍ للإسلام ومخرِّب للبيئة ومتعجرف فيما يتعلق باختيارك للقهوة. أضطر إلى شرب جالونات من قهوة الفلتر يوميًا هنا، ولا أتفوه بكلمة كي لا ينفضح أمري".

"ألا يمكنك إخبار أصدقائك أنك ستقضين عيد الميلاد في نيوزيلندا؟".

"أبي! نحن لا نكذب على بعضنا في دائرة أصدقائي، كما أن هناك أيضًا مشكلة انستاجرام".

أثَّرت تلك المحادثة على ثقة شانيل في... ماذا يجب أن أسمي الأمر؟ ثقتها في التقدم؟ ثقتها في قائمة طموحاتها؟ كانت تصاب أحيانًا بتعكر المزاج وشرود الذهن، وقد ظهر ذلك لأول مرة بعد شهر تقريبًا من مكالمة ميل. في وقتٍ مبكرٍ ذات يوم أحد، أخذتُ كوبًا من الشاي لشانيل، متوقعًا أن أجدها تستعد لتمارين الملاكمة، لكنها كانت لا تزال في الفراش. أخذ المطر يطرق السطح، وهذا في أعقاب الطقس المتطرف الذي سوَّى بريسبان بالأرض. وجَّهت شانيل حديثها نحو السقف، قائلة: "هل تعتقد أننا ارتكبنا خطأ؟ هل تعتقد أنه كان يجب علينا الهجرة إلى الولايات المتحدة بدلًا من ذلك؟".

لا يمكنني المبالغة في وصف ثقل وقع السؤال، فمجرد التلميح إلى أننا قد نكون أخطأنا في حكمنا، يدمي الروح، كل ما تخلينا عنه، وكل الصراعات التي واجهناها، والجهد الهائل الذي يتجدد كل يوم، لنصبح أستراليين عاديين: إذا كان علينا أن نكون أمريكيين عاديين بدلًا من ذلك، فقد ضيَّعنا حياتنا هدرًا. انشقَّت الأرض عند قدمي، وتدفَّق نهر أسود هادر، فأمسكت بيد شانيل. ولم يمثِّل تقييم ولدينا لأستراليا أي

عون، إذ أطلقت عليها ميل "أرض الفشلة"، بينما وصفها سيدني بكونها "منبوذة على الساحة العالمية". أضف إلى ذلك حالة الاقتصاد المترنح بينما تفرض دولة تلو الأخرى العقوبات الاقتصادية بسبب غياب أي سياسات للحكومة الأسترالية للتعامل مع التغير المناخي، حتى دار حديث مجنون مفاده أن روسيا أيضًا ستحذو حذوهم.

قلت بحزمٍ: "لقد كنَّا محقِّين تمامًا في المجيء إلى هنا، انظري إلى كل ما حققناه: مستقبلًا متميزًا لولدينا، ومعاشًا تقاعديًّا جيدًا، والكثير من النقاط في برنامج المسافرين الدائمين، ومرآبًا فسيحًا للغاية...".

واصلت الحديث، لكنني رأيت أن شانيل لا تنصت إليَّ. قالت: "أتعلم، عندما كنت فتاة، حلمت بالعيش في الولايات المتحدة، ثم خُطِبت شقيقتي لأمريكي، فلم أشأ أن أبدو كما لو أنني أقلدها. حينها أخطأت بالتركيز على أستراليا بدلًا من ذلك". كان من الفظيع رؤية شانيل -شانيل!- وهي تشعر بالاكتئاب بسبب الشك. لحسن الحظ، أتاني الإلهام، وقلت وأنا أعتصر يدها بقوة أشد: "أتعرفين ما الذي يحدث؟ هذا الشعور بأن الولايات المتحدة كانت ستصبح خيارًا أفضل يُظهِر إلى أي مدى اندمجتِ في المجتمع هنا، إذ إن الرغبة في أن تكوني أمريكية هي رغبة أسترالية أصيلة. أتدرين ما علمته مؤخرًا؟ لم تكن هذه البلد تحتفل بالهالوين على الدوام، يصعب تصديق هذا، أليس كذلك؟ والآن، بعد أن أصبحت الجمعة السوداء واثنين الإنترنت من ثوابت عالم البيع بالتجزئة، فقد بات الأمر مسألة وقت فحسب حتى يظهر عيد الشكر في التقويم لدينا، وعن نفسي، آمل أن نتقدم بالشكر بعد أن نصبح الولاية الحادية والخمسين".

بعد فترة، اعتدلت شانيل جالسة في الفراش، وارتسمت على شفتيها ابتسامة. أخبرتها بأنه إذا بدا أن الولدين يرفضان اختياراتنا في الوقت الحالي، فلن يظل هذا هو الحال دائمًا. لكن في الوقت

الحالي، تدفعهما رغبة صحية لا ضرر منها لشق طريقهما الخاص في هذا العالم، تمامًا كما فعلنا عندما قررنا الهجرة بغض النظر عما قاله آباؤنا. مع كل كلمة، هدأ النهر الأسود وغار في الأرض، حتى صار مجرد قطرات باردة عند قدمي.

منذ تلك المحادثة، حاولنا ألَّا نفكر في الولايات المتحدة، لكن الأمر شاق مع وجود ميل هناك. في الوقت الحالي، تعمل متدربة في مكتب للهندسة المعمارية، والمرشد الذي يتولى تدريبها اسمه دين. بعد وقتٍ قصيرٍ من لقائهما، أمضيا عطلة نهاية الأسبوع معًا في نيويورك، ورسمت ميل قلوبًا فضية حول دين في قصتها على انستاجرام. كما كانت عيناه فضيتين أيضًا، ولحيته مخططة باللون الفضي. كان يرتدي سترات من الصوف المحبوك، هل يمكن حقًّا أن تكون مواكبة للموضة للرجال؟ لدينا أنا وشانيل بعض الأسئلة العابرة التي نود طرحها على دين، بداية بـ: كم تمتلك من المال؟ هل تحبذ الملاط الملون؟ نعم أم لا؟ وهل تعاني أي هلاوس وراثية؟

نتخيل قصصًا مستقبلية تتكشف على حساب ميل على انستاجرام: نرى ميل مع دين حاملين كؤوس شمبانيا، ووراءهما بحيرة متجمدة في الخلفية، والزمرد يلتمع في يد ميل. وفي وقتٍ لاحقٍ، أطفالًا أمريكيين يلعبون بالمسدسات في فضاءات أنيقة معماريًّا، تقع على ارتفاع عال فوق سطح الأرض. ثم يحل محلهم مراهقون بأعين كالزئبق، يسألون: "من أنتم؟"، عندما نتصل. لا نناقش أنا وشانيل مخاوفنا، لكنها تتبعنا كأثرٍ من البخار، وعندما أستيقظ ليلًا، أجدها تحوم فوقي، مخيفة وصادقة، تقول لي: "لقد اتخذت كل القرارات الخاطئة، وخسرت ابنتك، وخسرت ابنك".

***

عندما قلت إن سيدني أمامه عام واحد لإكمال الدكتوراه، كان ذلك صحيحًا تمامًا، لكن من الصحيح أيضًا أن سيدني ظلَّ أمامه عام واحد منذ أكثر من... حسنًا، منذ أكثر من عام بكل تأكيدٍ. كانت آخر مرة رأيناه فيها عندما عاد إلى المنزل لبضعة أيام، وأحضر لنا جميعًا الهدايا. تلقَّت آيفي منشورًا من الكريستال، وعلَّقه سيدني على نافذتها قائلًا: "سينشر أقواس قزح في جميع أرجاء غرفتك". بينما تلقينا أنا وشانيل علبة من التيمبي، صُنعت في خليج بايرون، وتفوق جودتها جميع أنواع التيمبي الأخرى، إلى جانب وعاء من الكيمتشي المصنوع منزليًّا، وقد أكل سيدني كليهما خلال زيارته.

في آخر مساء له في ملبورن، انتظر سيدني حتى خلدت آيفي إلى الفراش، ثم أخبرني أنا وشانيل أنه أخذ إجازة من الدكتوراه. بين الحين والآخر، تطل آيفي من ملامح سيدني، إذ إن لهما نفس الابتسامة الماكرة. لكن كلمة "ماكرة" ليست هي الوصف الصحيح، بل قصدت أن أقول خجولة. استقر مرفقا سيدني على المنضدة، وأكمام سترته مرفوعة إلى الأعلى، فظهر وشم جديد على ساعده: "ربما كان المستقبل مجرد حلم، وربما كان الحلم وجبًا". بدا تصرفًا نموذجيًّا من سيدني، أن يلجأ إلى فنان وشم لا يجيد الهجاء، لكن ربما لم يلحظ الأمر. علقت ميل ذات مرة على صورة لسيدني على انستاجرام: "أخي، مدخن الماريجوانا". نذكِّر أنا وشانيل بعضنا أن هذا صار قانونيًّا الآن، ويمكن أن يكون الأمر أسوأ بكثيرٍ.

لم تظهر شانيل الانزعاج، وسألت سيدني فقط عما يخطط للقيام به بدلًا من الدكتوراه، فأجاب أن شركة تنظم جولات بيئية إلى ضريح بقايا الحاجز المرجاني العظيم عرضت عليه "ساعات عمل منتظمة" كمرشد للغوص.

سألته: "هل يدفع ذلك العمل راتبًا يمكنك العيش منه؟".

استطعت رؤية سيدني وهو يفكر: "سؤال تقليدي متوقع من أبي!". ظهرت تلك الابتسامة ثانية، وقال: "أنا لا أحتاج إلى الكثير".

لا جدال في ذلك، إذ كان سيدني يعيش في كارافان خلف منزل مشترك متداعٍ مبني من الألواح الخشبية، حيث يوجد المرحاض الوحيد في الفناء. ذهبنا شمالًا لزيارته ذات مرة، وقدم لنا سيدني شاي التفاح التركي في مرطبانات. علّق بذلة غوصه على خطاف في زاوية الكارافان، بجوار معطفه الأسود الدافئ الذي جلبه من ملبورن، فاقترحت شانيل أن يخزن المعطف بعيدًا لتجنب العث، لكن سيدني أخبرها: "يجب أن يظل هنا، فقد استوطن خفاش داخل أحد الجيوب". وعندما تساءلنا عن مدى نظافة هذه الترتيبات، قال: "إنه مجرد خفاش صغير". تشارك ابننا السكن في كارافان مع خفاش صغير اسمه دينج. لم تكن هناك تجهيزات للطهو داخل الكارافان، لكن على أي حال كان سيدني يعيش على التيمبي وجوز الهند والمانجو المسروقين على الأرجح من أشجار الآخرين. أما الملابس، فكان يمتلك سروالًا قصيرًا، وبنطلون جينز واحدًا، وبضعة قمصان قطنية. وعندما يأتي لزيارتنا، يرتدي بذلاته الرياضية القديمة، وكنزة بها ثقوب عند المرفقين، حبكتها آيفي من الصوف منذ فترة طويلة للغاية، بلون أزرق زاهٍ وأكمام حمراء. أرسلنا إلى سيدني ملابس لائقة في عيد ميلاده: قمصانًا وأحذية رياضية من ماركات معروفة، لكنه باعها في الغالب لشراء الماريجوانا، لذا أرسلنا إليه المال في العام الماضي، كي نوفِّر عليه الوقت.

سألته شانيل بحذرٍ: "هل يمكن أن تضع من ضمن خياراتك العمل على رسالة الدكتوراه بدوام جزئي؟ كما أن الحصول على شهادة عليا سيساعدك في الحصول على عمل أضمن وله راتب أفضل".

قال لها سيدني: "في الوقت الحالي، أريد وضع مسافة بيني وبين النظام". يتحدث سيدني بطريقة مدروسة، مع وقفات وسط الحديث،

وهو أسلوب يحوّل الكلام العادي ويجعله يبدو كما لو أنه حقائق كونية.

تابعت شانيل قائلة: "ألن ينتهي بك الأمر ولديك الكثير من الوقت الفائض؟".

"أنوي زيادة مشاركتي مع "دايف كلين"".

كان "دايف كلين" مشروعًا تطوعيًّا نظّمته جامعة سيدني، حيث يساعد المشاركون بجمع المخلفات من قاع المحيط، ويُسجَّل كل شيء يستخرجه الغواصون، ثم تخضع حالة الموقع الذي جاءت منه المخلفات للمتابعة عبر الزمن. وعقب تطوع سيدني، حلّت سلسلة جديدة من الصور محل القديمة. وصلت هذه الصور مرتين أسبوعيًّا، وأظهرت لنا ما استخرجه: خيوط الصيد، والزجاجات، وعلب المشروبات، وعبوات التغليف، وشظايا صناعية مجهولة الهوية ... صوَّرها سيدني مصفوفة على طاولة خشبية، بحيث كان من الممكن أن تبدو تركيبًا فنيًّا. ونظرًا إلى أنه لم يظهر ما عثر عليه وهو متناثر وسط المحيط، لم تكن الصور مخالفة للقانون. لكن ذات مرة، في الأيام الأولى، أرسل إلينا سيدني صورة لحقيبة بلاستيكية تطفو تحت الماء مثل سمكة بيضاء مخيفة، وقالت رسالته إن المحيط سيحتوي قريبًا على بلاستيك أكثر من الأسماك. حذفنا الصورة والرسالة على الفور، واشترينا هواتف جديدة لنا جميعًا.

أخذ سيدني يلمس وجهه وهو يتحدث إلينا، وهو شيء يفعله كثيرًا. أعتقد أن لحيته تسبب له حكة في جلده. قال: "ما جئت لأقوله حقًّا في هذه الزيارة هو أنني أنوي العيش لبعض الوقت بعيدًا عن تغطية شبكات الكهرباء". أخبرنا أنه سيغادر الكارافان الذي يقيم به عند عودته إلى الشمال، بعد قبوله في مجتمع أخضر ملتزم بالممارسات الأخلاقية الواعية والحياة المستدامة. "في أكواخ مصنوعة يدويًّا من

مـوادٍ معـاد تدويرهـا، وتعمـل بالطاقـة المتجـددة فقـط، وهنـاك أيضًـا مبنـى للأنشـطة الجماعيـة مبنـي يدويًـا".

جعلتنـي كلمـة "أخـضر" أتنبَّـه عـلى الفـور، وقـال سـيدني إن تلـك الجماعـة اسـمها "هـز العشـب"، "لأن المجتمـع لا يعلمنـا سـوى الامتثـال، ومراكمـة الممتلـكات، "وتمـضي الأيـام مثـل فـأر حقـل، لا يهـز العشـب"".

بـدا ذلـك الجـزء الأخـير مألوفًـا، فسـألته: "هـل هـذا اقتبـاس مـن تقويـم مكتبـي؟".

تحدثـت شـانيل بتلـك النـبرة الدافئـة الداعمـة التـي يجـب أن يسـتخدمها الآبـاء عندمـا ينزعجـون بشـدة، وقالـت: "سـنتطلع إلى رؤيـة صـور منزلـك الجديـد".

"الأمـر هـو أننـا لا نحبـذ التكنولوجيـا المجـردة في "هـز العشـب"، لـذا سـأتخلى عـن هاتفـي".

"لكن كيف سنتصل بك؟".

"سيكون من الأفضل -والأكثر أمانًا- ألا تفعلا لبعض الوقت".

حكَّ سيدني مؤخرة عنقه.

قالـت شـانيل بهـدوءٍ شـديدٍ: "لا، ليـس اللـواء الأخـضر، لا يمكنـك أن تفعـل ذلـك بنـا".

صحـت قائـلًا: "إذا لم تفكـر فينـا، فكـر في شـقيقتك، وفكـر في جدتـك! فكـر في العـودة القسريـة إلى الوطـن في سـن آيفـي!".

رفـع سـيدني كلتـا يديـه قائـلًا: "مهـلًا! مـن ذكـر أي شيء بخصـوص اللـواء الأخـضر؟ لا تهتـم جماعـة "هـز العشـب" إلا بالتفاعـلات السـلمية المحبـة مـع كل الكائنـات الحيـة والكوكـب".

"لماذا يتعيَّن علينا إذن قطع الاتصال من أجل سلامتنا؟".

"تعرضت إحدى الجماعات للإغلاق في العام الماضي في نيو ساوث ويلز، وجرت بعض الاعتقالات".

اشتهرت تلك الجماعة بمعارضتها للتكسير الهيدروليكي، وتعرضت للإغلاق بعد أن اختطف اللواء الأخضر وزير البترول، وحينما كانت أشياء كثيرة تتعرض للحظر بين يومٍ وآخر. تذكرت موجة الأسماء التي وصلت إلى القسم من جميع أنحاء البلاد.

سألته: "هل يوزع أي شخص في جماعتك منشورات للمزارعين حول المحاصيل المستدامة أو زراعة الأشجار أو حقوق الحيوان؟ وهل يتحدث أحد ضد النازيين الفخوريين؟ وهل يدافع أي شخص عن حقوق السكان الأصليين أو ملاجئ النساء أو الدخل الأساسي الشامل؟". تابعت على هذا المنوال، وعددتُ قائمة بالأنشطة التي تجذب المراقبة ويمكن حظرها في أي وقت.

هزَّ سيدني رأسه، "لا، لا، لا". قال إن "دايف كلين" هي المشكلة، "كثير من المتطوعين هناك من جماعة هز العشب".

لا تُعتبَر عمليات تنظيف المحيطات غير قانونية، لكن يمكن تفسير أي نوع من النشاط البيئي على أنه انتقاد لغياب سياساتنا تجاه المناخ. لطالما شعرنا أنا وشانيل بعدم الارتياح تجاه "دايف كلين"، ولم ننسَ تلك الحقيبة البلاستيكية. ولكن كما ذكَّرنا سيدني، فإن الأستاذ الذي يدير المجموعة يتكتم على نشاطاتها ولا يجذب إليها الأنظار، ولا يوجد موقع على الإنترنت لجماعة "دايف كلين"، ولا يمكن للجمهور الوصول إلى أي معلومات حول المشروع. قال سيدني: "أنا أبالغ في الحذر فقط، وأفكر فيكم يا رفاق".

قالت شانيل، بينما أصدرتُ أنا صوتًا أشبه بالغرغرة: "حسنًا، عليك أن تعدنا ببعض الأشياء. إذا ثارت أي مشكلة بخصوص عمليات التنظيف، سيسمع والدك بالأمر في الوقت المناسب لتحذيرك.

سيتوجهون إلى الجامعة أولًا، لذا عليك مغادرة الجماعة في الحال. اذهب مباشرة إلى أقرب مركز شرطة، وأدْلِ ببيانٍ مفاده أنك كنت طالبًا ساذجًا ضلَّله مشرفه، مشرفك السابق، وضِّح أنك ابتعدت عن الجامعة، ووضِّح أنك قطعت علاقتك الآن بتلك الجماعة المدعوَّة هز العشب أيضًا".

تلا ذلك الكثير من الحديث عن "الخيانة"، و"الكارما"، و"العنف النفسي". أنصتنا إلى سيدني، ولكن ظللنا حازمين بشأن الحاجة إلى رقم للاتصال. قالت شانيل لسيدني: "لا يتعلَّق الأمر بالسياسة فقط، بل يجب أن نتمكَّن من الاتصال إذا تعرض أحدنا لحادثٍ، كما يجب التفكير في آيفي أيضًا، لقد رأيت كم تبدو ضعيفة".

اصطحب سيدني آيفي يومها إلى قاعة الطعام في مركز التسوق، وتناولا سوشي التوفو والأفوكادو على الغداء. انطوى ذلك العمل على نكران الذات من جانب سيدني، لأن الطعام لم يكن عضويًّا، كما كان الأرز أبيض، وصلصة الصويا تحتوي على جلوتامات أحادية الصوديوم. لكن لم يكن هناك مكان على مسافة قريبة يمكن أن يفي بمعاييره الخاصة بالأكل الصحي والمستدام، كما رفض استعارة إحدى سياراتنا التي لا تعمل بالكهرباء. ارتدت آيفي فستانها الوردي لتلك النزهة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ترتديه فيها منذ فترة، فشكَّلت عظام ترقوتها شماعة تدلَّى فوقها الفستان، وحاولنا جميعًا عدم التحديق.

لا يعرف الولدان أن آيفي قد تكون مصابة بسرطان الأمعاء، ففي النهاية، لا يوجد دليل على ذلك، ولا تشكِّل بعض الأعراض الغامضة وتكهنات برام سببًا كافيًا يبرر إزعاج سيدني وميل. بدلًا من ذلك، تحدثنا عن صحة جدتهما من ناحية عملية الشيخوخة. قالت شانيل

لسيدني: "آيفي بخيرٍ في الوقت الحاضر، لكن الناس في سنِّها يمكن أن يتدهوروا سريعًا".

"لقد اعتادت شرب شاي عشبي رائع جلبته لها فانتا، يبدو مذهلًا. نوع من العلاج من الطبيعة، أليس كذلك؟".

في النهاية، رأى سيدني المنطق الكامن وراء طلبنا لرقم اتصال في حالات الطوارئ، قال: "يمكنكما إرسال رسالة إلى أستريد". حرصنا أنا وشانيل على عدم تبادل النظرات بعضنا مع بعض. في تلك المرة التي زرنا فيها كارافان سيدني، قادنا عبر المنزل في طريقنا إلى الخروج، وشممنا في أثناء مرورنا روائح البخور والتخمير، ووجدنا ثلاث أو أربع فتيات على الشرفة المتداعية. كانت أقدامهن عارية، وارتدين ثيابًا قطنية فضفاضة، أو بذلات عمل باهتة. بدون كفتياتٍ خرجن من إحدى الإعلانات الدعائية لنوعٍ من البيرة الحرفية. ظلَّت أذرعهن ملتصقة بصدورهن، ولوَّحن لنا باقتضابٍ بأصابع مفرودة كنجمة البحر، قائلات: "مرحبًا"، بينما أبعدن باليد الأخرى شعورهن المموجة عن وجوههن. ثم دخلت فتاة أخرى من البوابة، بدت مفتولة العضلات، بشعرٍ حليقٍ كالجندي، وعينين نهمتين يشعُّ منهما الذكاء. كانت بشرتها وعيناها وملابسها وما تبقى من شعرها كلها باللون البيج. قالت شانيل بينما نحن عائدان في طريقنا بالسيارة المستأجرة: "لا بد أن هذه صديقة سيدني".

دامت العلاقة بين سيدني وأستريد، حتى حضرت ورشة عمل بعنوان "العلاقات بين الكائنات"، فاتضح لها أن سيدني يتصرف بطريقة غير أخلاقية مع دينج. كانت تسمية كائنًا ما عملًا ينطوي على التملك والهيمنة، ويسلبه قوته. عرض سيدني التوقف عن استخدام ذلك الاسم، لكن المشاعر السلبية استمرت بينهما.

أو هكذا قيل لنا، لكن لم يفتنا ملاحظة أن الرقم الذي أعطانا سيدني إياه ليلتها كان رقم أستريد. ولا يعني هذا أنه كان سعيدًا لذلك، أو لأي سبب آخر، وكان آخر شيء قاله وهو يحك وجهه قبل الخلود إلى الفراش: "إن قانون العودة القسرية إلى الوطن الأم يسكت المهاجرين، ويُستخدَم للتمييز ضدنا".

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي قال فيها ذلك، وكان على حقٍّ. يتصف رئيس وزرائنا بالعبقرية الإستراتيجية، فبما أن خمسة وسبعين في المائة من السكان لديهم أجداد وُلِدوا في الخارج، فقد كان لسياسة العودة القسرية إلى الوطن تأثيرٌ فوري على المعارضة.

واجهتُ شكوى سيدني كما كنت أفعل دائمًا، وقلت: "تذكر ليليان". كانت ليليان ابنة عم آيفي، وقد انتهى بها الأمر بالعيش في فرنسا، حيث لفتت انتباه قاتل يستهدف المهاجرين، تعقَّب ليليان وقتلها. أريد من سيدني أن يفهم أن سياسة العودة القسرية إلى الوطن ليست هي ما يجعل الحياة خطرة لأشخاص مثلنا. "تذكر ليليان"، لا يفشل هذا أبدًا في إسكات سيدني... لفترة من الوقت.

***

قبل رحيل سيدني، منحنا أيضًا الإذن بالكتابة إليه على عنوان المنزل المشترك مرة واحدة في الشهر. أخبرنا أن أستريد متطوعة مع "دايف كلين"، وستوصل إليه بريده. قال سيدني بابتسامته تلك: "الرسائل شكل من أشكال التكنولوجيا العتيقة". مع ذلك، لم يكن مسموحًا لنا بالكتابة أكثر من هذا، لأن جماعة هز العشب تفضِّل الابتعاد عن العالم. "نتعامل مع كل شيء من منظور الصراحة والفضول، من دون إطلاق أحكام، لكن هذه الفترة الأولى لبناء المدينة الفاضلة محفوفة بالمخاطر، ويمكن أن تؤثر فيها هياكل التفكير القديمة المدمرة".

نؤكد أنا وشانيل لبعضنا أن حلم سيدني ببناء عالم جديد هو حلم أسترالي خالص. علاوة على ذلك، ينجذب الشباب إلى الألواح البيضاء والبدايات الجديدة، وإذا تطلَّب انفصال سيدني عن المجتمع انفصاله عنا، فنحن على ثقة بأن هذه المرحلة ستمرُّ. أخبرتني شانيل: "هناك موقعٌ متخصصٌ في علم الأعصاب، يقول إن المراهقة تستمر حتى سن الثامنة والعشرين لدى الذكور".

يبلغ سيدني من العمر ستة وعشرين عامًا. إن سنتين فترة طويلة للغاية للانتظار. كل صباح في العمل، أتحقق من الإشعارات اليومية للتنبيهات بمجرد وصولها، لكن لم يرد حتى الآن شيء حول عمليات تنظيف المحيطات أو المجتمعات البعيدة عن نطاق شبكات الكهرباء. أبحث في جوجل عن صور لتلك المجتمعات. هل يعيش سيدني في خيمة، بينما يبني كوخه بيده؟ وماذا حدث للخفاش الصغير المعروف سابقًا باسم دينج؟ تعذبنا أنا وشانيل كل الأسئلة التي لم نطرحها. حضرت أستريد وسيدني ذات مرة مهرجانًا بيئيًّا لمدة شهر، حيث ساعدا كل صباح في حفر خندق للمراحيض. ما هي ترتيبات المراحيض في جماعة هز العشب؟ أخبرنا سيدني أن هناك قاعدة تقتضي "عدم الإهدار". هل ينظف نفسه باستخدام أوراق الشجر؟ نتذكر كيف بدا عليه الشعور بالحكة، ونتساءل عن الطفح الجلدي. تستمد الجماعة اسمها من عادات الفئران، مما يوحي بأن القوارض تجتاح المكان. أخبرنا سيدني أيضًا أن وجبات الطعام تُقدم من أوانٍ كبيرة من الفولاذ المقاوم للصدأ، وأنهم يتناولون الطعام جالسين في دائرة على الأرض، ولا شيء من ذلك يبدو صحيًّا. هل يفرك الطهاة أيديهم لمدة عشرين ثانية قبل التعامل مع الطعام؟ كما أن الكحول ممنوع، فما موقف معقم اليدين إذن؟ وهل تسمح الجماعة بالصابون؟ قالت شانيل: "إنهم يصنعون ما يحتاجون إليه من الصابون بأنفسهم، على الأرجح"، حيث يمكننا قراءة أفكار بعضنا بعضًا، حينما يتعلق

الأمر بولدينا. "لكن هل ينتج رغوة؟". نجازف بإحياء هياكل التفكير القديمة المدمرة عند طرح هذه الأسئلة وغيرها على سيدني عندما نكتب إليه، مع علمنا أنه لن يرد.

***

أرفقنا شيكًا -شكلًا من أشكال التكنولوجيا العتيقة- مع رسالتنا الأولى، لكن لم يتم صرفه بعد. وفي هذه الأيام، نرسل إليه الطوابع، التي تأتي في كتيبات يضم كل منها عشرة طوابع، لكننا لاحظنا أن الطابع الموجود على المظروف الذي يصلنا من سيدني يتغير بعد تسعة أشهر. تسعة من حيوان الومبت، وتسع ممرضات تابعات للجيش الأسترالي، وها قد وصلنا الآن إلى الطوابع التي تصور مناسبات سعيدة. من يحصل على الطابع العاشر؟ هل يرسل سيدني رسالة حب إلى أستريد مرة كل عشرة أشهر؟ تقول شانيل إنه من المرجح أن تكون رسالة احتجاج إلى سياسي، ونأمل أن يكتب باسمٍ مستعارٍ. في كل شهر، نكتب أنا وشانيل رسالتين منفصلتين إلى سيدني، لكننا نطوي الصفحتين ونضعهما في نفس المظروف، لأنه لا يسمح لنا إلا بخطابٍ واحدٍ فقط. وفي الشهر الماضي، ألقيت نظرة خاطفة على صفحة شانيل، ورأيت: "... "عيد ميلاد سعيد" أغنيها لك مرتين!"، بينما أوضحت رسالتي أن الدافع الرئيسي إلى مجيئنا إلى أستراليا هو التأكد من أن أولادنا لن يضطروا أبدًا إلى العيش في أكواخ مرتجلة من دون مرافقٍ صحية مناسبة كما يفعل المعوزون في وطننا الأم.

ونظرًا إلى أن مدينة سيدني الفاضلة تحيطها القواعد والمحظورات، نتساءل عمَّا إذا كانت رسائلنا تخضع للرقابة. نتخيل فتاة تشبه أستريد، ذات مظهر كالجنود، ونقية ويغلب عليها اللون البيج، وهي تفتح المظاريف. لكن لا يهم الأمر، إذ إننا دائمًا ما نكتب باستخدام

الشفرة. وإذا كانت الفتاة خبيرة في الشفرة، فستجد نفس الرسالة كل شهر: "عندما تعود إلى المنزل، سيكون هناك خبز محمص مع زبدة الفول السوداني حتى الحواف".

***

في منتصف كل شهر تقريبًا، يصل إلى صندوق بريدنا مظروف من دون اسم مرسل أو عنوان، وهذا هو كل ما في الأمر، مجرد مظروف فارغ فحسب. يتمتع سيدني بخط يدٍ كبيرٍ ومرتعش كالأطفال، ويمثِّل المظروف أحد الوعود التي انتزعناها منه: فهو يخبرنا بهذه الوسيلة أنه آمن وبخيرٍ.

نتجمَّع ثلاثتنا، آيفي وشانيل وأنا، حول ذلك المظروف، كما لو أن في وسعه تقديم حكمة لا تقدَّر بثمن، ونقلبه ونرفعه نحو الضوء. كان عيد ميلاد آيفي الشهر الماضي، واحتوى المظروف بداخله على ريشة خضراء ناعمة صغيرة.

لنقل إن الوقت في بداية الشهر، أو عند نهايته، ولنقل إنه يوم أحد، أي أن وصول مظروف من سيدني أمرٌ مستحيلٌ بصورة مضاعفة. تهب ريح حادة كما لو أنها أتت مباشرة من مصانع جيليت، لكن من الضروري مع ذلك إبقاء صندوق البريد خاليًا من أي مطبوعات دعائية. التمع شيء ورقي داخل الفتحة: طرف مظروف؟ بعد العودة إلى الداخل، تخلصت من نشرة دعائية لمتجر بيتزا، قضمها الحلزون حتى صارت أشبه بالدانتيل. في يوم الأحد، أحسست في صدري لأول مرة بثقل بقدر حصاة. هطل رذاذ المطر بعد الظهيرة، وأطللت من نافذة بالطابق العلوي، فرأيت شانيل تشق طريقها إلى صندوق البريد، وقد شكَّل الرذاذ على شعرها شكلًا يشبه شبكة العنكبوت.

لا تعرف آيفي شيئًا عن جماعة هز العشب، كما طلبنا من ميل أيضًا عدم قول أي شيء لها. فكلما قل عدد الأشخاص الذين يعرفون بأمر مشاركة سيدني في الجماعة، أصبح الأمر أكثر أمانًا، ولا يمكن الوثوق بأن آيفي لن تبوح بالموضوع. وهي تصدق ما أخبرناها به: أن سيدني وصل إلى مرحلة في دراسته حيث يتعيَّن عليه إجراء بحث في منطقة نائية من دون تغطية هاتفية، وأن عنوان البريد الإلكتروني الوحيد الذي لدينا هو عنوان جامعته القديمة، وقد رأت آيفي بنفسها أن البريد المرسل إلى هناك يرتد، وهي تتقبَّل مظاريف سيدني الخالية من الرسائل بوصفها أحد سلوكياته الغريبة، فقد ألفت أساليبه.

لم تكن تفسيراتنا لترضي آيفي في الماضي، لكن فضولها حول العالم قد خفت. لا تزال تجلس في الفناء مرتدية نظارات داكنة وتضع كريم وقاية من الشمس بمعامل حماية 89، وتميل وجهها إلى الشمس. لكن تفكيرها يتحوَّل إلى الداخل، وصارت تركز على متطلبات جسدها. وفي بعض الأحيان ترتسم على وجهها نظرة تأمُّل، كما لو أنها تصارع مشكلة مستعصية.

يتكفَّل دخل آيفي الذي تحصل عليه من إيجار منزلها في الوطن بتغطية تكاليف ما تحتاج إليه لرعايتها: مقابض لإحكام قبضتها في الحمام الخاص بها، ووجبات غداء ساخنة يتم توصيلها لها خلال أيام الأسبوع، واختصاصي أقدام اسمه كوستيا يأتي لزيارتها ويتولَّى العناية بقدميها وتقليم أظافرها. كما كانت الزيارات من أحد مساعدي التمريض متاحة أيضًا، لكن فانتا لم تسمح بذلك. فهي تتصل كل صباح الآن على أمل أن تطلب آيفي المساعدة للاستحمام أو ارتداء الملابس، وتأتي بسيارتها في فترة ما بعد الظهيرة. وإذا سمحت حالة آيفي وحالة الطقس بذلك، كانتا تذهبان للتمشية جيئة وذهابًا في سبومانت كورت. وفي الأيام التي لا تكون فيها في أفضل حالٍ، تجرجر آيفي خطواتها مثل الفقمة، وتتنزهان لعشرين دقيقة، الفقمة

والحصان، ذراعًا بذراعٍ. أعلنت آيفي وهي تحلُّ وشاحها أنهما قررتا أن تولدا من جديدٍ في صورة سحب، وصاحت: "سيتألَّف جوهر عقلنا من قطرات الكريستال".

تغني فانتا لآيفي أغاني مثل "بالاد لوسي جوردان". قضت ميل عطلة الربيع في باريس مع دين، وظهرا في قصتها على انستاجرام في سيارة ذات سقف قابل للطي وقد خفضا السقف، ولاح برج إيفل على الضفة البعيدة لنهر السين. ارتدى دين كنزة فضية اللون، بينما ارتدت ميل فستانًا برتقاليًّا من النيوبرين، وقدمت ماريان فايثفول الموسيقى التصويرية. شاهدت فانتا منشور ميل، ولم تسمع سوى امرأة تغني عن الشوق اليائس. بنهاية الأغنية، يتحقق الشوق ويُدمَّر أيضًا. كانت فايثفول مدمنة سابقة، تعرف خطورة الأحلام. ولا يمكن أن نتوقع من فانتا أن تفهم ذلك. بحثتْ عن الأغنية على "سبوتيفاي"، وقالت ببساطة: "لوسي هي أنا". إذا كنت في سن العاشرة، تُعالج من التيفوئيد في مستشفى بالمدينة، ودمرت قنبلة أمريكية طائشة قريتك وكل شخص تعرفه، هل ستتمكَّن من التمييز بين الواقع والأحلام؟ يبدو عقل فانتا مكانًا مسحورًا، وكلمات الأغنية بمنزلة تعاويذ قوية: باريس، وسيارة رياضية، ورياح دافئة. بالطبع قد تكون الإشارة إلى الشعر هو ما سحرها: شعر هوَّشته الريح، مما يتطلَّب خدماتها. تقول آيفي إن صوت فانتا يشبه صوت آلة حفر طبيب الأسنان. ماذا تعرف آيفي عن أطباء الأسنان؟ على حد علمي، فلم تحتج إلى أحدهم من قبل، على الرغم من أنها تأكل الشوكولاتة قبل الذهاب إلى الفراش وتنام من دون تنظيف أسنانها بالفرشاة.

***

هناك أيام تبدو فيها قمصان روس التي بألوان الباستيل ضيقة فوق صدره، وفي أحد تلك الأيام، انتهى الاجتماع، لكن روس تردَّد في السماح لي بالرحيل. أراد أن يحكي لي ذكرياته عمَّا اضطر إلى التخلي عنه عندما انتقل إلى ملبورن: المناظر البانورامية من شقته البنتهاوس، ونشوة الإسراع عبر الميناء في الأمسيات التي يتوجه فيها هو وبورش إلى دار الأوبرا في التاكسي المائي الخاص بهما. التمعت عينا روس الزرقاوان الخاويتان عادة، ووصف حينها أشياء لم أكن لأتخيل أبدًا أنه سيلاحظها. أخبرني أنه يفضِّل صوت غسالات الملابس في سيدني، وتحدث عن رائحة البحر التي تتسلل بين ناطحات السحاب، وحزن على أضواء سيدني الذهبية. قال لي: "كان يبدو كما لو أن الضوء انعكس مباشرة من على أشجار السنط. لكن حتى الأضواء اللعينة باردة كالثلج هنا". في بعض الأحيان يبدو أن روس لا ينعي ضياع مدينة، بل شيء أبعد منالًا. وكما لو أنه يؤكد ذلك، قال: "يا صاح، هل تذكر وقتًا كانت فيه حياتك في غاية الفوضى حقًّا؟ عندما كان لا يزال في وسعك إفساد الأمور بأكثر من طريقة؟".

سألته ذات مرة لماذا لم يبقَ في سيدني بعد انهيار بنايته السكنية، فبدا الاندهاش على روس، وقال: "ألم ترَ ما حدث من حوادث الطقس المتطرف؟ اختفت رؤوس بحرية بأكملها. ولا تنسَ العناقيد الفيروسية. انتشرت في وولاهرا تلك السلالة فائقة الضراوة من فيروس أسبن، وقالت بورش إنها لن تشعر بالأمان أبدًا وهي تنشئ أسرة هناك. نصحها مرشدها الصحي بعدم القيام بذلك. قال لها إن في وسعها إحراق أعواد المريمية كما تشاء، لكن تلك القصور ستظل تنشر الفيروسات إلى الأبد. لا، لم يعُد هناك سوى المستأجرين واللبنانيين في جميع أنحاء الضواحي الشرقية الآن".

"لكن لا بد أن هناك أماكن بعيدة عن الماء؟".

جفل روس، وقال: "ملبورن أفضل".

شغلت العقارات ذهني بسبب محادثة أجريتها مع أحد الجيران. لطالما عاش بوني وإيفان على الجانب الآخر من الطريق، لكن منزلهما صار معروضًا للبيع الآن. كبر أولادهما ورحلوا عن المنزل، فقررا التقاعد في نيوزيلندا. كان إيفان من أصل نيوزيلندي، لذا لم يضطرا إلى المرور بإجراءات الهجرة الشاقة التي تبعد معظم الأستراليين. وتصادف أننا أنا وبوني كنَّا نجز العشب في شريط الطبيعة الكائن أمام منزلنا في نفس الوقت، ثم تبادلنا الحديث عقب انتهائنا.

قالت لي بوني: "نشعر بالقلق، فقد جاء الكثير من الناس لرؤية المنزل، لكن معظمهم من سكان سيدني، وكما تعلم، كان ذلك النوع من الناس يعيشون في رغد هناك، قبل انهيار منازلهم في البحر. لجأوا للإيجار في ملبورن، بينما يبحثون عن خيارات مناسبة للشراء، وقد خلصوا أخيرًا إلى أنهم لا يستطيعون تحمل تكلفة أي شيء آخر أقرب إلى وسط المدينة".

"أليس هذا شيئًا جيدًا؟".

"المشكلة هي أن وكيلنا العقاري أخبرنا أنه من الصعب إرضاء سكان سيدني. هل سمعت عن الخزانات التي يمكن التجول بداخلها؟ فعلى ما يبدو، لا يقنع أولئك الناس بالخزانات التي يمكن دخولها فحسب. كما أنهم يطلبون وجود حمام سباحة، ولا يصدقون أن هذا ليس منتجعًا. ثم أن هناك عدد الحمامات، لكنهم لا يسمونها حمامات، بل يطلقون عليها دورات مياه، ويجب أن يكون هناك واحدٌ لكل غرفة نوم. قالت امرأة: "لديَّ فتاتان في سن المراهقة، هل تتوقعين حقًّا أن تتشاركا دورة مياه؟"".

"لكن من المؤكد أن بعض المشترين من ملبورن أيضًا أبدوا اهتمامهم؟".

"لا، مجرد أزواج لديهم أطفال صغار، لكنهم قلقون بشأن تكلفة تنقلاتهم من هنا. كما أنهم يريدون ألواح الطاقة الشمسية، وظلَّ رجلٌ يتحدث عن الطريق السريع، وصمم على الحصول على تقريرٍ كاملٍ عن نسبة الرصاص في التربة. يعتقد الوكيل العقاري أنها كانت مجرد إستراتيجية لخفض السعر، لكنني لا أعرف". تنهدت بوني، ثم تابعت: "كما أن إيفان في حالة مزاجية سيئة، لأنني اشتريت بعضًا من تلك الشموع القديمة التي لها رائحة تشبه مهبل جوينيث، لقد تكلفت ثروة على موقع إيباي، لكنه يعتقد أنها تتسبب في إبعاد الناس".

أُقيم المزاد يوم سبت ربيعي لطيف. لم نحتج أنا وشانيل إلا إلى ارتداء ملابس خفيفة للتدفئة، بينما كنا نتابع العطاءات من فنائنا. دَفَعَنا أعلى عطاء إلى التفكير العميق، وفي النهاية سحب إيفان وبوني منزلهما من المزاد، وقرَّرا تأجيره، ثم تكرار محاولة البيع مرة أخرى بعد عدة سنوات. والآن، صارت أسرة من ساموا تعيش على الجانب المقابل من الطريق، وقد أهملوا شريط الطبيعة الكائن أمام المنزل، حتى إن العشب قارب الوصول إلى ارتفاعٍ يفوق ركبتي. وصرنا نتفقد الوضع كل يوم لنرى ما إذا كان أولئك القادمون من ساموا قد كسروا الستائر المعدنية. لقد انقلب حال العالم: مستأجرون في سبومانت كورت!

***

أتى الرئيس التنفيذي لمؤسسة شانيل وزوجته لتناول العشاء. كما دعونا أيضًا المدير المالي وزوجته، لكنه أرسل رسالة في ذلك اليوم يقول فيها إن حالة زوجته لا تسمح بالسفر لمسافات طويلة في

الوقت الحالي. لا يهم، فكما أشارت شانيل، سيجعل هذا الأمسية أكثر حميمية: "فرصة للتعرف حقًّا على جافينا وكريج".

في سن الخامسة والأربعين، كان كريج أصغر رئيس تنفيذي للشركة على الإطلاق. قبل ذلك، ترك شركة اتصالات بعد أن دمرها وحصل على ستين مليونًا، وقد اكتشف مؤخرًا قاموسًا للغات شعب كولين، من السكان الأصليين، وأطلقت عليه صحيفة الجارديان لقب "القنبلة"، وقالت شانيل إنه "غيَّر قواعد اللعبة"، وكانت هي والجارديان يقصدان استخدامه لكلمات من لغة شعب كولين، مثل تعبيرات بمعنى "سأشعل نارًا ضخمة"، و"أغمض عينيك"، و"دعونا نسير معًا"، وإدراج هذه الكلمات في النشرات الإعلامية التي تشرح أسباب وجوب التضحية بالمواقع المقدسة للسكان الأصليين من أجل التعدين.

وصل ضيفانا متأخرين ساعة، ودفع إليَّ كريج بزجاجة شمبانيا دافئة قائلًا: "كان علينا استخدام كيس ثلج، لكن لم يكن لدينا أدنى فكرة أن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا إلى هذا الحد للوصول إلى هنا". وكادت جافينا تخنق شانيل بباقة ضخمة من الزهور، وهي تقول: "ها أنا، مديرة عقارية رائدة في ملبورن، ولم أسمع عن هذه الضاحية من قبل".

قدنا ضيفينا إلى الردهة، وسألت جافينا عما إذا كنا نصف المنطقة بأنها "شبه حضرية". حينها، دخلت آيفي. لم تعد تهتم بالتأنق الآن، ولا حتى من أجل برام، واكتفت بارتداء أفضل بذلة رياضية لها. لكن خاتمها المرصع بالزمرد كان في مكانه، وبدت أظافرها بلون تركوازي لامع، من إبداع فانتا. توجهتْ إلى كريج، الذي كان واقفًا ويداه خلف ظهره، فاستسلم لها في الحال، وتبعها بتواضعٍ إلى الأريكة. بينما كنت أحمل الشمبانيا الدافئة، سمعتها تقول: "الآن، أخبرني كل شيء عنك".

بعد عشر دقائق، كان كريج لا يزال يتمتم بالحديث عن طفولته في كندا، ووصلتنا بعض الكلمات الشاردة: "كاياك"، و"كرز الطيور"، و"تهذيب مميت". بدت الردهة رائعة، فقد اشترت شانيل زهورًا صناعية غضة لهذه المناسبة: باقات رسمية امتزجت فيها الزهور والأوراق. مالت جافينا جانبًا في مقعدها المصنوع من الفينيل بلون الكراميل، ولم يتحرك شعرها المقصوص على نحو قصير بلونه الأزرق الثلجي، وبدا كما لو أنه متجمد ومستند إلى كتفيها. داعب طرف إصبعها زهرة كالا صناعية من الحرير لها شكل الرحم، وقالت: "رائع!"، ثم استقرت في مقعدها مرة أخرى. ارتدت اللون الأسود والألماس، مثل أرملة زعيم مافيا. وكلما نظرت جافينا إلى آيفي، أشاحت بنظرها مرة أخرى. بدا حاجبا آيفي سميكين وفضيين على نحو أنيق، لكنها فقدت الاهتمام أو التوافق العضلي العصبي بين اليد والعين بعد ذلك، حيث بدت شفتاها في حركتهما كديدان عجوز هزيلة، تحت أحمر شفاه غير متناسق. بدا أن جافينا تعاني لصياغة شيء ما بين الصلاة والنذر: شيء يتراوح بين "أرجوك، أطلق عليَّ النار لو..."، و"أقسم إنني لن أفعل أبدًا...".

التفتت نحوي كي تهرب من المنظر، وسألت: "ما هذا الصوت؟".

"فريق كولد بلاي".

"أعني ذلك الصوت الآخر".

عادت شانيل إلى الغرفة حاملة طبقًا من سلاطة لحم البقر الحارة، وقالت: "إنه الطريق السريع".

قالت جافينا: "إن الزحف العمراني حقيقي بكل تأكيدٍ. لم تكن لديَّ فكرة أن ملبورن... مترامية الأطراف إلى هذا الحد".

تركت آيفي كريج، وسألتها: "أين تعيشان؟".

وجَّهت جافينا حديثها إلى وحدة الأرفف، وقالت: "في هاثورن، على الأرجح أنت لا...".

"منذ زمن طويل، تمشيت بجوار النهر هناك، على جانب ريتشموند، كان الجو خريفيًّا رائعًا".

"يطل منزلنا على النهر من الخلف، وتمتد حديقتنا حتى المرسى الخاص بنا. نحتفظ بكرسيين للاستلقاء هناك، وهو مكاننا المفضَّل، ومن المهم جدًّا أن نضع في اعتبارنا أننا نعيش على نجم".

قلت: "هل نعيش على نجم حقًّا؟"، وقد أثار الأمر اهتمامي، لأنه يتعارض مع كل شيء تعلَّمته عن النظام الشمسي.

قالت آيفي: "لقد شعرت بالحزن الشديد يومها، لأنني فكرت أنه سيتوجب إطلاق النار على كل الأشخاص الذين يعيشون في تلك القصور. كان والداي من الشيوعيين، كما ترين، وقد تعلَّمت على يد راهبات. اختلفنا في الرأي حول كلاب آل رومانوف: هل كان يجب إعتاقها من الموت؟ أخبرني كريج أنه نشأ على يد الراديكاليين في البراري، وكانوا يطلقون النار على كلابهم من دون تردد عند أول علامة للمرض. لقد تعلم كلانا الفرق بين الخطأ والصواب، وشعرنا بالارتباك عند تشجيعنا على مساءلة الكبار".

لم يكن تأثير الشمبانيا هو السبب، فعندما عرضتُ عليها كأسًا، نظرت إليها آيفي كما لو أنها تحتوي على عنكبوت، كل ما في الأمر هو أنها تعتقد أن الجميع مفتونون بقصة حياتها. ولحسن الحظ، كان وصول ضيفينا في وقتٍ متأخرٍ يعني أنها سرعان ما أحسَّت بالإرهاق، واضطرت إلى الخلود للنوم. نهضت ومدَّت يدها إلى كريج، فقفز واقفًا وصافحها، واستطعت رؤية آيفي وهي تفكر: "يا له من أحمق!".

قال لي كريج عندما رحلت: "يا لها من امرأة رائعة!".

عادة ما تُلصق بآيفي الأوصاف المملة من هذا النوع، وهي مسميات تمجد من شأنها وتختلق لها الأعذار. انضممت إليه في تظاهره، ووافقته قائلًا: "أجل، إنها غريبة الأطوار، سنها، كما تعلم..."، ولمست جانب رأسي. الحقيقة هي أن آيفي مزعجة بطرق عادية للغاية. لو أن كريج سمع فقط امرأته الرائعة هذه وهي تسعل! سيتبادر إلى ذهنه وقوع قصف جوي، أو كارثة طبيعية، أو هجوم إرهابي، وبعد ذلك، سيفكر في "المخاطر البيولوجية"، وهو يمسح جميع الأسطح بمناديل مبللة مضادة للبكتيريا.

انتقلنا نحن الأربعة إلى مائدة الطعام. جرَّبنا أنا وشانيل مجموعة من مأكولات الشعوب المختلفة عندما جئنا لأول مرة إلى أستراليا، لكنها تخصصت على مرِّ السنين في المأكولات التايلاندية. وهذا هو ما تعده لـ"يوم الطعام العالمي" الذي يُعقد في العمل لدى كلينا، وفي كل عام يقول أحدهم: "أوه، لم أكن أدرك أن لديك إرثًا تايلانديًّا"، فنضطر إلى أن نوضح: "نحن أستراليون حقيقيون، ونحب جميع الأطعمة العرقية، لكن المفضَّل لدينا هو التايلاندي". وبطبيعة الحال، لا نطبخ للآخرين أبدًا طعامًا من وطننا، إذ سيكون هذا خطأ فادحًا يمكن مقارنته بارتداء الملابس التقليدية، وأين سيوصلنا ذلك؟ في لوحة جدارية تحتفي بالتعددية الثقافية، تصور شخصيات مبسطة وملونة تثير الإعجاب، وتدفع المرء إلى تقييمها، لكنه لا يخطئ أبدًا في الظن بأنها تمثِّل الجنس البشري. إليكم اختبارًا: هل سبق وأن ظهر دنماركي في لوحة جدارية كهذه من قبل؟

تناولنا كعك السمك كطبقٍ أول، وسأل كريج شانيل عن الوصفة، وأجرت جافينا معي المحادثة المعتادة بخصوص الإرث التايلاندي. وقعت الكارثة بينما كنَّا نتناول المأكولات البحرية بالكاري الأحمر، ولحم البقر بالثوم، وأرز الياسمين، وسلطة البابايا الخضراء. كان الباب بين غرفة الطعام والمطبخ مفتوحًا، وكذلك الباب من المطبخ الى الردهة.

ويحتوي حمام آيفي الملحق بغرفة نومها على بابٍ ثانٍ ينفتح على الردهة، كي يتمكَّن الضيوف أيضًا من الوصول إليه. حلَّت فترة صمت وسط الحديث، وعلا وسط الصمت... صوت، ثم تلاه صوت آخر، آمل أن يكون ما أعنيه واضحًا، وألَّا أحتاج إلى الشرح. بقدرٍ رائعٍ من الحضور الذهني، مددت يدي إلى هاتفي ورفعت صوت الموسيقى، لكنها لم تفلح في إخفاء ما حدث بعد ذلك، وهو ما لا يمكن وصفه سوى بكونه انفجارًا، بعد ذلك، سمعنا "اللعنة!"، على نحوٍ خافتٍ مع نغمات كريس مارتن.

ثم انتقل الحديث إلى عائلاتنا بينما كنَّا نتناول الزلابية الحلوة وآيس كريم جوز الهند. لم يعد والدا كريج على قيد الحياة، فقد رحلت والدته منذ زمن طويل، ثم تلاها والده في الوباء. قال كريج: "كان عجوزًا رائعًا، وكان لا يزال أمامه الكثير من العمر، لكننا لم نتمكن حتى من وداعه كما يجب".

قالت جافينا: "أنا متزوجة بكلب جولدن ريتريفر ضخم وقوي، أليس كذلك يا كريجلز؟ كي أصدقك القول، لم يكن من الممكن أن يصير التواصل مع روب عبر زووم مرضيًا أكثر من ذلك، لقد شعرت بأنني حاضرة تمامًا خلال نهاية حياته". ثم نظرت إلى شانيل، وقالت: "ماذا عن والديك؟ هل نجيا من الوباء؟".

"لقد نجيا، وهما في شيكاجو، حيث تعيش شقيقتي، كما أن ابنتنا هناك أيضًا، تدرس الهندسة المعمارية".

"أعتقد أنهم جميعًا يعيشون معًا".

"أقام والداي مع شقيقتي في البداية، لكنهما حصلا بعد ذلك على شقة في مبنى سكني لكبار السن، والآن، صارا مهتمَّين بمسابقات السكرابل، والرقص والسفر. لقد تحوَّلا إلى ذلك النوع من الأزواج

الذين تشاهدينهم على مواقع الإنترنت الخاصة بالمعاشات التقاعدية، وهما يرتديان معاطف مبطنة متطابقة ويتفقدان شلالات نياجرا".

قالت جافينا: "أنت محظوظة للغاية لأن شقيقتك هي التي ستضطر إلى تحمل المسؤولية عندما يصبحان عبئًا، أعني، إن المجتمع لا يحتاج إلى أي شخص فوق سن الخامسة والسبعين. حسبما أرى، تتطلب الاستدامة الإجابة عن سؤالٍ بسيطٍ: من الذي نصطحبه إلى المستقبل؟ كان والداي مفيدين بشكلٍ خيالي عندما كانت التوأمان صغيرتين، لكن أليكسا وسيري في سن المراهقة الآن". بدت جافينا متألقة للغاية، إلى درجة أنني بالكاد استطعت أن أنظر إليها: كان هناك شعرها الجليدي المبهر، بالإضافة إلى وهج الألماس. يجب أن تأتي مصحوبة بإشعار تحذيري، وتلك النظارات الواقية المستخدمة للتحديق إلى الشمس.

تابعت الحديث قائلة: "والدي في الرابعة والسبعين من عمره، وهو يتناول دواء لارتفاع ضغط الدم، أما رئة والدتي فلم تتعافَ تمامًا بعد كوفيد. كانت تلك هي مشكلة ذلك الفيروس، أليس كذلك؟ إذ إنه لم يخفِّف من عدد كبار السن كما كنَّا نأمل، وهذا لا يترك سوى خيارٍ واحدٍ في الواقع. أنا وشقيقي نعلم أننا سنضطر إلى أن نجري مع والدينا حوارًا حول الأخذ بالتعديل، قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة. لن يمانع والدي، في الواقع، لكن والدتي هي التي ستمثِّل تحديًا. هذا هو حال الأمهات، أليس كذلك؟".

قال لي كريج: "من الجميل للغاية أنك تستضيف والدتك، يا لها من عجوز رائعة...".

قالت جافينا: "إن تشارك الأجيال في العيش معًا هو واحد من تلك السمات العرقية الرائعة، وهو أشبه بقدرة المرء على جلوس القرفصاء، فهو أمر طبيعي بالنسبة إلى من هم على شاكلتكما، لكن

الغربيين فقدوا المقدرة على ذلك من قبل... قبل ظهور الميكروويف. أخشى أن ثقافتنا مختلفة تمامًا".

قلت لشانيل لاحقًا، بينما كنا نرتب المكان: "كريجلز". واصلتْ نقل لحم البقر بالثوم إلى وعاء بلاستيكي، باستخدام ملعقة لكشط الطبق، ووجهها خالٍ من أي تعبير. قلت لها: "لا بأس، لقد تفقدت كل شيء قبل أن نقدم الحلوى. كانت آيفي قد بذلت جهدًا للتنظيف بالفعل، لكنني فركت المرحاض مرة أخرى، ووضعت معطر هواء جديدًا من باب الاحتياط. بدا الحمام على ما يرام عندما استخدمته جافينا". تنهدت شانيل وهي تغلق الثلاجة، ثم التفتت، فشعرتُ بالخوف.

***

حتى يومنا هذا، أجد نفسي أتساءل: ما هي الكلمات التي حسمت الموضوع؟ عرقية؟ من هم على شاكلتكما؟ جلوس القرفصاء؟ لم نتناقش أنا وشانيل حول أي شيء قيل على العشاء في تلك الليلة، بل تحدثنا عن العقارات بدلًا من ذلك. إن العقارات هي طريقة أخرى للتعبير عن أستراليا نفسها: اكتسابها، وتطويرها، وجني الأرباح منها، أي باختصارٍ، إدارة دورة الممتلكات بثقة، وهي قصة أمتنا. لطالما وجدنا أنا وشانيل الموضوع مشجعًا، ويبعث على الحماس والشعور بالهدوء في نفس الوقت، ومع ذلك، انتابتني الدهشة عندما أعلنتْ مساء أحد أيام الأحد أن الوقت قد حان كي ننتقل إلى منزلٍ جديدٍ، قلت: "لكن من المقرر أن نجدد دورة المياه في الطابق العلوي العام المقبل، وسنتمكن من قضاء عطلات نهاية الأسبوع في صالات العرض، وإعادة التفكير في الصنابير".

كنت أعرف بالفعل، بالطبع، أن حفل العشاء الذي عقدناه حقَّق نجاحًا كبيرًا. بدأ كريجلز يمر بمكتب شانيل كل أسبوع، ودائمًا ما

كان يطلب إبلاغ سلامه لآيفي. قال إنه لم يرَ مثل هذه الحواجب الرائعة على امرأة في مثل عمرها. ومن المهم أنه أضاف كلمة جديدة إلى قاموس مفرداته من لغة شعب كولين، وهي "كوتوك"، بمعنى الشقيقة الصغرى. وفسرت شانيل ذلك بوصفه إشارة إلى أن كريجلز ينوي تحطيم سقف الشركة الزجاجي الملون: كان سيصطحبها إلى المستقبل.

في يوم الأحد ذاك، بينما نحن مسترخيان في غرفة المعيشة بعد العشاء، كشفت شانيل عن المزيد من المعلومات، إذ أخبرها ماك، مساعد المدير المالي، أن المدير المالي يتعرض لضغوطٍ هائلة للعودة إلى زيورخ. قالت شانيل: "يبدو أن زوجته تفتقد الخدمة العسكرية الإجبارية. لا يطيق ماك تلك المرأة، ويدَّعي أنها تفتقد الانهيارات الجليدية أيضًا، فهي طريقة طبيعية لطرد

الأجانب من الكانتونات". توصَّلت شانيل وماك إلى نفس الاستنتاج: سيبقى المدير المالي لمدة عام آخر في أحسن الأحوال.

واصلت شانيل قائلة: "سنرغب في الانتقال إلى منزلٍ أصغر عاجلًا أم آجلًا، كما سأرغب في استقبال الضيوف بانتظام بمجرد ترقيتي: حفلات عشاء للمديرين التنفيذيين الآخرين، وحفلات شواء للفريق المالي. لا يمكننا أن نتوقع من الناس السفر للقدوم إلى إلى هنا. ولا يتعلق الأمر فقط بالمسافة ومشكلة الريفيين حول المحطة، بل سيرى الجميع أن هناك مستأجرين يقطنون على الجهة المقابلة من الطريق. وهو ما يذكِّرني، ألم تكن تنتوي التحدث مع أولئك القادمين من ساموا بخصوص شريط الطبيعة؟".

"جاءت الفتاة إلى الباب -تلك التي تشبه شجرة صغيرة- وقالت إن شريط الطبيعة هو مشروعها لإعادة الطبيعة البرية".

"إعادة الطبيعة البرية؟ هل أخبرتها أن تبحث في جوجل عن الأفاعي الأسترالية؟".

فتحت شانيل جهاز الكمبيوتر المحمول خاصتها، وربتت على الأريكة قائلة: "تعال واجلس هنا. لديَّ شيء أريد أن أريه لك". حينها علمتُ أن جافينا تواصلت معها بشأن أحدث مشروعاتها، وهو مجمع سكني راقٍ قيد الإنشاء. قالت شانيل: "في هذه المرحلة، تتواصل جافينا مع بعض الأصدقاء فحسب كخدمة، كي نتمكن من الشراء قبل بدء مرحلة البناء الفعلي، وتوفير بعض المال".

مكتبة
t.me/soramnqraa

"هل ذكرت حقًّا كلمة "أصدقاء"؟".

"قالت أصدقاء".

"أين يقع هذا المجمع السكني؟".

"في الضواحي الواقعة بالقرب من وسط المدينة، شمالًا".

"لكن أين بالتحديد؟".

قالت شانيل: "لا يعني اسم الضاحية أي شيء، إنها تقع على بُعد أربعة عشر أو خمسة عشر كيلومترًا فقط من منطقة الأعمال المركزية".

"في الضواحي الداخلية!".

"حسنًا، بالقرب من أطراف الضواحي الداخلية. النقطة المهمة هي أنه مشروع فاخر، في منطقة لا تزال جديدة بعض الشيء، وهذا يضفي جاذبية شديدة على العقارات هناك". ناولتني شانيل جهاز الكمبيوتر المحمول خاصتها، وتابعت: "نحن نتحدث عن سكن متميز في بناية لها طابع تاريخي، كانت مجزرًا في الماضي، ومن الواضح أنه أُعيد تصميمه وفقًا لأعلى معايير التصميم المعاصر، لكنهم يخططون

للحفاظ على أرضية المذبح الحجرية الأصلية، حيث سيكون هناك فرع لمتجر إينوتيكا، ومتجر بروفيدور.

وصف موقع "برايم كت" على الإنترنت: "قرية حضرية في منطقة ناشئة حيث يجتمع الخيال والتاريخ والهندسة المعمارية معًا لخلق حكاية جديدة تمامًا"، وأشار الموقع إلى "سهولة الوصول إلى خطوط المواصلات". حددتُ موقع المجمع السكني على خرائط جوجل، فوجدت محطة للحافلات على مسافة قريبة يمكن المشي إليها، كما كان هناك طريق دائري قريب.

قلت: "يبدو مذهلًا، أم هل يجب أن أقول يصيب بالذهول؟".

لم تستمتع شانيل بالدعابة: "إن فرصة كهذه تأتي مرة واحدة في العمر. أرسلت رسالة بريد إلكتروني إلى جافينا كي أشكرها، وردَّت قائلة إننا إذا تحركنا في غضون شهر، فيمكنها أن تعطينا خصمًا يبلغ خمسة في المائة. وهذا علاوة على ما سنوفره في رسوم الدمغة". ثم أضافت شانيل: "انظر، لقد أتت جافينا لزيارتنا هنا، وحسبما أرى، فهي تبلغني أن هذه الضاحية ليست هي ما تتوقعه المؤسسة من الإدارة العليا، وهي تحاول المساعدة، إنه تلميح".

فكرتُ: ربما كان أمرًا. لكن حينما تأملتُ الأجنحة المعروضة، لم أستطع سوى الإعجاب بها. كان هناك الكثير من التشطيبات المتطورة واللمسات الإبداعية! بدا الضوء في الصور ذهبيًّا ودافئًا. لا بد أن هناك فلترًا للتصوير يدعى "منعكسًا من على أشجار السنط". كان هناك أشخاص من جميع الأعمار، التمع الضوء على وجناتهم، يشترون الجبن من رجل مبتسم يرتدي مئزرًا مخططًا، أو يشربون النبيذ على شرفات ذات مناظر طبيعية تحت سماء خالية من الدخان.

قلت: "لنكتشف تكلفة العيش في مبنى له طابع تاريخي"، واخترت الأسعار من قائمة الخيارات. صمت لفترة، ثم قلت: "إن الشقق التي

بها غرفة نوم واحدة لا تصلح بالطبع، وهل رأيت البنتهاوس؟ السعر عند الاستفسار".

"من الواضح أن تكلفة البنتهاوس تفوق ميزانيتنا، ولا نريد أي شيء في الطوابق السفلية".

"بالطبع لا! فهناك سرقات منزلية تقع طوال الوقت في الشمال".

"هذا في الغرب، على أي حال، اقرأ الجزء المتعلق بأحدث مميزات الأمان. المكان مُحاط بسياج مكهرب، وسيحمل الحراس مسدسات الصعق الكهربائي. لكن هذا لا يهم، فنحن نبحث عن شيء في الطوابق الوسطى".

شرعت أراجع الأرقام في ذهني، وأوضحت قائلًا: "نحن لا نزال ندفع أقساط هذا المكان، وحتى لو حصلنا على نتيجة أفضل كثيرًا من بوني وإيفان في المزاد، فلا أرى كيف يمكننا أن نجعل هذا الأمر ينجح".

قالت شانيل: "لن نبيع المكان، فهذا هو منزل طفولة ميل وسيدني. أعرف أن هناك كسادًا في العقارات هنا الآن، لكن على المدى الطويل، لا يمكن أن يخسر الطوب والأسمنت. هذا المنزل هو استثمار في مستقبل الولدين، سنؤجره، وسيتضمن عقد الإيجار بندًا بخصوص صيانة شريط الطبيعة".

"لكن كيف سنمول سكننا الجديد؟ ألقِ نظرة على المطلوب مقابل شقة بها غرفتا نوم وغرفة مكتب".

قالت شانيل: "يُطلق على الأمر مسمى تقليص حجم السكن: والاسم يعطيك الجواب. لسنا في حاجة إلى غرفة مكتب. ستكفي شقة من غرفتي نوم، وسيكون بها حمامان، علاوة على حمام صغير

للضيوف، وإذا تصادف قدوم ميل وسيدني للزيارة في نفس الوقت، فلن يمانع سيدني النوم على الأريكة".

"أجل، لكن..."، تنحنحتُ. كانت آيفي قد ذهبت إلى الفراش، وكان الباب المؤدي إلى الرواق مغلقًا، لكن على الرغم من ذلك، خفضت صوتي: "ماذا عن آيفي؟".

وضعت شانيل يدها فوق يدي، وقالت: "أعرف أن هذا يمثِّل تغييرًا في وجهة النظر، لكننا نتحدث عن المستقبل، هذا بعد آيفي".

بعد آيفي! بدا الأمر كما لو أنه متعلق بالوقوف في الصف. ضغطت شانيل أصابعي. "لدينا ما يكفي من رأس المال هنا لإعادة الرهن العقاري، وسيتكفَّل ذلك بأمر الدفعة المقدمة لمنزلنا الأبدي. سأتصل بالبنك يوم الاثنين".

"الدفعة المقدمة هي البداية فحسب، ماذا عن الباقي؟ حتى إن تمَّت ترقيتك...".

"سنبيع المنزل".

"لقد قلت للتوِّ إننا سنؤجره".

"ليس هذا المنزل، بل منزل آيفي في الوطن، لقد ارتفعت أسعار العقارات هناك، وتدهورت قيمة الدولار الأسترالي، إنه التوقيت المثالي لبيع ذلك المكان، هل فكرت في قيمة الأرض وحدها؟ سترث ثروة بعد رحيل آيفي".

بعد آيفي، بدأت الحصاة الكائنة بين ضلوعي تزداد ثقلًا كالحجر، ورأيت نفسي: يتيم أعزل، أحاول مقاومة الحزن على شرفة تطل على طريقٍ دائري لا تحجب رؤيته أي عوائق، كما رأيت أيضًا أن حسابات شانيل خاطئة. قلت لها: "لقد نسيتِ طبيعة الوضع هناك: تصفية الملكية، والتخلص من المستأجرين، وبيع المنزل، يمكن أن يؤدي أيٌّ

مـن ذلـك إلى دعـاوى قضائيـة. سيسـتغرق الأمـر برمتـه عامًـا في أحسـن الأحـوال، ووقتًـا أطـول في الواقـع".

"أجل".

"متـى ينتهـي العمـل عـلى مـشروع :"برايـم كـت"؟"، مـررتُ الشاشـة بحثًـا عـن المعلومـات، وتابعـتُ قائـلًا: "ثمانيـة عـشر شـهرًا، ويمكـن أن تطـول هـذه المـدة، لكـن سـواء طالـت أم لا، كيـف يمكننـا التأكـد مـن أن آيفـي...".

مـن قبـل أن أنتهـي مـن صياغـة السـؤال حتـى، ظهـر الجـواب. نظـرت إلى وجـه شـانيل الهـادئ الثابـت، وأتـاني صـوت لورنـا مـن المـاضي، قائـلًا: "لا يمكـن الاعتـماد عـلى فرانـك"، لكـن الـشيء المزعـج هـو أنـه لطالمـا كان في وسـعي الاعتـماد عـلى شـانيل.

***

مـرَّ أسـبوع، ولا أعتقـد أننـي حظيـت بـأي قـدرٍ مـن النـوم. يمكنـك القـول إننـي كنـت أواجـه خيـارًا بـين والـدتي وزوجتـي، لكـن الأمـر تجـاوز ذلـك بكثـيرٍ، فقـد وصلـت إلى واحـدة مـن تلـك اللحظـات الحاسـمة، عندمـا يتعـين عـلى الشـخص الاختيـار بـين المسـتقبل والمـاضي. أرسـلت إليَّ شـانيل رابـط يوتيـوب، وكتبـت: "مـن الأفضـل أن نكـون واضحـين بشـأن مـا قـد ينتظرنـا في المسـتقبل". عـرض الرابـط مقطـع فيديـو وصفـت فيـه امـرأة تمريضهـا لوالدهـا خـلال إصابتـه بسرطـان الأمعـاء الـذي لا يرجـى علاجـه. كان هـذا نوعًـا مختلفًـا مـن المسـتقبل، لا يريـده أحـدٌ أبـدًا. كانـت المـرأة تتوسـل للموافقـة عـلى قانـون تسـهيل المـوت. توقعـت أن تناقـش شـانيل معـي الفيديـو في ذلـك المسـاء، لكنهـا عـادت متأخـرة، إذ ذهبـت بعـد تمرينـات البيلاتـس لـشراء كعكـة تريـس ليتشـيس -المفضَّلـة لـديَّ حاليًـا- وشـعرت بالإرهـاق بعـد يومهـا الطويـل. عندمـا

استيقظتُ في تلك الليلة، استدعى ذهني كلمات الوزير على سلم البرلمان: "الكرامة، وحرية الاختيار، والسرعة"، وبدت كلمات مطمئنة. كانت هناك بعض العبارات الفظيعة التي قالتها المرأة في الفيديو، ثم كانت هناك "الكرامة، وحرية الاختيار، والسرعة". لم تكن تلك المرأة تريد سوى ما هو أفضل لوالدها، فكرتُ: هل يمكن أن يتسبب النقاش في وقوع أي ضرر؟

سألتُ شانيل بعد بضعة أيام: "إن مناقشة الأمور مع آيفي لن تضر، أليس كذلك؟".

فكرت لبعض الوقت، ثم قالت: "لا أرى كيف يمكن أن يتسبب ذلك في أي ضرر".

"كي نوضح لها الخيارات المتاحة".

"يبدو هذا معقولًا للغاية".

"حتى تتخذ آيفي قرارًا مستنيرًا".

"يبدو هذا منصفًا لها، في الواقع".

لذا رتبنا لرؤية برام بعد العمل في يوم الجمعة، ولم يكن الأمر غريبًا، فقد كنا جميعًا نتناول مشروبًا أو عشاءً معًا من وقت إلى آخر. تساقط رذاذ مطر خفيف عندما انتهيت من عملي في القسم، وبينما كنت أنتظر المصعد، نظرت من النافذة ورأيت المدينة متوترة ومكدسة فوق سقف من المظلات.

عندما وصل الترام الذي أستقله إلى ريتشموند، بدت السماء صافية، وأحاطت السحب حواف ذهبية رقيقة. مرَّ أحد الريفيين، يحتضن فأرًا بوجه كلب، لا، بل أعني أن العكس هو الصحيح. وصلت إلى بناية برام في نفس الوقت الذي كانت فيه شانيل تركن سيارتها في أفضل مكان أمام البناية مباشرة. يمكنها أن تركن أي شيء بصورة

موازية للرصيف، في أي مكان، في عشرين ثانية، وتعد كيفية القيام بذلك من تقاليدنا العائلية الأثيرة: تراصف عجلة القيادة مع منتصف النافذة الخلفية للسيارة التي تركن خلفها، وحينها -وحينها فقط- تبدأ في الانحراف بالسيارة. قادنا برام إلى شرفته التي زينتها بلاطات من الطين المحروق الإيطالي، ونافورة مياه، وشجيرات صنوبر وكاميليا في أصص من الخزف المزجج. كانت تطل على أبراج الإسكان العامة البعيدة، والمصانع الواقعة على مسافة أقرب، والتي أعيد توظيفها لتصبح شققًا سكنية. قلت: "هل لاحظتما أن الأغنياء يسكنون البنايات، بينما الفقراء يسكنون الأبراج؟". تجاهلاني، وانشغلا بتفقد الكاميليا. ثُبتت على كل شجيرة برباط بلاستيكي أخضر صورة زهرة مكشكشة رسمية الهيئة، في بياض شخص من العصر الإليزابيثي. شرع برام يتذمر قائلًا إنه يسمد النباتات بخلطة خاصة للكاميليا، ويحافظ على أوراقها خالية من الغبار، ومع ذلك رفضت الإزهار. كانت البراعم تظهر، ثم تتحوَّل إلى اللون البني وتتساقط، قال برام أخيرًا: "التلوث هو السبب، فهو يزداد سوءًا كل عام".

قادنا هذا إلى منطقة محفوفة بالمخاطر، فلزمنا الصمت. جلب برام المشروبات، وبعض الجبن والزيتون، مما تطلب انتباهنا لبعض الوقت. بدأت الأضواء في أبراج الإسكان تشتعل كإشارات استغاثة. شاهدت مجموعة من البقع الشبيهة باختبارات بقع الحبر وهي تعبر السماء، وتساءلتُ بصوتٍ مرتفعٍ عن المكان الذي تتجه إليه الخفافيش. قال برام: "إلى كيو وما وراءها، إلى الحدائق الكبيرة وأشجار الفاكهة". استعمرت الخفافيش شجرة بالقرب من نافذة غرفة نومي عندما كنت صبيًّا، وكان صخبهم يوقظني من النوم. دار في ذهني فيلمٌ قصيرٌ، ظهر به روس وبورش وبرادا وهم يشخرون في أسِرَّتهم بينما الخفافيش تتغذى وتتقاتل في أشجارها. لكن المربية المولدوفية التي أصابها الأرق والإرهاق ظلَّت تصب اللعنات وسط ذلك الضجيج،

والشيء الوحيد الذي كانت تعرفه على وجه اليقين هو أنها لم تعِش على سطح نجم من قبل.

وبالمناسبة، فإن الشخير ليس شيئًا من وحي الخيال، على الأقل ليس في حالة بورش، وأكد لي حديث ليريك ذلك الأمر. طلب روس منهم البحث عن علاجات للشخير، لأن بورش كانت تبقيه مستيقظًا في الليل. بحث ليريك في الأمر، وأوصوا بآلة ضوضاء بيضاء. أوه، أجل، لقد لان موقف ليريك حيالي، وقد حدث الأمر كالتالي: كنَّا آخر اثنين في العمل ذات مساء، وتوجهتُ للخروج. كنت على وشك أن أنادي: "تصبحون على خير، يا ليريك"، لكن شيئًا ما في وضعهم، بينما هم جالسون هناك خارج مكتب روس المظلم، مثل كلب تريير وفي وردي الشعر، جعلني أقترب قائلًا: "أنا على وشك الرحيل، آمل ألا تضطروا إلى البقاء فترة أطول كثيرًا".

أحاطوا هاتفهم المحمول بكفَّيهم، كما لو أنهم يحمون شيئًا ضعيفًا. قالوا وهم لا يزالون يتأملون الشاشة الصغيرة: "لقد رحل جدي"، وتسبَّبت الأضواء في ظهور بقع رمادية أسفل عينيهم التي بلون اليوسفي. قدمت التعازي، واقترحت تناول الشاي، بينما ظللت أفكر طوال الوقت: "رحل!". كيف يتوافق هذا الشخص الشاب رقيق الحديث مع ليريك الذين سمعتهم يتذمرون ذات مرة أن رفيق فراشهم ليس لديه الوقت للقدوم ذلك المساء؟

رفضوا الشاي، وقالوا: "أنا على وشك الرحيل، سأستقل الحافلة وأذهب إلى والدتي، سأكون بخيرٍ". مع ذلك، بقيتُ هناك، محافظًا على مسافة بيننا بدافع الاحترام. كان في ذلك مجازفة بإزعاجهم، لكن بدا من الخطأ تركهم بمفردهم. منذ وقتٍ ليس ببعيدٍ، جرَّبت ميل نفس اللون الأحمر الكرزي في شعرها. أملتُ ألا ينتهي بها الأمر وهي

حزينة بمفردها في مكتب أمريكي مظلم، به بلاط من السجاد الرمادي وكراسٍ مريحة.

حزم ليريك أغراضهم، وحملوا الهوفربورد الخاص بهم تحت ذراعهم. أدخلتُ شفرة الأمن، وركبنا المصعد في صمتٍ، ووقفتُ بعيدًا قدر الإمكان. في الشارع، قالوا: "شكرًا يا لايل"، قبل وضع سماعات الرأس الخاصة بهم والتحليق بعيدًا بالهوفربورد.

منذ ذلك المساء، كثيرًا ما صار ليريك يرسلون إليَّ ابتسامة صغيرة، وقد أخبروني بموضوع الشخير بينما كنَّا ننتظر روس ذات يومٍ. وصل مضطربًا وهو يرتدي ألوان الباستيل، وقال: "آسف، يا رفاق! وقعت بعض الدراما في آخر لحظة. أعلنت المربية المولدوفية خلال الإفطار أنها تريد العودة إلى وطنها، وتدعي أنها اشتاقت إليه. ما الذي يمكن أن يفتقده المرء في ذلك المكان القذر؟ لا، بل كانت تحاول إجبارنا على زيادة أجرها، ولو لم تكن برادا شديدة التعلق بها، لأوصلتها بنفسي إلى المطار في التو واللحظة".

في ريتشموند، غابت آخر آثار الغروب أخيرًا، وأشعل برام أضواء نافورته، وكذلك الأضواء المختفية وسط شجيرات الصنوبر، وعندما جلس ثانية، قال: "إذن؟"، بصيغة السؤال. عقد ذراعيه، ووضع كفَّيه تحت إبطيه، ثم أخرجهما وفركهما بسرعة. لم تكن المدفأة المعلقة ندًّا للريح، لكن عندما يعلن التقويم حلول الربيع، يحب برام تناول المشروبات في الخارج قبل العشاء.

تحدثت شانيل بهدوء لبعض الوقت، وكان لحفل العشاء وكل ما تلاه تأثيرٌ منعش رائع عليها؛ زالت حدة مزاجها، وارتفعت روحها المعنوية كما لو كان ذلك بفعل حمالة صدر قوية. استمع برام إليها من دون مقاطعة، ولا شك أنه سمع نفس الشيء من عائلات أخرى، وعندما انتهت، قال: "مستحيل". كان كرسيه هو الأبعد عن شجيرات

الصنوبر المضيئة، وبدا كأنه يزمجر من بين الظلال: "ليس لدينا حتى تشخيص".

قالت شانيل: "ولن نحصل على تشخيصٍ أبدًا، كما تعلم. لا بد أنك لاحظت افتقاد آيفي حماسها القديم، وقد وُضع التعديل لمثل هذه الحالات".

قال نفس الصوت الخشن: "الأمر متروك لآيفي، يجب أن يأتي الطلب من المريض".

"هل آيفي على دراية حتى بالتعديل؟ أنت تعرف كم يمكنها أن تكون ساذجة، لهذا نطلب منك التحدُّث معها وإطلاعها على خياراتها، ففي هذا إنصاف لها. ورغم قولك إنه لا يوجد تشخيص، لكنك أخبرتنا أنه لا يمكنك استبعاد السرطان، أليس كذلك؟". لم يرد برام، فواصلت شانيل: "إلى أي مدى تعتقد أن المرض تقدَّم؟ المرحلة الثانية؟ الثالثة؟ ما يشغلنا هو معاناتها".

قال برام بعد دقيقة: "إذا كانت مصابة بالسرطان، فهو يتقدم ببطء، أنا على يقين من هذا. تواجه آيفي صعوبة مستمرة في حركات الأمعاء، لكن وزنها استقر، وقد ثقلت حركتها بشكلٍ عام، لكن هذا ليس مفاجئًا في عمرها. إن الحديث عن المعاناة...".

قالت شانيل: "هناك امرأة على يوتيوب، أُصيب والدها بسرطان الأمعاء، وأخذ يتقيَّأ البراز في المرحلة الرابعة. كل ما نطلبه منك هو إجراء محادثة مع آيفي، وتوضيح ما يمكن أن يحدث من دون تدخل طبي، ومناقشة ما قد يعنيه الأخذ بالتعديل، وسيكون القرار لها بالكامل".

"لماذا لا تتحدث معها أنت، يا لايل؟ أنت ابنها، هذه المحادثة ليست من شأني"، ثم نهض برام وتوجه إلى الداخل.

التقت نظرة شانيل بنظرتي، إذ كانت قد اقترحت نفس الشيء، لكن كيف يمكنني طرح الموضوع؟ فقد ظلّت عبارتها تلك عالقة: "اللحظة التي احتضنتك فيها لأول مرة". تخيلت نفسي وأنا أستعد للحديث مع آيفي، واكتشفت أن الحجر الجاثم بين ضلوعي تحوَّل إلى حجرٍ على لساني. وبينما أنا جالس هناك عاجز عن الحديث، ما الذي يمكن أن تقوله آيفي؟ قلت لشانيل وأنا أشير بيدي: "لن أكون أكثر نفعًا من هذه!"، فنظرتْ متحيرة إلى أقرب شجيرة صنوبر في أصيصها الخزفي.

علا صوت مرحاض، ثم جرى الماء من صنبور مفتوح، وظهر برام، قصيرًا ورشيقًا وهو يعبر ردهته ذات الضوء الذهبي. كان يرتدي بذلة رياضية وحذاءً رياضيًا، لكنه بدا أنيقًا ومتحضرًا مثل غرفته. على الشرفة، مال إلى الأمام في كرسيه بحيث صار وجهه في الضوء، وتحدث بهدوء، وهو يتحكم في صوته، بتلك النبرة التوضيحية التي يستخدمها الآباء مع أطفالهم المتحمسين بدرجة زائدة. "انظرا، هناك قدرٌ لا بأس به من الاستياء وسط الدوائر الطبية، بخصوص ذلك التعديل، فهو يتعارض في المجمل مع القناعات السائدة، لكن يمكن العثور على بعض الحالات التي يتواطأ فيها الممارسون مع الأسر مقابل أجر، ويعملون على تسريع الأمور. وقد شُطب فرد أو فردان، ومُنعوا من ممارسة المهنة، وحتى لو أرادت آيفي الأخذ بالتعديل، فلا يمكنني أن أشهد بصدقٍ أنها ستموت في غضون ثلاث سنوات".

سألته شانيل: "وهل يمكنك أن تشهد بصدقٍ أنها لن تموت؟".

التمعت غرفة معيشة برام خلفه كسبيكة ذهبية: الأرضية الخشبية، والجدران التي بلون الشمبانيا، والأضواء الأنيقة التي انتشرت من المصابيح الجانبية، والخزانة المطلية بالورنيش، والمزهرية الصينية الصفراء في مكانها المضاء، بدا كل ذلك لامعًا ومتوهجًا. شعرت بدرجة

حـرارتي تتغـير. ناقشـنا أنـا وشـانيل كل شيء، وكانـت أوامرهـا واضحـة: "دعني أنـا أقـود دفـة الحديـث"، لكـن الغرفـة الذهبيـة أمرتنـي بخـلاف ذلـك. لقـد خاطـرت بمسـتقبل أسرتي حتـى يتمكّـن بـرام مـن مواصلـة الاسـتمتاع بتلـك الغرفـة. وهـا هـو الآن يجـرؤ أن يتحـدث عـن الحقيقـة! سـألته بهـدوءٍ، كـما لـو أننـي أتبـادل معـه حديـث عـادي: "كيـف حـال جاريـد؟ هـل خـرج مـن السـجن بعـد؟".

***

لم تعـد آيفـي تتنـاول وجباتهـا الغذائيـة المتوازنـة، حيـث تتركهـا لتذبـل في الثلاجـة، بينـما تعـد فانتـا الغـداء الـذي تـصر عليـه آيفـي: أرزًا طريًّـا نشـويًّا غارقًـا في الفيجيمايـت الممـزوج بالمـاء السـاخن، وفوقـه بيـض مقـلي. لذلـك عندمـا وصـل بـرام لرؤيـة آيفـي يـوم السـبت التـالي، طلبـتُ منـه التحـدث معهـا عـن نظامهـا الغـذائي، مـن بـين أمـور أخـرى. أجـاب: "لقـد ظللـت أحادثهـا عـن نظامهـا الغـذائي طـوال سـنوات، ولم تعِـر الأمـر أي اهتـمام قـط، ومـاذا يهـم في ذلـك الآن، عـلى أي حـال؟". لكـن الأمـر كان مهـمًّا، لأنـه يفسـح المجـال لسـوء الفهـم. لم نكـن أنـا وشـانيل مهملـين ولا مسـيئين، لكـن مـن يـدري أي نـوع مـن التفسـيرات المجنونـة يمكـن لشـخصٍ غـير مسـتقرٍّ مثـل فانتـا اسـتنتاجه مـن الوضـع، إذا لم نوضـح أن رفـاه آيفـي هـو شـاغلنا الرئيـسي، في الأشـياء الصغـيرة، كـما في الأشـياء الكبـيرة؟

قابلـت آيفـي بـرام في غرفتهـا لأننـي أخبرتهـا أنـه يتعـين عـليَّ تنظيـف الردهـة بالمكنسـة الكهربائيـة. ظـلَّا هنـاك معًـا، والبـاب مغلـق، لمـا بـدا كأنـه دهـر بأكملـه، وعندمـا خـرج بـرام أخـيرًا، كنَّـا أنـا وشـانيل في الانتظار. بـدلًا مـن كنزتـه المحبوكـة التـي بلـون العشـب الصناعـي، ارتـدى بذلـة داكنـه، لا بـد وأنـه ظـنَّ أنهـا ملائمـة لهـذه المناسـبة. كـما قـصر طـول

شعره المموج، مما كان يجعل رأسه دائمًا يبدو صغيرًا على نحوٍ غير معقول. قالت شانيل: "اجلس وتناول مشروبًا، وأخبرنا بما حدث، هل وافقت؟". تظاهرت بالتقيؤ، وقالت: "المرحلة الرابعة. هل...؟".

قال برام وهو لا يزال واقفًا عند مدخل الردهة: "لقد وافقت"، وشحب لونه حتى كاد يبدو شفافًا من فرط الغضب، ومحاولة التحكم فيه.

قالت شانيل: "هذا رائع! ماذا سنفعل من دونك يا برام؟".

أرسل إلينا ابتسامة أشبه بصفعة، وقال وهو يبتعد: "هناك أشياء تريد التحدث عنها مع لايل، إنها تصر على هذا". استطعت تخمين أنه هو من حثَّ آيفي على ذلك، قائلًا شيئًا ما مثل: "عليك مناقشة الأمر مع لايل، قبل اتخاذ قرار نهائي، وتذكري، بغض النظر عما قد يقوله أي شخص، يمكنك تغيير رأيك في أي وقتٍ".

عقب رحيل برام، قالت شانيل: "سأتصل بميل، وسأطرق باب آيفي بعد خمس عشرة دقيقة لأخبرها أنها على الهاتف". كررت حركة التقيؤ مرة أخرى، وهي تشير بقوة نحو شفتيها، وقالت: "المرحلة الرابعة".

كلما دخلتُ غرفة آيفي، يبدو الأمر كما لو أنني أسمع أصواتًا مكتومة من غرفة العلية. يبدو الهواء هناك عتيقًا، وأكثر كثافة من أي مكان آخر في المنزل: إنه هواء القرن العشرين، يتسرب من صور الذين لم يموتوا بعد. ومثل العديد من أفكار سيدني، كان المنشور الذي أهداها إياه لطيفًا، وبلا فائدة. تطل نوافذ آيفي على سياج ناحية الجنوب، فلا تنعكس أي أقواس قزح على الجدران، ويخترق نصلٌ من الضوء الغرفة لمدة عشر دقائق فحسب تقريبًا خلال اليوم.

جلست بجانب فراش آيفي، بعد أن تمكنت بسرعة بديهتي من وضع إستراتيجية في المسافة التي استغرقتها لقطع الطريق بين الباب

والكرسي، اسمها "خُذ بزمام المبادرة". قلت: "حسنًا! هل أوضح برام كل شيء؟ استغرق مني الأمر بعض الوقت لتفهم الفكرة حينما اقترحها في البداية، لكنني رأيت بعد ذلك أنه اقتراح ممتاز. أنا مندهش بعض الشيء لأنك وافقت بهذه السرعة، لكنني مسرور حقًّا من أجلك. سوف... يريحك ذلك كثيرًا".

قالت آيفي: "لكنني لم أوافق"، وبدت مرحة ومستعدة للشجار، وهي مستندة إلى وسائدها.

فكرت، ها نحن ذا، لكنني قلت: "هناك مقطع على يوتيوب، أعتقد أن عليك مشاهدته، صدقيني، أنا لا أهتم إلا براحتك وكرامتك فقط".

"ومع ذلك، فإنك تعاملني كطفلة. الألياف الغذائية! حتى وقع الكلمات يبدو مثل نشارة الخشب. سآكل ما أريد أن آكله، كنت أعتقد أنك ستتفهم هذا، دونًا عن كل الناس".

لا بد أن الحيرة ظهرت عليَّ، فقالت آيفي: "هل نسيت حقًّا؟ عندما كنت صغيرًا، أردت تناول البطاطس المهروسة الباردة على العشاء كل ليلة، لمدة عام كامل، وكان يجب أن تكون البطاطس المهروسة باردة، فقد أصررت على ذلك".

لم أتذكر شيئًا من هذا القبيل، لكن البطاطس المهروسة الباردة أطلقت في ذهن آيفي موجة من الذكريات. استمرت قائلة: "هل تذكر سولفيج، صديقتي النرويجية حينها؟ تلك التي كان لها أنف بادي الجدية، وشعر ذهبي؟ بدت كإمبراطور روماني له جدائل. كانت مصورة، وظلَّت طوال أسابيع وأسابيع تأتي إلى المنزل كل يوم لتخبرني أنني يجب أن أذهب معها، وأعيش حياة مختلفة. تحدثنا عن ذلك لساعات، وبدا الأمر ممتعًا للغاية، مثل كتابة مسرحية معًا. كنا سنعيش ببساطة في بلدٍ مختلفٍ، في منزل بجانب بحيرة جبلية.

وبينما نبحث عن منزل مناسب، سنخيم أو نعيش في منزل عائم. كانت سولفيج ستلتقط الصور وترسم، بينما أعمل أنا على حبك كنزات شعرت هي بالثقة من إمكانية بيعها بمبالغ كبيرة للناس في أوسلو. كما نوينا أيضًا زراعة عباد الشمس والأعشاب لبيعها محليًا، وإذا أغمضت عيني، كنت أستطيع رؤية عباد الشمس، معلقًا رأسًا على عقب في كوخ من القش حتى يجف".

حاولتُ الحديث، لكن آيفي واصلت: "كانت سولفيج تقود شاحنة قديمة، وكان علينا ألا نأخذ أكثر مما يمكننا حمله عند رحيلنا. كتبنا قوائم في مفكرة بقلم فلوماستر، وتجادلنا بشأن ألعاب الطاولة والأسماك المعلبة. كان في وسعي اصطحابك معي أو تركك، فلم تكترث سولفيج بشأنك، وقالت: "إذا جاء، فلن يكون هناك بالتأكيد مكان للعبة الداما". تساءلتُ عما قد يعنيه ذلك بالنسبة إلى دراستك، لكن سولفيج قالت إنك ستحصل في مدرسة القرية على تعليم أكثر ثراءً مما كنت تأمل في الحصول عليه في المدينة. شعرتُ بالقلق أيضًا بشأن الرحلة إلى هناك، والتي ستتطلب جوازات سفر، وعبَّارة، وطرقًا خطرة. حينها أدركت سولفيج أنني لا أستطيع القيادة، وأوضحت لها أنه خلال نشأتي، لم يكن أحد ممن أعرفهم يستطيع تحمُّل تكلفة سيارة. ثم أخبرتها أنني بعد أن صرت أمتلك سيارة الآن، بتُّ أستمتع بأن يقوم أحدهم بتوصيلي. قالت سولفيج إنني لخصت للتوِّ كل الأمور الخاطئة في حياتي، وتحدثتْ عن "قفص مذهب"، وبدت طريقة حديثها أقل تشويقًا بكثيرٍ من طريقة تفكيرها. كانت تصغرني بثلاثة عشر عامًا، وأحاطها الكثير من الغموض. حاولتُ أن أصف ذلك الوقت بعد وفاة والدك، عندما كنت وحدي مع طفلٍ صغيرٍ. لم تشعر سولفيج بالخوف قط، لذلك لم تستطع فهم أي شيء يتعلق بالأمان، وفي سن السادسة والثلاثين، اعتبرت نفسي عجوزًا للغاية لأنني كنت متزوجة، ورُزقت بك.

نفد القلم الفلوماستر، لأننا ظللنا نمزق القوائم ونبدأ من جديد. أخبرت الجميع، داخل الأسرة وخارجها، أننا نخطط لقضاء عطلة. وفي بعض الأحيان، بدا لي الأمر برمته كما لو أنه مجرد لعبة، وفي أحيان أخرى بدا كأنه حلم، وأحيانًا كانت هذه هي الحياة.

وذات صباح، قلت فجأة: "لم نستشِر خريطة واحدة!"، فبدت سولفيج مثل كلبٍ تعرَّض للركل، وكما لو أنها مفروشة على الطاولة بيننا، تذكرتُ بوضوحٍ تامٍّ خريطة مطبوعة في إحدى الصحف، وقد أظهرت البلد الذي نوينا العيش فيه، حيث كانت تدور حرب في المنطقة الشرقية.

لذا أصبحت الآن راشدة سمعت طفلة تحكي لنفسها قصصًا، وأفسدت كل شيء بالحقائق المملة. رحلت سولفيج في وقتٍ مبكرٍ من ذلك اليوم، ولو لم نكن جالستين على الشرفة، لصفقت الباب وراءها بعنفٍ مثل ممثلة في مسرحية لإبسن. اعتقد والدك أن إبسن يحظى بالتقدير بشكلٍ مبالغٍ، لكنه بدا مهمًّا بالنسبة إلى سولفيج. كانت تعتقد أن الرجال يضطهدون النساء، بينما اعتقدتُ أنا أننا جميعًا يضطهد بعضنا بعضًا كلما استطعنا. ظننت أنني لن أرى سولفيج مرة أخرى، لكنها عادت في اليوم التالي وبحوزتها كتاب. كان كتابًا قديمًا للأطفال، كُتِب بلغة لم أستطع فهمها، لكنه يحتوي على صور جميلة، وبه منزل بجدران وردية، وبحيرة زرقاء بها عوامات، وجبال بقمم ثلجية. ظهر كل شيء في الكتاب، حتى زهور عباد الشمس، التي عُلقت مقلوبة كي تجف، وعندما رأيتها ، فكرت في الموتى. أخبرتني سولفيج أنها اعتادت قراءة ذلك الكتاب منذ كانت في السابعة من عمرها. وهذا ما كنت سأقلب حياتي رأسًا على عقب من أجله: كتاب كُتِب للأطفال النرويجيين قبل ولادة أي منَّا بوقتٍ طويلٍ".

ذات مرة، منذ زمن طويل، كان هناك سروال فضي، وشعر ذهبي على الشرفة: الشمس والنجوم، ودار ذهني معهما. شرعت أقاوم الإحساس، الذي لم يكن يراودني إلا خلال محادثاتي مع آيفي، أن موضوع النقاش الذي كان من المفترض أن يتقدم على طريق آمن من المنطق، قد انحرف من فوق جرف فجأة، على نحوٍ غير مفهوم. أخيرًا، سألتها: "هل كان نظامك الغذائي هو الشيء الوحيد الذي تحدث عنه برام؟".

نظرت إليَّ آيفي بتمعنٍ، وقالت: "أوه، لقد ناقشنا التعديل أيضًا، وقال برام إن الأخذ بالتعديل سيكون مخالفًا لتعاليم الأخت بيربيتوا. لم يعرفها قط بالطبع، واضطررت إلى أن أوضح له أنها اعتقدت أن إطلاق البلاشفة النار على كلاب آل رومانوف كان لطفًا منهم. هل كانت كلابًا من فصيلة السبانيل؟ على ما أتذكر أنها سبانيل، على أي حال، كانت الأخت بيربيتوا تقول دائمًا: "أي حياة تلك التي كانوا سيعيشونها؟ لم يكن أحد يريدهم"".

مالت آيفي نحوي، من دون أن ترفع عني عينها ذات الجفن المرتخي والأخرى المتسعة، وواصلت قائلة: "ما رأيك أنت؟ ماذا كنت ستفعل بالكلاب، يا بني؟"، لكنها لم تقل "بني"، بل استخدمت كلمة مختلفة، كلمة تعني "بني" بلغة نسيتها. أصابني ذلك بشعورٍ غريبٍ، وأردت أن أمسك بيد آيفي، وأردت التوسل إليها: أرجوك، قولي لي الشيء الوحيد الذي يريد كل طفل سماعه من والديه. أرجوك، قولي "لقد قمت بعملٍ رائعٍ، يا بني".

اضطررت إلى أن أشيح بنظري بعيدًا. كانت هناك ستارة نايلون على النافذة، وبينما استغرقت في تأملها، تحوَّلت ثناياها البيضاء إلى ثلوج متساقطة، تخبطت وسطها كلاب السبانيل الروسية، وقد دُفنوا حتى أعناقهم. وقذف الأطفال البلشفيون الصغار الحجارة على رؤوسهم صائحين: "موتوا، أيها الإمبرياليون الأوغاد!". بعد فترة، قلت للستارة:

"لم نرِد أنا وشانيل سوى الأفضل بالنسبة إليك، لكن القرار قرارك. إذا اخترتِ عدم المضي قدمًا في الأمر، فلن يذكره أحد مرة أخرى".

استلقت آيفي إلى الخلف، وأغلقت عينيها وقالت: "كانت الأخت بيربيتوا محقة تمامًا، إذا لم تكن مرغوبًا، فمن الأفضل أن تكون النهاية سريعة. ظهرت لي الخمسة البستوني هذا الصباح، وهي دومًا ما تجلب العطايا في صورة مقَنَّعة".

كان ما حدث بعد ذلك متوقعًا، إذ أظهرت آيفي جانبها السام، الذي يتصف بكونه غير منطقي، وقويًّا، ويفتقر إلى الإنصاف. وقد تبعني خارج غرفة آيفي، وبقي في أعقابي، وهو هنا الآن، يحيط بي ويلدغني في "ذا كوفي سبوت"، ويخبرني أنني قد فشلت في الاختبار.

***

في هذه الأيام، صارت العملية يسيرة تمامًا: يرسل المتقدم طلبًا إلى الوزارة، ويجب أن يكون مصحوبًا بإقرارٍ من الممارس الطبي المنسق يفيد بأن مقدم الطلب يعاني مرضًا يتوقَّع أن ينتهي حياته في غضون ثلاث سنوات، وهذا هو كل المطلوب. ثم يقيِّم مجلس طبي فيدرالي الطلب، وإذا كانت الأوراق سليمة، تُمنَح الموافقة في غضون أسبوع. وبمجرد دفع رسوم الخدمة الباهظة، تتلقَّى ملف بي دي أف عنوانه "المضي قدمًا من الناحية النفسية"، إلى جانب قسائم إلكترونية لشراء الرايات والشمبانيا المخفضة، بعد ذلك، لا يتبقى سوى تحديد التاريخ.

قبل التعديل، كان كل شيء يطول: تعيَّن على طبيبٍ متخصصٍ أن يشهد أن المريض لم يتبقَّ له سوى ستة أشهر، إلى جانب الحاجة إلى وجود شاهدين، كما كان لا بد من وجود ثلاثة طلبات في المجمل، وهلم جرًّا، في شبكة من التعقيدات. وقد اختصر التعديل كل ذلك، لكن هذا لم يكن كل الفائدة التي جلبها فحسب، إذ إن الاقتصاد بدأ

ينتعش مع إنفاق المواريث، كما خفَّت حدة نقص المساكن، وأخبرتني شانيل أنه من المقرر افتتاح محرقة الجثث العاشرة في ملبورن العام المقبل.

أرسل إلينا برام الأوراق من دون المزيد من النقاش، وغيَّر موعد درس اليوجا الذي يحضره إلى درس مسائي، كما لم يعُد يتناول الإفطار مع شانيل، وعندما تتصل به، لا يرد. قلت لشانيل: "حسنًا، إنه غاضب منا، سوف يتخطى الأمر، وحتى إذا لم يفعل، فيمكنني التعايش مع هذا، أليس كذلك؟".

قالت شانيل: "إنه ليس غاضبًا منَّا، بل غاضب من نفسه. كان من الممكن أن يرفض التوقيع على الإقرار الطبي، وكان من الممكن أن يذهب إلى رجال الشرطة، ويعترف بالتهرب الضريبي ويخاطر بفقدان كل ما يعمل من أجله هنا، لكنه لم يفعل، والآن ها قد صار يعرف الحقيقة عن نفسه، ولن يتخطى ذلك أبدًا".

كان الإقرار الذي أرسله إلينا برام وثيقة نموذجية مختصرة يمكن تنزيلها من موقع وزارة الصحة بسهولة، وحيث إن التوقيعات الإلكترونية مصرح بها، لذلك لم يكن على برام سوى التوقيع وإرساله إليَّ، فطبعته مع نموذج الطلب الذي ملأته، والمكون من صفحة واحدة. وكل ما كان مطلوبًا بعد ذلك هو أن توقع آيفي النموذج، إلى جانب شخص ما ليكون شاهدًا لها.

لا يمكن للشاهد أن يكون مستفيدًا من وصية المريض، لذلك تطلَّب الأمر تفكيرًا دقيقًا. كانت ثوي، شريكة آيفي القديمة في لعب البريدج، هي الخيار الأول لشانيل. ذكَّرتني أن ثوي ترغب في التخلص من زوجها، مما بدا واعدًا بالنسبة إلينا، لكننا اكتشفنا أن زوج ثوي تُوفي أخيرًا، فصارت ثوي حرة للانتقال إلى تسمانيا. بعد ذلك، اقترحتُ كوستيا، اختصاصي الأقدام، فتساءلت شانيل عمَّا إذا

كان في وسعنا الاعتماد عليه. كان شابًّا، والشباب بشكلٍ عام يؤيدون التعديل، ولكن هناك استثناءات دائمًا. يرتدي كوستيا نظارات بإطارٍ فضي، وله قصة شعر مستديرة الشكل. وقد اشتبهت شانيل في كونه يعتنق آراء قديمة. تطلق عليه آيفي لقب "الفتى الجميل"، أما فانتا فتسميه "الشيطان". كانت تشعر بالغيرة بالطبع: الغيرة من مقصات أظافر كوستيا اللامعة، وشفرات الأمان لإزالة الجلد الزائد، والغيرة من يديه اللتين ترتديان قفازًا من اللاتكس وتحتويان بينهما قدمي آيفي المتورمتين. كانت آيفي تمتلك قرون استشعار تجس بهما الاضطرابات العاطفية، وتستغل ذلك لتسليتها. رأيتها تظهر لفانتا بطاقة لعب زلقة، وادَّعت أنها تظهر دائمًا عندما يحين موعد كوستيا: ولد القلوب، رجل أشقر الشعر، معجب شاب.

لا، لم يكن هناك سوى خيار واقعي واحد. بمرور الوقت، عرفنا الكثير عن فانتا. يخبرها عقلها المضطرب أنها لو لم تكن بعيدة عن قريتها في ذلك اليوم المشؤوم، لساعد مجال القوى السحرية الذي يشع من جسدها البالغ من العمر عشر سنوات على تجنُّب الضربة الجوية. كما تنتابها أفكارٌ تدفعها إلى إيذاء النفس، لذا تذهب لزيارة طبيب نفسي، وتبتلع الحبوب التي يوزعها كالحلوى. ما الجدوى منها؟ فهي تعالج مشكلات العقل، بينما تعاني فانتا اضطراب الروح. ويتضح ذلك من خلال الارتجاف العشوائي، والصداع المفاجئ، والاضطرابات المعوية، والقيء العرضي. وبشكلٍ عامٍّ، شعرنا أننا محقُّون في افتراض أن فانتا ستتعاطف مع أي شخصٍ يرغب في إنهاء حياته بكرامة ويسرٍ. قالت شانيل: "الميزة الأخرى هي أنها لن تفهم ما ستوقِّعه، على الأرجح. على أي حالٍ، يمكننا وضع ورقة فوق بقية الصفحة، كما يفعلون مع الوصايا".

اخترنا عصر يوم أحد بني، بدت مستويات الدخان فيه مقبولة تمامًا. ذهبت آيفي وفانتا للتمشية جيئة وذهابًا في سبومانت كورت،

مرتديتين كمامات N95. أعدَّت شانيل كعكة مخملية حمراء، وبينما كانت تبرد على الرف، شرعت تمشي للخلف بطول الردهة (أخبرتني بأن هذا يطيل عضلات الفخذ).

واجهتُ بدايةً يومٍ مزعجة، فبعد قيامي من الفراش، أخرجت ساقي من أسفل اللحاف المنقوش برسوم سبايدرمان، ورأيت المنظر. انتشرت البقع البيضاء على قدمي اليمنى بأكملها، وفي الواقع، ظهرت بعض البقع البيضاء على ربلة ساقي أيضًا. وعندما استيقظت شانيل، وقفتُ بجانب فراشها، مشيرًا إلى ساقي. كانت رائعة، إذ مدَّت ذراعيها، وقالت: "على الأقل يمكننا العودة لمشاركة الفراش، لقد اشتقت إليك". بعد ذلك، أكدت لي أنني سأجد التغيير غير مؤلمٍ. أصيب ظهرها وكتفاها الآن، وكادت البقع تغطي فخذيها. استلقيتُ بجانب شانيل، وفكرت في تلك الفتاة في القطار، والبقعة التي تركتها على ساق سروالي. سألتُ شانيل إذا كانت تتذكر أن أي شخص تقيأ عليها، فقالت: "عليك أن تسترخي، بصراحة، لا أظن أننا يجب أن نقلق كثيرًا، بل على العكس، فأنا أشعر بمزيدٍ من ... حسنًا، أشعر أنني أكثر قوة مع انتشاره".

بدا وجهي عجوزًا ووجنتاي منتفختين طوال اليوم، فتجنبت المرايا التي أصرت على أن تظهر لي صورة خالي المُتوفَّى منذ زمن طويل. جرجرت الحجر الجاثم في صدري نحو النافذة، في انتظار عودة اللتين ذهبتا للتمشية، ووصلني صوت جهاز الاتصال الداخلي لأحد الجيران وسط الهدوء السائد في يوم الأحد. وبينما أنا واقف هناك، وجدت في حلقي غصة ناتجة عن محبتي لسبومانت كورت، بمنازلها المتطابقة التي تدعم مظاهر المساواة، والناس الشبعى الناعسين بالداخل، والسماء الشاسعة الطيبة التي تطل على حيواتنا غير الاستثنائية. عادت ذكرى أمسيات تعبق برائحة الليلك، والجمبري العملاق فوق الشواية، وأبراج الضغط العالي ظاهرة في الأفق كحراسٍ طيبين. كما

احتجَّ منشر الملابس والأبواب الجرَّارة بجودتهم وطبيعتهم العملية. لماذا سنرحل؟ لقد أنتج هذا الشارع المستوي غير الجذاب ولدينا الطوال، واستوعب هذا البيت أحزان عائلتنا وأفراحها. أردتُ سبومانت كورت، و"ذا كوفي سبوت"، والأزيز المطمئن المنبعث من الطريق السريع لبقية حياتي.

سارت شانيل إلى الخلف وأتت إلى المطبخ وهي تنادي قائلة إن جافينا أنزلت منشورًا جديدًا على فيس بوك. نعم، بمجرد توقيع عقد "برايم كت"، صارت شانيل وجافينا صديقتين على فيس بوك. رأينا كريجلز يمارس اليوجا، متخذًا وضعية الآلهة في مكانه المفضل، وجافينا تقرأ "الكتاب الصغير للرأسمالية الواعية". عدت إلى المطبخ ورأيت التوأمين في عيد ميلادهما السادس عشر، مرتديتين قميصين قطنيين متطابقين، كُتب عليهما: "مرحبًا بنيك كيف".

انفتح الباب الأمامي، واختفت آيفي في حمامها. بدت فانتا ميالة إلى الوقوف بجانب الباب، منتظرة مثل الحصان، فمددت رأسي إلى الردهة، وقلت: "لدينا كعكة هنا، مخبوزة للتوِّ، لا تقلقي بشأن آيفي، ستتأخر لبعض الوقت".

قالت فانتا: "أعرف هذا"، وقد انزعجت من الإيحاء باحتمال وجود جانب من حياة آيفي لم تطلع عليه. لكن رائحة الكعك اجتذبتها إلى المطبخ، وقدمت لها شانيل قطعة ضخمة. جزَّت فانتا شعرها حديثًا، واستبدلت ثيابها الشبيهة بملابس النوم، فارتدت بدلًا منها ما بدا أشبه بخيمة بلون مياه المرحاض الزرقاء، ولها أزرار من الأمام، وأكمام طويلة فضفاضة. وعندما رفعت نفسها فوق مقعد البار، انفتحت الخيمة من الأسفل كاشفة عن ركبتين كالصخور، تحتهما قدمان حبيستان داخل حذاء من الجلد الطبيعي برقبة مرتفعة. دومًا ما ترتدي فانتا أفضل ما لديها للذهاب إلى الكنيسة في يوم الأحد.

وكان الحضور إلزاميًّا للمسلمين السابقين، ويخضع للتتبُّع عبر أحد التطبيقات. قالت آيفي إن فانتا تشاهد مقاطع يوتيوب على هاتفها المحمول خلال القداس، لكن المطلوب منها هو الطاعة، لا الإيمان. وكانت الكنيسة مستنيرة، حيث يرتدي قسٌّ مبتسم سترة زرقاء داكنة، وقد تخلَّت الكنيسة عن كل ذلك الإصرار القديم على الخطأ والصواب، وحلَّ محله درس إيجابي واحد: كلما ازداد الدخل، اقتربنا من الرب. لكن الجانب السلبي هو أنهم يشجعون فانتا على تحويل مبلغ شهري من حسابها المصرفي إلى حساب القس. وفي المقابل، تحصل على خصم على جميع ألبومات أغاني جاستن بيبر التي يؤديها آخرون، والمتوفرة حصريًّا على موقع الكنيسة على الإنترنت خلال الشهر الأول من إصدارها.

عرضتُ عليها قائلًا: "قهوة مثلجة؟"، ووضعتُ كوبًا طويلًا على الطاولة، وأضفتُ ملعقة رابعة من آيس كريم الفانيليا. رفعت شانيل نفسها على مقعدٍ من دون ظهرٍ بجانب فانتا، واستندت أنا إلى غسالة الصحون بشكلٍ عرضي. وعلى الطرف الآخر من الطاولة، قبع نموذج الطلب داخل ملفٍّ بلاستيكي، مقلوبًا نحو الأسفل. لمست شانيل البلاستيك برفقٍ، وقالت لفانتا: "هناك شيء يجب أن توقع عليه آيفي، مجرد واحد من تلك النماذج الرسمية، لكنها تحتاج إلى شاهدٍ، لذلك تساءلنا عما إذا كنتِ ... ما رأيك في الكعكة؟".

قالت فانتا شيئًا ما، لكنه خرج غير واضحٍ بسبب الآيس كريم. انتظرنا بابتسامات صبورة، وفي النهاية سمعنا: "هل هو تعديل؟".

قلتُ بنبرة هادئة مبتهجة: "إنه هو بالفعل، هل أطلعتك آيفي على الموضوع؟ كان لطفًا بالغًا من برام، أن يقترح اتخاذ هذا المسار. من المهم الأخذ بالمشورة الطبية المتخصصة، أليس كذلك؟".

قالت فانتا: "آيفي أخبرني بكل شيء دائمًا". لعقت ملعقتها، فرفعت شفتها العلوية، وظهرت أسنانها بيضاء ومتساوية مثل أسنان المشاهير أو أبناء أطباء الأسنان. وبما أن فانتا لم تكن من أيهما، فلا بد أنها كانت أسنانًا صناعية، واصلت الحديث: "أنتم لا تريد آيفي، أنا أعرف".

قالت شانيل: "أنت مضحكة للغاية، يا فانتا! من أين لك هذه الفكرة؟".

قالت فانتا: "أنا أوقع، لأن آيفي تريد، هي تعاني ألمًا شديدًا هنا"، ضربت صدرها بقبضتها الضخمة، وتابعت: "ما أجمل أستراليا! آيفي تستطيع أخذ تعديل. بلدي، يعاني الناس فقط هذا الألم، وأوضاع الحرب، هذا الألم يشبه تحول عالم إلى لون برتقالي، وغرفة تدور".[1]

دخلت آيفي المطبخ وهي تعدل سروال بذلتها الرياضية، قائلة: "لا جدوى من الأمر، لا أعرف حتى لماذا أجشم نفسي عناء المحاولة، فقد ظهرت لي بطاقة اثنين السباتي هذا الصباح، مما يعني عقبات تعترض النجاح. ما الذي تلتهمينه هناك، يا فانتا؟". غاصت في الأريكة بغرفة المعيشة، ومال رأسها إلى الوراء وغرقت في النوم على الفور تقريبًا. اعتادت فانتا وضع أمشاط في شعر آيفي، لإبعاده عن وجهها. جعل النوم وجهها ناعمًا وممتلئًا، وبدا كما يظهر في الصورة التي ترتدي فيها الفستان الأزرق، وكما يبدو الأموات حديثًا، على حد قول الناس.

تجرَّعت فانتا آخر ما بقي من قهوتها، ورفعت آيفي رأسها فجأة وهي تصدر شخيرًا، ثم مسحت فمها بكفِّها، وبطرف عيني، لمحت شانيل تمد يدها نحو النموذج.

***

(1) الإشارة هنا إلى كلمات أغنية "بالاد لوسي جوردان"، التي تصف آلام البطلة وتدهور حالتها العقلية، "حتى يتحوَّل العالم إلى اللون البرتقالي، وتدور بها الغرفة".

وقع تطور مرعب في العمل الأسبوع الماضي: في يوم الخميس، وصلت رسالة بريد إلكتروني من الوزير نفسه، يبلغ فيها الإدارة بأكملها انكشاف خرق أمني، وبالتالي، تم تعيين فريق تحقيق خارجي لفحص ملفات قضايانا، والتحقق من النتائج التي توصلنا إليها على مدار السنوات السبع الماضية، وإذا ساور أي شخص أدنى شكٍّ بوجود نشاطٍ غير اعتيادي داخل القسم، فعليه الإبلاغ عن الأمر بسرية باستخدام رقم الهاتف المُقدم.

كل ما رأيته هو اسم برام على جدول البيانات، كما رأيت أصابعي على لوحة المفاتيح، واسمه يتغيَّر من الأصفر إلى الأبيض، وبعد ذلك: "احترس، احترس". مرَّ ليريك، ودخلوا مكتب روس. خفضت عيني، وانتظرت الاستدعاء، وشربت بعض الماء من الزجاجة على مكتبي.

دار الهمس باقي اليوم، بخصوص من وماذا ولماذا. لعبتُ "اضرب مُلًا" قدر استطاعتي، وفي الثالثة، ظهر روس بجانب مكتبي. بدا عليه الانفعال، وقد ضاقت عيناه حتى صارتا شقَّين أزرقين في وجهه، وقال: "لقد أرسلت إليك بعض الأشياء، يا صاح، يجب أن أعود إلى المنزل، تلك المربية القادمة من جورجيا جاهلة للغاية، إلى درجة أنني أفتقد المولدوفية".

أجبته: "لا بد أن ذلك شاقٌّ للغاية، لكن من فضلك، لا تقلق بشأن العمل، اترك لي كل شيء".

لانت ملامحه، وقال: "شكرًا لك على ذلك، إنها الفرصة الأخيرة التي سأتمكَّن من الإفلات فيها. هل تصدق أن فريق التحقيق اللعين هذا سيصل في الساعة الثامنة غدًا؟ ومن المتوقع أن أكون هنا، ولا علاقة للأمر حتى بقسم التقييم، فقد ضُبط وغد ما من الأمن وهو يتلقى رشوة، فصار القسم برمته في مأزق".

هل سيتوسط روس لي لدى صهره، إذا انكشف تلاعبي في إعادة الترميز؟ هل سنُعفى من العودة القسرية إلى الوطن؟ اشتعل الأمل وخبا وأنا أعمل على ملفاته حتى وقتٍ متأخرٍ من المساء. ذكَّرت نفسي أن هناك مئات، بل آلافًا من القضايا التي يعاد ترميزها في قسم التقييم كل عام، إذ إن طبيعة مهمتنا تقتضي التقييم وإعادة التصنيف. سيعطي التحقيق الأولوية لتهديدات الأمن القومي، لكن هل سيهتمون حتى بالتهرب الضريبي؟ كنت أشعر بالثقة في لحظة، ثم أعود لأتصبَّب عرقًا في اللحظة التالية. لم يكن على ليريك سوى إدخال رقم إلى هاتفهم، والقول: "ربما لا يكون للأمر أهمية، لكن هناك رجلًا يستخدم كلمة مرور روس". اهتزَّت ركبتي من تلقاء نفسها. كانت البقع قد غطَّت معظم ساقي اليمنى حينها، وتطور فقدان التصبغ بسرعة أكبر كثيرًا مما حدث مع شانيل، لكن الأمر لم يشعرني بالقوة على الإطلاق، بل أحسستُ بالخوف فحسب.

تمتد أشرطة عريضة مصنفرة عبر الجدار الزجاجي المواجه لقاعة الاجتماعات الرئيسية، وفي صباح يوم الجمعة، ظهرت هناك خطوطٌ أفقية لثلاثة غرباء اكتسوا باللون الرمادي، ولهم وجوه رمادية. خرج ليريك فور وصولي، وتلاقت نظراتنا، وارتعشت نظرتهم. ربما كان ذلك يعني شيئًا ما، أو ربما كانت مجرد طبيعة عينيهم. عاد لون الأوبال هذا الأسبوع، فأومض وجههم باللونين الوردي والأخضر.

في الخارج، سرت موجة حارة، كان من المتوقع -مرة أخرى!- أن تحطم كل الأرقام القياسية. تساقط الرماد وأوراق الشجر المتفحمة، مما يعني أن الحرائق القديمة ازدادت اشتعالًا، واندلعت حرائق جديدة في ضواحي المدينة. طوال اليوم، دار في رأسي شخصٌ يصرخ ويدبدب بقدميه، مرتديًا حذاءً بمسامير حديدية. بدا إغراء التحجج بالمرض والرحيل في وقت الغداء لا يقاوم، لكنني قاومته، لأن الأمر سيبدو

مريبًا. كنَّا أنا وشانيل سنأخذ إجازة في الأسبوع المقبل، وتساءلتُ عمَّا إذا كان عليَّ إلغاء إجازتي.

حينما حلَّت الساعة الخامسة، لم أعُد أستطيع التحمُّل أكثر من ذلك. وعندما غادرت مكتبي، نادى ليريك: "إجازة سعيدة!"، وكررها الآخرون: "إجازة سعيدة، إجازة سعيدة". بدا الأمر كأنه استهزاء. تمكَّنت من الإجابة قائلًا: "شكرًا جزيلًا، لن أنعم بكثيرٍ من الراحة والاسترخاء، على ما أخشى، فلديَّ أشياء عليَّ الاعتناء بها في المنزل، كما تعلمون".

***

"إجازة سعيدة". إنه يوم الاثنين الآن، ولا تزال عبارة "إجازة سعيدة" تتردد في أذني. خلال عطلة نهاية الأسبوع، سألتني شانيل لماذا ظللت أهز رأسي، لكن ذلك لم يجدِ على أي حالٍ، إذ لم أستطع التخلُّص من صوت ليريك. "إجازة سعيدة": بدا لها وقعٌ خبيثٌ. هل كان ليريك يعلمون أن هذا الأسبوع لن يجلب أي إجازة ولا أي سعادة بالنسبة إليَّ؟ هل ستصلني رسالة تأمرني بالعودة إلى القسم في الحال؟ على طاولتي في "ذا كوفي سبوت"، ظللتُ أغلق هاتفي وأفتحه مرة أخرى. قالت شانيل إنه لو كان ليريك يعتزمون الإبلاغ عني، لفعلوا على الفور. لكن ربما كان ليريك يخططون لتركي آخذ إجازتي، قبل الإبلاغ عني يوم الاثنين المقبل، عقب عودتي. لكن من جهة أخرى، كان هناك سبعة طيور عقعق هذا الصباح: سبعة لسرٍّ لا يُباح به البتة. تشجعت وفتحت هاتفي، فبدأ في الأزيز على الفور، وواصل أزيزه بإصرارٍ، حتى أغلقته ثانية.

الجو أكثر برودة بكثيرٍ اليوم، وإذا صحَّت التوقعات الجوية، فسوف تحظى آيفي بجوٍّ مثالي غدًا. لدينا الكثير لننجزه مع كل التجهيزات

المطلوبة، لكن شانيل طردتني من المنزل في التاسعة. قالت إن التمرين سيريحني، لذلك جئت إلى هنا. عند مروري بصالة التمرينات، رأيت إشعارًا على الباب بخصوص "اللعاب"، وتعجبت مفكرًا أن الصالات الرياضية قد تنوعت حقًّا في أنشطتها، قبل أن أدرك أن الكلمة هي "الألعاب". لم يكن الوضع في العمل فقط هو ما يوترني، لكنني اكتشفت هذا الصباح بقعة شاحبة على مرفقي الأيسر. نخفي أنا وشانيل مشكلتنا في الوقت الحالي، لكن ماذا سيحدث إذا امتدَّ الأمر إلى وجهينا وأيدينا؟ ستتصل شانيل بموظفة استقبال تشينج كي تصرَّ على موعدٍ لي عبر برنامج زووم هذا الأسبوع، ولكن ما جدوى ذلك؟ وقع أطباء الأمراض الجلدية والمختبرات حول العالم في حيرة، وقال تشينج: "جميعهم يرجعون إليَّ بنفس النتيجة: إن فقدان التصبغ هو الاختلال الوحيد الذي يمكنهم العثور عليه، وفيما عدا ذلك يشير كل شيء آخر إلى بشرة عادية وصحية".

ستخرج شانيل طوال اليوم: مهمات، وتدليك، ومصفف الشعر، وصالون الأظافر، وعيادة العناية بالبشرة، وستكون محطتها الأخيرة بائع الزهور. لم تكن الزهور لتخطر ببالي، لكن لطف شانيل لا حدود له. عندما تعود إلى المنزل، ستفرغ مزهرياتنا من أزهارها الصناعية، وتملأها بزهور النرجس والورود والزنابق والفاوانيا المبالغ في تقديرها: كل ذلك الإسراف العَطِر للمال الذي تتوق إليه آيفي.

في المنزل، كانت فانتا مسؤولة عن آيفي، وصلت مبكرًا وهي تحمل الفستان الوردي الذي التمع داخل الغلاف البلاستيكي للتنظيف الجاف، وبدت عينا فانتا بنفس لون الفستان. لا بد أنها أخذت تبكي مرة أخرى. ضُبط قياس الفستان علاوة على تنظيفه، وسيكون مناسبًا تمامًا عندما ترتديه آيفي لمناسبتها السعيدة. بينما كنت في طريقي للخروج، سمعتُ فانتا تؤكد لها: "تبدين رائعة للغاية!".

سيتجمع حشدٌ كبيرٌ غدًا، إذ كانت آيفي تريد حفلًا، وكما قالت شانيل: "لمَ لا؟"، فليس لدينا ما نخفيه. أعدَّت آيفي قائمة بالمدعوين، واتصلنا بكل من على القائمة، فأعربوا جميعًا عن دعمهم لقرار آيفي وإعجابهم بشجاعتنا. سيأتي أشخاص من مجموعتها القديمة للمشي، بالإضافة إلى العديد من أعضاء مجموعة الرقص لكبار السن. كما ستأتي ثوي في رحلة طيران مبكرة من هوبارت، وستستقل تلك الفتاة من بنك الطعام قطارًا من بالارات، بعد أن استقرت في مخزن هناك عندما دفعها ارتفاع الإيجار في منشأة التخزين في ملبورن إلى الرحيل.

أرادت آيفي إبلاغ ميل بأنها ستأخذ بالتعديل، كي تحضر ميل ودين مناسبتها السعيدة عبر زووم، فاضطررنا إلى أن نوضح لها أن المشاعر القوية يمكن أن تزعزع استقرار ميل، التي انشغلت بمشروعها النهائي المهم، الذي تقوم فكرته على إعادة تخيل كاتدرائية شارتر، وهي تعمل على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع على تصميم مبتكر حقًّا لمركز تسوق متعدد الطوابق.

بعد ذلك، لم يبقَ سوى سيدني، وناقشنا أنا وشانيل خياراتنا. في وسعنا إرسال رسالة إليه من خلال أستريد، لكن من المؤكد أن سيدني سيكون ضد التعديل، لأنه يعارض الحكومة من حيث المبدأ، ومن المرجح أن تشاركه جماعته آراءه. وقد يشعرون جميعًا بأنهم مضطرون إلى السفر إلى ملبورن معًا، واغتنام الفرصة لهزّ العشب. تخيلنا أنا وشانيل مجموعة من الخيام في سبومانت كورت، وقد تنبَّه للموضوع وسائل الإعلام والمعارضون من العاملين في مجال الرعاية الصحية، واللافتات والكاميرات عند كل نافذة. سيجلس سيدني بجانب آيفي، ويحكُّ نفسه وهو يتكلم، وسيضفي بطء حديثه المثير للجنون وزنًا لكلماته، ومن الممكن تمامًا أن تغير آيفي رأيها لإرضائه فحسب.

في النهاية، قدمنا نفس السبب لعدم دعوة سيدني كما فعلنا مع ميل: قلنا لآيفي إن الأمر سيكون مؤلمًا للغاية. قالت شانيل: "أنت تعلمين أننا جميعًا نحبك كثيرًا، لكن سيدني هو أكثرنا رهافة، ويمكن أن تؤثر فيه مناسبتك السعيدة بشدة. وقد اقترب للغاية من الحصول على الدكتوراه، ولا تريدين تعريضه لأي مجازفة، أليس كذلك؟". فكرت آيفي في ذلك، وقالت: "يمكننا تأجيل كل شيء حتى ينتهي من دراسته"، لكنها بدت مترددة، وحينها خطرت لي فكرتي الرائعة.

اقترحت قائلًا: "لنصور كل شيء بكاميرا الفيديو، كل دقيقة، من البداية حتى النهاية، ويمكن أن يشاهده الولدان حينما يكون الوقت مناسبًا. يمكنك البدء بتوجيه رسالة إلى كلٍّ منهما، وسيشكّل هذا تذكارًا خاصًا للغاية".

سُرَّت آيفي باقتراحي، إذ لاقى قبولًا لدى غريزتها المسرحية، فأمضت الأسبوعين الماضيين في كتابة رسائلها الأخيرة للولدين وحفظتهم عن ظهر قلب. كما حفظت أيضًا الخطاب الذي ستلقيه في حفلها. جفلتُ عندما قالت إنها ستلقي خطابًا. "لا تضيع البطل الكامن في روحك". لكنه لم يكن شيئًا من ذلك القبيل، بالطبع. ستلقي آيفي مونولج الفستان الأزرق، وتريد أن تتدرب عليه هذا المساء. ستنشغل شانيل بطهي الوجبات الخفيفة التايلاندية ليوم غدٍ، لذا سيقع على عاتقي سماع آيفي وهي تلقي سطورها، وسأضطر إلى تحمُّل الأمر برمته مرتين. ستستند إلى وسائدها، ويداها مضمومتان، وتنطلق في الإلقاء: "فكروا فقط في طفح تلك المراحيض!". بروفة للتدريب. عندما سمعتُ أنها ترغب في ذلك، أدركتُ أن الأمر برمته كان مجرد لعبة بالنسبة إلى آيفي في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كان حلمًا، وأحيانًا كانت هذه هي... الحياة.

لـن يشـاهد الولـدان الفيديـو أبـدًا، بـكل تأكيـدٍ، بـدلًا مـن ذلـك، سـنقدم لهـما أنـا وشـانيل حكايـة لطيفـة، وسـنقول: "توقـف قلـب آيفـي عـن الخفقـان، وماتـت بسـلامٍ في أثنـاء نومهـا، مـن دون معانـاة، وانتهـى الأمـر عـلى نحـوٍ سريـعٍ وهـادئ للغايـة".

وسـتكون هـذه هـي بالحقيقـة. سـتبدأ مناسـبة آيفـي السـعيدة بتجمُّـع الجميـع في الردهـة، وسـيُقدَّم الطعـام والنبيـذ، وسـيحين الوقـت كي تتألـق آيفـي. سـتلقي بسـطورها مـن مكانهـا عـلى الأريكـة، وبعـد ذلـك قـد يشـعر النـاس بالرغبـة في إلقـاء خطابـات عنهـا. قـد تناقـش ثـوي إسـتراتيجيات آيفـي في المزايـدة، كـما أن نيـلا، إحـدى أعضـاء مجموعـة الرقـص، لم تتمكَّـن مـن الحضـور لتضـارب الموعـد مـع مناسـبة سـعيدة أخـرى تعـيَّن عليهـا حضورهـا، لكنهـا أرسـلت رسـالة تريـدني أن أقرأهـا، تقـول فيهـا إن آيفـي تحـب المكاديميـا، والهدايـا الملفوفـة بطبقـاتٍ مـن الـورق الملـون، والمعـادلات التربيعيـة. هـل يمكـن أن يكـون أيٌّ مـن هـذا صحيحًـا؟ لم يكـن لدينـا أدنى فكـرة أن آيفـي تحـب هـذه الأشـياء. ربـما كانـت نيـلا تتحـدث عـن نفسـها.

عقـب الانتهـاء مـن الخطـب، سـنشرب نخـب آيفـي للمـرة الأخـيرة، وسـيكون بـرام قـد وضـع منومًـا في كأسـها، وسـتبدأ فانتـا في النشـيج، وهـو مـا يتعـارض تمامًـا مـع أصـول اللياقـة. أيـن شـعورها بالبهجـة؟ سـتبكي قائلـة: "الـوداع، سـعدت جـدًّا بمقابلتـك"، وسـتضطر شـانيل إلى دفعهـا إلى المطبـخ. بعـد ذلـك، ستشـعر آيفـي بالنعـاس وسيسـاعدها بـرام للذهـاب إلى غرفتهـا. يمكـن لأي طبيـب، أو حتـى ممرضـة مسـجلة، العمـل كمقـدم خدمـة في المناسـبة السـعيدة، ولكـن آيفـي أصرَّت عـلى بـرام بالطبـع. وعندمـا تنعـس في فراشـها، تحـت أنظـار جـوان يـين، ويسـوع، وبـوذا، وربمـا حتـى قـوس قـزح، سـيعطيها بـرام حقنـة يتوقـف قلبهـا عـلى إثرهـا.

بعد ذلك، ستقدم شانيل القهوة والشوكولاتة. سأبذل قصارى جهدي لأتمالك نفسي، لكن قد أكون متأثرًا بشدة بدرجة تمنعني من تقديم المساعدة. وستمسح فانتا عينيها قائلة: "ما أجمل أستراليا!"، ثم سيرحل برام. كل شيء واضح حتى تلك النقطة، ثم تأتي مرحلة ما بعد آيفي. وقد اكتشفتُ اليوم أن ما بعد آيفي لا يتعلق بالوقوف في الصف، بل هو مجرد فراغٍ. حاولت تخيل ذلك، لكنني فشلت، مما جعلني أفكر في احتمالٍ رهيبٍ: ماذا لو اختفى مستقبلي مع آيفي؟ إنها ليست فكرة منطقية، لكنها أصابتني بالقلق الشديد، إلى درجة أنني فكرت حتى في إرسال رسالة إلى برام: "من فضلك، أوقف كل شيء الآن!". بعد ذلك، سآخذ آيفي، وسنرحل سريعًا بالسيارة، وسترشدني إلى منزلٍ بجوار بحيرة جبلية، حيث سنعيش نحن الاثنان إلى الأبد.

جلبت لي دلما للتوِّ بريوش توت كبير الحجم، وثالث كوب لاتيه لهذا الصباح. شربت قهوتي وأنا أفكر: "تشجع، يا لايل!"، واستجمعت كل قواي للتركيز، وحاولت التفكير مرة أخرى في مرحلة ما بعد آيفي، لكن الأمر تكرر ثانية: بمجرد أن حاولت تخيل المستقبل، انزلق عقلي إلى الماضي.

على سبيل المثال، عندما استيقظنا البارحة، قالت شانيل: "قد ترغب آيفي في الذهاب في جولة بالسيارة هذا الصباح". انتابني الفزع، إذ كان لا يزال هناك متسعٌ من الوقت كي تتفوَّه آيفي بشيء غريب: "اللحظة التي احتضنتك فيها لأول مرة". لم أرغب بأي حالٍ من الأحوال أن أصبح محاصرًا معها داخل سيارة. قلت لشانيل: "إنها فترة صعبة للغاية بالنسبة إليَّ".

"سأكون موجودة هناك".

"لكنه يوم تمرين الملاكمة!".

ضغطت يدي، وقالت:

مكتبة
t.me/soramnqraa

"يمكنني تفويت يوم واحد".

ساعدت الاستعدادات لمناسبتها السعيدة على بثِّ الحيوية في آيفي خلال الأسابيع الأخيرة، لكننا وجدناها مرتمية وفي حالة من الاكتئاب عندما توجهنا إلى الطابق السفلي. بدت شاحبة رمادية البشرة، وفي وسع أي شخص أن يرى تأثُّرها بحالة الجو. هذه ملبورن، وقد بلغت درجة الحرارة ثلاث وخمسين درجة بالخارج، ونثرت الريح في الفناء خلال الليل غبارًا ورديًّا ناعمًا. لكننا جميعًا اضطررنا إلى التكيُّف مع فصول الصيف الجديدة التي صارت عادية الآن، وإلا كيف سيصبح الحال إذا سمحنا لمجرد الطقس بمنعنا من مواصلة الحياة؟

دخلت شانيل غرفة آيفي لمساعدتها على ارتداء ملابسها، ولمحاولة رفع معنوياتها. شاهدتُ على هاتفي إعلاناتٍ لأنظمة الأمن المنزلية، وكان هناك إعلان صار فيه التعليق الصوتي مخيفًا وهادئًا فجأة، وسمعتُ شانيل تقول: "... انقطاع تام للرجاء".

عندما دخلتْ المطبخ، سألتها: "ما الذي كنت تفكرين فيه؟ لماذا أطلقت عليه ذلك؟".

"أطلقت ماذا على ماذا؟".

"التعديل، لقد وصفته بأنه انقطاع للرجاء".

نظرت إليَّ شانيل بتعجبٍ، وقالت: "انقطاع الكهرباء، إنهم يحذرون من أن كل أجهزة التكييف ستتسبَّب في الانهيار التام لشبكة الكهرباء اليوم. كنت أخبر آيفي أننا سنكون أفضل حالًا في السيارة". ثم ناولتني أنبوبًا من الكريم الواقي من الشمس بمعامل حماية 102، وقالت: "لا تنسَ".

ارتدينا أقنعتنا الواقية من الدخان، ووضعنا القطرة المرطبة للأعين، ثم أدخلنا آيفي في السيارة. تولَّت شانيل القيادة، لذا جلستُ في أمان

نسبي في المقعد الخلفي. تظاهرتُ بالنوم، في حال ما إذا رغبت آيفي في التحدث إليَّ. بعد بضع دقائق، فكرتُ في شيء، وفتحت عيني، لكن بعد فوات الأوان. فاتتني الفرصة لتوجيه شانيل عبر طريق براندیفینو الملتوي، بعيدًا عن محرقة الجثث. لاحت أمامنا بالفعل الأشجار الكائنة عند المدخل، وأدارت آيفي رأسها إلى النافذة. لا بد أنها مرَّت بهذا المكان مئات المرات في الحافلة. هل نظرت إليه بثباتٍ، أم أشاحت بعينيها بعيدًا؟ بدأ تأثير التكييف يظهر، فرفعت آيفي يدها ورفعت ياقة قميصها، واستدعى ذلك صورة لورنا، وهي ترفع ياقة سترتها. كانت عينا لورنا زرقاوين، لكن عندما خرجت من القسم في ذلك اليوم تحوَّلت عيناها إلى اللون الأسود. أردت الصراخ في آيفي: كان الأخذ بالتعديل قرارك أنت! لماذا لم ترفضي؟ تركنا محرقة الجثث خلفنا، والتفتت آيفي بعيدًا عن النافذة، وبدأت أصرخ داخل قلبي.

بعد فترة، أغمضت عيني مرة أخرى. سرعان ما خلصتُ إلى أنه لو لم تمنع وصية زوج والدتي آيفي من التصرف في منزلها، لباعته قبل مجيئها إلى أستراليا، ولصار كل شيء مختلفًا اليوم. في جنازة زوج والدتي، شرب زوج شقيقتي، الذي لا يحبه أحد، زجاجة من الويسكي، وقال لي: "أعتقد أن العجوز لم يرغب في أن تبيع والدتك المكان، وتسلمك المال". تجاهلته حينها، ذلك الأحمق المخمور، لكنني اكتشفت بريق الحقيقة في كلماته الآن. نظرًا إلى معرفته بطبيعة آيفي، لا بد أن زوج والدتي خشي أن تمنح المنزل لأول لصٍّ يطلب منها ذلك. وعند التفكير في الأمر برمته على هذا النحو، تمكنتُ نفسيًّا من المضي قدمًا، إذ إن كل شيء كان خطأ زوج والدتي.

اتجهت شانيل إلى الساحة المقابلة للماء، والمخصَّصة لانتظار السيارات. لم يكن هناك سوى سيارة واحدة أخرى في موقف السيارات، ولم يكن هناك أي شخص على الإطلاق على الشاطئ أو رصيف الميناء. ظلَّ منظر السماء أشبه بوسادة متسخة، لكن الضوء لم يعُد غائمًا

بنفس القدر. أظهرت الشاشة الموجودة على لوحة القيادة أن الحرارة قد انخفضت تسع درجات، ففتحت شانيل نافذتها بقدرٍ يكفي لتمدَّ يدها، وقالت: "تغيَّرت الريح". جلسنا مرتدين أقنعتنا والتكييف يعمل، وكان الأمر رائعًا وهادئًا حقًّا.

أصدر هاتف شانيل أزيزًا، فقرأت الرسالة، وقالت: "أوه، لقد قدَّم دين لميل هدية تؤكد قوتها وتحتفي بها". صدر أزيز آخر، فقالت شانيل: "انتظر"، ثم ناولتني هاتفها. تأمَّلتُ الصورة: اختار دين هديته بعناية، وانتقى بندقية طويلة وسوداء، تتماشى مع شعر ميل.

مدَّت آيفي يدها لتتناول الهاتف، لكن لحسن الحظ وصلتنا نغمة مألوفة، على نحوٍ خافتٍ في البداية، لكنها ازدادت ارتفاعًا. قالت شانيل، بينما وضعتُ هاتفها في جيبي: "شاحنة الآيس كريم! لن أمانع بعض الآيس كريم، أليس كذلك، يا آيفي؟".

توقفت الشاحنة عند الطرف البعيد من موقف السيارات. ترجَّلتُ من السيارة، لكن الزوجين اللذين كانا في السيارة الأخرى سبقاني إلى الشاحنة. اضطررت إلى الوقوف هناك، ورفع قدمي حتى لا يلتصق نعل حذائي المقاوم للأشعة فوق البنفسجية بالأسفلت، بينما غيَّرا رأيهما بشأن ما سيشتريانه. عندما رحلا أخيرًا، طلبت ثلاثة أقماع من الآيس كريم. لم أكد أصدق أن الشمس سطعت بمجرد وصول طلبي. سمعت شانيل تصيح: "لا!"، والتفتُّ لأرى آيفي تنزل من السيارة. توجهتُ نحوها، ووقفنا هناك دقيقة أو دقيقتين، والآيس كريم يقطر على مفاصل أصابعي، بينما أتأمل الماء. دومًا ما يفاجئني، ذلك السطوع المذهل للبحر.

***

انشغلتُ مؤخرًا بالتفكير في حكاية كانت ترويها آيفي. بعد فترة وجيزة من زواج والديَّ، قرر صديق لهما عالِم أنثروبولوجيا، أن يصنع فيلمًا عن قبيلة تسكن تلًّا نائيًا، ودعا والديَّ في الرحلة لأن والدي كان يفكر في كتابة مسرحية عن الحياة الريفية. كانوا خمسة في الرحلة: آيفي، ووالدي، وصديقهما، واثنين من طلابه أحضرهما معه للمساعدة في الفيلم.

سافروا بالسيارة إلى غابة حيث كانت الأشجار بطول الأبراج، وجذورها المتدلية أكثر سمكًا من أطراف الإنسان. وعندما وصلوا إلى جدولٍ صخري على حافة الغابة، أفرغوا السيارات، وعاد السائقون إلى منازلهم، بينما خيَّم الآخرون هناك خلال الليل، وفي فجر اليوم التالي، وصل الرجال المحليون ومعهم الجياد التي حملوها بالمعدات والطعام.

بدأت الرحلة الطويلة إلى القرية، وكان المشي سهلًا في البداية، على الرغم من الحرارة والحشرات، لكنه بات مرهقًا بدرجة متزايدة عندما أخذ الطريق ينحدر نحو الأعلى. عند أحد المنعطفات، تدلَّت جبال زرقاء أمام السماء، وصعدت الجياد المثقلة برشاقة، كما فعل الرجال الذين يقودونها. بات الهواء منعشًا، ومع حلول المساء صار فائق البرودة.

خيَّموا في الليلة الثانية أيضًا، في كهفٍ ضحلٍ تشكَّل من جرفٍ متدلٍّ. أصيب والدي ببثورٍ، فقأتها آيفي بإبرة. ثم أشعل الرجال الذين يقودون الجياد نارًا عند مدخل الكهف، وجلس الجميع حولها لتناول الطعام، بينما علا نداء طائر ليلي، بدا كامرأة تنعي أطفالها المفقودين، وقالت آيفي إنه أصابها بقشعريرة.

عندما انطلقوا في اليوم التالي، أحاط بهم ضبابٌ أصفر مؤلف من فراشات صغيرة لمدة دقيقة، ثم اختفى. حلَّ التعب على الجميع،

وصاروا ميَّالين للتذمر. لم ينالوا قسطًا كافيًا من النوم، إذ لم يتمكَّنوا من الاسترخاء على أرضية الكهف الصخرية. مرَّ اليوم، حتى تلاشت أصوات التذمر، ولم يعد هناك سوى وقع حوافر الخيول.

في وقتٍ متأخرٍ من العصر، وصلوا إلى وادٍ، وهناك، في مساحة خالية على أحد التلال، كانت القرية التي سيقيمون فيها. كان القرويون يعرفون عالِم الأنثروبولوجيا، ويتوقَّعون قدوم الزوار. خرج بعض الرجال للقاء المجموعة، ولم يبدوا مثل سكان السهول، إذ كانوا أكثر امتلاء، ووجوههم عريضة، ونمط لباسهم مختلف. تقدم أحدهم وحيَّا الجميع تباعًا. كان الزعيم، وابنه على وشك الزواج، وسيدور موضوع الفيلم حول حفل الزفاف، ولم يكن والداي يتحدثان اللغة المحلية، لكنهما انحنيا للجميع لإظهار حسن النية.

تم تسكين الوافدين الجدد في أرجاء القرية، ونزل والدي ووالدتي في منزل الزعيم، حيث خُصِّصت لهما غرفة داخلية بلا نوافذ، بعد طرد ساكنها المعتاد إلى منطقة معيشة الأسرة. التقيا بزوجة الزعيم وولديه: طفل صغير، وصبي يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا تقريبًا، وكان هو العريس، ثم قدمت سيدة عجوز للزوار مشروبات دافئة تشبه الشاي، لكنها موحلة.

لم تكد هذه الرسميات تنتهي، حتى تحدَّث الزعيم إلى عالِم الأنثروبولوجيا، مشيرًا إلى الخارج، وقد تُرجم ما قاله لوالديَّ لاحقًا. خططوا لعقد وليمة في ذلك المساء، وفي صباح اليوم التالي، تقرر أن ينطلق العريس مع كل رجال القرية للقاء عروسه، التي تقع قريتها وراء الجبال، على الجانب البعيد من الوادي الضيق. وستنطلق جماعة العروس في نفس وقت خروج العريس ومرافقيه، بحيث تلتقي المجموعتان في منتصف الطريق. بعد ذلك، سيصطحبون العروس

ورفاقها إلى قرية العريس، حيث ستُعقَد المزيد من الولائم، ثم تُجرى مراسم الزواج في اليوم التالي.

لكن وصلتهم أخبار من قرية العروس ظهرًا: على الرغم من كونه موسم الجفاف، فإن السماء على الجانب الآخر من الجبل كانت تهدد بهطول الأمطار. وعندما وصلت آيفي والباقون، تكوَّنت السحب فوق وادي العريس أيضًا. وخلال فترات المطر، لم يكن من الممكن عبور الطريق الموصل بين القريتين، لذا سيتعيَّن تأجيل الزفاف، وقبل تقديم وجبة العشاء، سقطت القطرات الأولى.

هطل المطر طوال يومين، وفي بعض الأحيان كان يخف لمدة ساعة، لكنه لم يتوقف تمامًا، وسرعان ما عاد للانهمار بغزارة مرة أخرى. لم يكن هناك شيء يفعله والداي سوى تناول الطعام والقراءة ولعب الورق، ولم يمانع عالم الأنثروبولوجيا هذا التأخير. فقد استغل الوقت لتصوير مقابلات مع القرويين، وأخذ يتنقل بين منازلهم المنخفضة مع مساعديه كلما سمحت الأمطار.

كانت المرأة العجوز عمة الزعيم، وارتدت في ذراعها المغضن سوارًا مصنوعًا من البذور. بدا عمرها لغزًا، لكن الجميع كانوا يعلمون أنها لم تتزوج قطُّ. وحينما لم تكن منشغلة بالأعمال المنزلية، اعتادت الجلوس بجانب آيفي، متكئة عليها للتحديق إلى أوراق اللعب أو في كتابها. كما اعتادت في كل صباح أن تمشط شعر آيفي وتجدله، وكانت تضحك كثيرًا، وتحب مداعبة وجه آيفي.

في مساء اليوم الثاني، عندما جلسوا لتناول الطعام، توقف المطر، فجأة هكذا، كما لو أن شخصًا ما أغلق صنبورًا، وقال الزعيم إنه إذا سطعت الشمس في اليوم التالي، فإن الطريق بين القريتين سوف يجف بدرجة كافية ليصبح آمنًا. وإذا حدث ذلك، ستُقام الوليمة الأولى

في المساء التالي، ثم ستبدأ احتفالات الزفاف وينطلقون في رحلتهم في اليوم الذي يليه.

ساد الشعور بالإثارة خلال الوجبة في تلك الليلة، وتحدث الجميع في نفس الوقت. رُفِعت الأواني الفارغة، عندما أشارت السيدة العجوز إلى الباب وتحدثت. كان على الجميع، باستثناء آيفي، المغادرة. يمكنهم الانتظار في الخارج، أو زيارة منزل آخر، إذ لم تكترث العجوز بذلك، فقد كان لديها ما تقوله لآيفي وحدها.

كان الجميع في حالة من البهجة، وهي أكبر امرأة في القرية، لذا فعلوا كما طلبت عن طيب خاطر. وعندما أُغلق الباب خلف آخر شخص، أشارت العجوز إلى آيفي بالدخول إلى الغرفة الداخلية. بقيتا هناك لمدة ربع ساعة، وطوال ذلك الوقت، ظلّت العجوز تنظر إلى وجه آيفي وتتحدث إليها بجدية، وفي النهاية، خلعت سوارها المصنوع من البذور الحمراء، ودفعته فوق أصابع آيفي، ولفّته حول معصمها.

عندما سُمح للآخرين بالعودة إلى الداخل، أعلنت المرأة العجوز أنها ظلّت تحتفظ بسرٍّ مهمٍّ معظم حياتها، وقد نقلته إلى شخص آخر الآن. قال عالم الأنثروبولوجيا: "لكن آيفي لا تفهم ما قلتِه لها!"، فنظرت إليه المرأة العجوز بشفقة وازدراء. قالت له إنه لم يفهم ما يهم في الموضوع، وأنها تخفّفت من عبء السر الذي تحمله قبل وفاتها، وفعلت ذلك بطريقة تحافظ على سريته.

استيقظت آيفي في وقتٍ مبكرٍ من صباح اليوم التالي، وعبرت غرفة المعيشة، حيث كان الناس لا يزالون نائمين على الأرض، ثم فتحت الباب صدعًا وتسللت إلى الخارج، فتجمدت تمامًا بسبب ما رأته هناك، من خلال الضباب الذي يطفو في الوادي. اكتست جميع الأشجار على سفوح التلال باللون الأبيض. وفي أثناء سيرها في القرية لاحقًا، سترى آيفي الأزهار المتساقطة في كل مكان، كنجومٍ صغيرة

عالقة في الوحل. لكن بينما هي واقفة في مدخل الباب، لم تدرك في البداية أن المطر تسبَّب في تفجُّر الأشجار بالزهور. قالت آيفي: "عندما رأيت كل ذلك اللون الأبيض، فكرت في العرائس، واعتقدت أنهم قتلوا كل العرائس وعلقوهن في الأشجار".

لماذا أتذكر هذا؟ حدث كل هذا منذ وقتٍ طويلٍ جدًّا، ولم تروِ آيفي القصة منذ سنوات.

مكتبة
t.me/soramnqraa

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

شكر وتقدير

شكرًا لصندوق الأدب التابع لمجلس أستراليا، وخاصة لينا كاستوميس، وإلى وكالة حقوق الطبع والنشر وقسم اللغة الإنجليزية بجامعة نيو ساوث ويلز، وخاصة آن بروستر، وإلى قسم اللغة الإنجليزية بجامعة سيد ني.

شكرًا جزيلًا لجان بول بيرالدي على مساعدته في البحث، وجان بول وفرانسواز على كرمهما قبل أربعين عامًا. شكرًا أيضًا لأديل فيرجسون، ومادلين كيلي، ومايلز نيري، وإيمون أوفاريل وايت، ومارك ويليامز، وشكرًا لروبرتا ترابي على المساعدة في اللغة الإيطالية وعلى الدعم على مر الزمن.

شكرًا جزيلًا للنساء الحكيمات الثلاث، كلير درايسديل، وجين بالفريمان، وبات ستراشان، وزملائهن الرائعين في دار ألين وأنوين وكاتابولت.

شكرًا لجميع أصدقائي الكتّاب، على الكتب، والمحادثات، والشعور بوجودنا في شيء مشترك معًا. إلى نيل موخيرجي، ممتنة أيضًا للرسالة الكريمة، وإلى فيونا ماكفارلين، لقراءتها المتعمقة للمخطوطة، ولجميع وجبات الإفطار في "ذا جنرال".

شكرًا للجميع في وكالة لوتينز وروبنشتاين، وشكرًا جزيلًا لسارة لوتينز على الصداقة الصدوق، والتوجيه على مرِّ السنوات، وشكرًا جزيلًا لكريس أندروز، أعز قرائي.

نبذة عن الكاتبة

ميشيل دي كريتسير روائية أسترالية وُلِدت في سريلانكا، وانتقلت إلى أستراليا عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. تلقَّت تعليمها في ملبورن وباريس، ونشرت أول رواية لها، "زارع الورود"، في عام 1999. ترشَّحت رواياتها وفازت بعديدٍ من الجوائز، حتى نُشرت روايتها، "الكلب المفقود"، عام 2007، التي كانت واحدة من ثلاث عشرة رواية وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة مان بوكر للرواية لعام 2008، كما فازت رواية "وحوش مخيفة" بجائزة راثبون فوليو الأدبية عام 2023.